





أيامي في السودان

هنري سيسيل جاكسون

ترجمة السفير/ عوض أحمد الضو

نبذة عن المترجم

السفير عوض أحمد الضو

- ولد بمدينة مدني في عام ١٩٣٥م
- متزوج و له ولدان و بنتان
- درس بمعهد بخت الرضا، و عمل بالتدريس حتى وصل إلى مرتبة مدير مدرسة.
- نال شهادة كمبردج الثانوية من الدرجة الأولى، و درس القانون بجامعة القاهرة فرع الخرطوم ، و ذلك أثناء عمله بالتدريس.
- التحق بوزارة الخارجية و تدرج فيها حتى درجة سفير، و عمل في نيجيريا وألمانيا والصومال وبريطانيا.
- أحيل إلى التقاعد في عهد الرئيس نميري، و ذلك في عام ١٩٧٦م، ثم تم إنصافه بقرار من مجلس الوزراء في العام ١٩٨٩م في عهد حكومة الصادق المهدي و أعيدت إليه جميع حقوقه.
- عمل بالترجمة بوزارة الدفاع السعودية متعاوناً مع فرق التدريب العسكري الأمريكية التي كانت تقوم بتدريب الجيش السعودي على الأسلحة الحديثة.
- عمل بإدارة الترجمة بشركة أرامكو للبترول و بعدها في نفس المجال بشركة صدف للبتروكيماويات ، ثم تم تعيينه من مجلس الإدارة كسكرتير للمجلس و سافر في مهام الشركة إلى هيوستن و لوس انجلوس بأمريكا و أكوبولكو بالمكسيك و جنيف بسويسرا.
- عضو المنتدى التربوي و رابطة شعراء السودان و منظمة قدامى السفراء.
- له ديوان شعر بعنوان (ليالي النيل) طبع في عام ٢٠٠٥م ضمن منشورات الخرطوم عاصمة الثقافة العربيّة.

ردمك: 978-99942-3-940-5


أيامي
في السودان




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

دفعاً لحركة الفكر والثقافة،

ورعاية للقيم السودانية،

واهتماماً بترسيخ المبادئ الوطنية،

تصدر هذه السلسلة

بتوجيه رفيع من

الفريق أول مهندس ركن/

عبد الرحيم محمد حسين

والي ولاية الخرطوم


أيامي
في السودان ..



فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر - السودان

920.1624 جاكسون، هنري سيسل، 19 -
ج.أ
أيامي في السودان 1907-1953/ هنري سيسل جاكسون، ترجمة عوض أحمد الضو. - الخرطوم: هيئة الخرطوم للصحافة والنشر، 2015
300 ص : ؛ 24سم
ردمك: 978-99942-3-940-5
1. هنري سيسل جاكسون - المذكرات . 2. السودان - ترجم.
أ. عوض أحمد الضو (مترجم)، 1933م-.
ب. العنوان.

الناشر: هيئة الخرطوم للصحافة والنشر
السودان - الخرطوم - الرياض - شارع عبد الله الطيب - مربع (٢١) - منزل رقم (٣٠٣)

Email.khartoumbook@gmail.com

مقدمة الناشر

يأتي مشروع طباعة (المائة كتاب) الذي أطلقته هيئة الخرطوم للصحافة والنشر من ضمن الأهداف الثقافية الكبرى التي تضطلع بها ولاية الخرطوم باعتبارها الولاية القومية الممثلة لوسطية السودان الجغرافية والإجتماعية والثقافية إلى جانب مكانتها السياسية والإدارية التي حازتها منذ أنْ صارت عاصمة للبلاد في الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي.

هدفت الهيئة بإطلاق هذا المشروع الثقافي الرائد إلى إبراز دور الولاية في خدمة قضية الثقافة بسد جزء من الفراغ الذي تعاني منه المكتبة السودانية، عن طريق رفدها بعناوين جديدة من الكتب واعادة طباعة أمهات المؤلفات السودانية لإنعاش الذاكرة الثقافية الوطنية فضلاً عن رعاية وتشجيع المبدعين الشباب على نشر أعمالهم الثقافية المتميزة.

ولكي تطمئن الهيئة على جودة وجدوى ما تطبع من الكتب، فقد أوكلت مهمة اختيارها وقبولها وتقييمها لفريق استشاري مقتدر من المختصين في مجالات التأليف والطباعة والنشر، وهو الفريق الذّي أطلقت عليه الهيئة اسم (اللجنة الاستشارية للنشر)، وقد استطاع هذا الفريق المؤهل أنْ ينجز في وقت قياسي اختيار وتقييم وإجازة نشر المائة الأولى من الكتب التي تمت طباعتها جميعاً في العام ٢٠١٦م.

أمّا في العام ٢٠١٧م فقد فرغ الفريق الاستشاري من تجهيز المائة الثانية من الكتب توطئة لنشرها جميعاً خلال العام ٢٠١٨م.

إنَّ هيئة الخرطوم للصحافة والنشر إذ تتصدى لهذا المشروع الثقافي القومي

الرائد ، تتشرف بأنْ تكون هي المؤسسة الوطنية الأولى - منذ استقلال السودان- التي تتمكن من نشر هذا الكم المقدر من الكتب، يضاف إلى ذلك أنَّها أول جهة تتولى تقديم خدمات تشجيعية متميزة للمؤلفين تتمثل في إعفائهم من كلفة الطباعة خلافاً لما اعتادت عليه دور النشر الأخرى من فرض شروط تتعلق بالتزام هؤلاء المؤلفين بالمساهمة في قيمة الطباعة أو القبول بتعويضهم عن مؤلفاتهم المقدمة للنشر بكمية ضئيلة من المطبوع تترواح ما بين ٤٠- ٥٠ نسخة أمَّا الهيئة فتتكفل بكامل كُلفة الطباعة ثم تمنح المؤلف ٣٠٠ نسخة عن كل ١٠٠٠ نسخة مطبوعة عوضاً عن قيامها بالترويج للكتاب المطبوع عبر وسائل الاعلام على نفقتها الخاصة.

وهكذا فإن الكتاب السوداني الذي ظل يعاني من عيوب الشروط المجحفة للناشرين إلى جانب ضعف الامكانيات الفنية والتحريرية والطباعية، قد وجد في الهيئة حاضنةً رؤوم تمكنه من الانتشار ومنافسة المطبوعات العربية والأجنبية.

وهيئة الخرطوم للصحافة والنشر إذ تتشرف بوضع هذا الجهد الثقافي بين يدي القارئ الكريم ، تتطلع إلى مزيد من تجويد الأداء، وتسعى بكل إمكاناتها وخبراتها إلى إزالة كافة المعوقات التي تحول دون انتشار الكتاب السوداني، كما أنَّها لن تدخر وسعاً من أجل أنْ تدفع بمشروعها الثقافي هذا إلى أرحب الآفاق.

مقدمة المترجم

مؤلف الكتاب هو (هنري سيسيل جاكسون) ، أحد البريطانيين الذين التحقوا بالخدمة المدنية في السودان عام ١٩٠٧ ، بعد تخرجه من جامعة أكسفورد. و قد قضى في الخدمة حوالي ٢٤ عاماً عمل خلالها في جميع مديريات السودان المعروفة آنذاك. كان جاكسون معروفاً بتعاطفه مع الفقراء و المحرومين و خاصّةً الأرقاء، مما أكسبه محبّة هذه الفئات على وجه خاص. و كانت آخر وظيفة شغلها تحت نظام الحكم الثنائي هي وظيفة مدير المديرية الشمالية ، و رغم أنه توفي في بداية الخمسينيات من القرن الماضي إلا إنّه ما يزال هنالك، في مروي ، قصر فخم وحديقةٌ غنّاء باسمه ، كما أنّه دُفن في جبل البركل المواجه لمروي في الضّفّة الأخرى من النيل ، و لا شكّ أنّ جاكسون كان متأثّراً بالدّعوة إلى إزالة الرّق التي سادت أوروبا في بداية القرن الثامن عشر و كان من نتائجها تعيين غردون باشا في البداية لمحاربة الرق في السودان قبل تعيينه حاكماً عامّاً.

كان جاكسون من مثقّفي الخدمة المدنيّة الذين ألّفُوا عدداً من الكتب أثناء خدمتهم بالسودان ، مثل هذا الكتاب الذي بين يديك ، و الذي كان عنوانه في الأصل (Sudan Days & Ways) و قد ترجمناه بتصرف بعنوان (أيامي في السودان) ، و مثل كتاب (عثمان دقنة).

و مثل جاكسون ، كان هنالك «هارولد ماكمايكل» الذي ألّف (تاريخ العرب في السودان) ، و ترجمه إلى العربيّة في جزئين السيد محمد علي زيدان المحامي ، الذي اشتغل فترةً بالترجمة.



تمهيد: المسرح السوداني

السودان قطر في حجم مساحة أوروبا، تتعدد فيه الأعراق المختلفة مثلما تتعدد وتقسم تلك القارة المنهكة. فعندما تسافر من الشمال جنوباً – وهي رحلة كانت تستغرق، قبل ثلاثين سنة، أكثر من ثلاثة أسابيع بالقطار والباخرة – فإنك تنتقل من صحارى الإقليم عديم الأمطار المصطلي بالشمس إلى أراضي السافنا الوسيطة ثم إلى مستنقعات وأدغال الكنغو وحدود يوغندا. لعبور البلاد من الشرق إلى الغرب قبل فتح دارفور فقد كانت رحلة قصيرة، ولكنها كانت تستغرق في تلك الأيام وقتاً أطول لأنها لا تتم إلا بقوافل الجمال بطيئة الحركة.

يعيش في السودان الشمالي العرب الرحل وهم مسلمون متحمسون، يرعون إبلهم وغيرها من البهائم على القليل من النباتات الصحراوية. وأما على ضفاف النيل فيفلح المزارعون أراضيهم ويروونها بوسائل بدائية كالساقية والشادوف التي لم تتغير طيلة قرون. وأما في الجنوب فيعيش الوثنيون على كميات ضئيلة من لبن أبقارهم الحبيبة إليهم، وكميات قليلة من الحبوب والمحصولات الأخرى التي يزرعونها موسم الأمطار.

تأخذك الرحلة من الشرق إلى الغرب عبر جبال البحر الأحمر التي ترتادها الوعول الجبلية، حيث تسكن قبائل حامية في خيام من سعف الدوم، وينتهي بك المطاف في مديرية دارفور حيث تجد عرب البقارة الذين يركبون الثيران ويحملون حراباً عريضة الرؤوس (الكبس). أما إذا كنت مسافراً من الشمال نحو الجنوب فإنك تلاقي النوبيين الكرماء الملتزمين بالقانون والجعليين المغامرين وهكذا حتى تصل إلى قبائل الدينكا والنوير والشلك المتأهبة دائماً للحرب.

وتختلف حيوانات السودان المتوحشة مثلما يختلف السكان الذين تعيش معهم في نفس البلاد. وحتى الصحراء الشمالية الخالية من المياه لها حيواناتها وطيورها، فالغزال وابن أوى والثعلب والضبع وطيور القطا وبالطبع النسور المشئومة، فإنها كثيراً ما ترى في مناطق بعيدة عن النيل. وفيما بعد الخرطوم، في اتجاه الجنوب، فإن كل يوم من الرحلة يصبح أكثر تشويقاً. فالحيوانات التي يزداد تنوعها تسر المسافر الذي يراقبها من أعلى أسطح الباخرة التي تتحرك بالمجداف الدائري ببطء. وتستلقي التماسيح ذات المنظر الشرير على كل شاطئ رملي كأنها كتل خشبية. وهنا يلقي فرس النهر نظرات خاطفة بعينيه الصغيرتين على الباخرة قبل أن يغطس بهدوء. وعلى بعد بضعة مئات من الأمتار تستمر أفراس النهر الأخرى في اللهو رغم الباخرة المارة عن قرب. وعندما يرخي الليل سدوله تأتي قطعان بقر الجاموس بعضها داكن اللون وبعضها محمر لترعى بجانب النهر، كما يأتي الفيل الضخم ليشرب. كما يمكن رؤية الزراف والعديد من أنواع بقر الوحش في هذه المناطق الجنوبية، حيث تعرض أفريقيا لأعيننا المعجبة كامل ثروتها من هذه الحيوانات الرائعة. وإن زئير الأسد الذي يتردد من وقت لآخر في هدأة الليل يذكرنا بأن ليس كل شيء آمناً كما يبدو من سطح الباخرة. وفي كل يوم حتى بعد دخول منطقة المستنقعات الشاسعة في آخر مرحلة من الرحلة النهرية يمكن مشاهدة أعداد غير محدودة من الطيور.. كطيور النسّاج الصغيرة المرحة ذات الأوكار المعلقة والطائر السمّاك ذي اللونين الأبيض والأسود وهو ينقض على الأسماك خلال رذاذ الماء الذي يتطاير من مجداف الباخرة الدائري. وقد يرى المحظوظ من مشاهدي الطيور طائراً ضخماً من فصيلة أبو مركوب الغريب الشكل ذي اللون الرمادي البلاتيني وهو واقف دون حراك، وذلك في منطقة السدود قرب بحيرة نو. وهذا الطائر من بقايا سلالات ما قبل

التاريخ. ومحظوظ حقاً من يراه لأنه لا يوجد في مستنقعات وسط أفريقيا. فالملايين من الطيور مع اهتمام المسافرين الخاص بها فإنها تسر الناظر، إلا أنك تبدأ في الإحساس بأن هنالك شيئاً ناقصاً. وفي النهاية تدرك أن من جميع هذه الطيور الجميلة الجاذبة، فإن الوحيد الذي سمعته يغني هو الطائر الصغير المسمى بهزاز الذنب.

لم يعرف عن هذا القطر الشاسع الذي تبلغ مساحته حوالى مليون ميل مربع إلا القليل من المعلومات، حتى غزاه الأتراك في سنة ١٨٢٠. أما قبل ذلك فتكاد تكون مصادر المعلومات الوحيدة عن السودان هي الانطباعات العرضية لأولئك الرجال الشجعان الذين قاموا بزيارات قصيرة إليه قبل مائتين إلى ثلاثمائة سنة والقليل من الوثائق المحلية التي تتعلق بحياة رجال دين أو ببعض القبائل. ومنذ ١٨٢٠ كتبت كثير من الكتب عن السودان ،وإن مأساة الثمانين سنة التي أعقبت دخول الأتراك معروفة بكل تفاصيلها المحزنة. وبالإضافة إلى ذلك بدأ علماء الآثار خلال نصف القرن الماضي في إلقاء الضوء على الماضي المبهم المظلم. فقد أوضحت الحفريات الحديثة التي قام بها أ. ج. آركل أنه قبل ستة آلاف سنة كانت هنالك مستنقعات شاسعة في موضع الخرطوم الحالي، وهي تشكل مأوى لجرذان القصب المنقرضة Nile Lechwe (وهي لا توجد الآن إلا في منطقة الشلك) وحيوانات أخرى غريبة. وتجوب قطعان الفيلة والكركدن والجاموس وبقر الوحش والجياد الوحشية والنمور والقطط البرية الغابات والمراعي، حيث لا توجد الآن إلا بعض الأشجار الشوكية وشجيرات تفاح سدوم الداكنة مما يخفف من كآبة الأصقاع الواسعة من الرمل والحصى. وكم أصبح الناس أيضاً مختلفين اليوم عن الزنوج ذوي الرؤوس الكبيرة والفكين العظيمين، الذين كانوا يستخدمون النبال والسهام ذات السنان الحجرية، ويصيدون الأسماك

بحراب ذات أنصال من الحجر. وفي أماكن أخرى من السودان وخاصة في الشمال حيث دفنت مدن وقلاع ومعابد منذ زمن طويل في الرمال قد بدأت الآن تفرج عن أسرارها وتعطينا فكرة عن كيف كانت حياة ومعتقدات الناس الذين عاشوا قبل آلاف السنين.

يبدو أنه قبل ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد كانت هنالك تجارة بين مصر وما يعرف الآن بالسودان. وفي تلك الأيام فإن جزيرة فيلة أو أسوان الحالية كانت تشكل الحدود الجنوبية لمصر. وهي حدود طبيعية بين الأراضي المصرية الخصبة والأراضي الصخرية المقفرة التي تمتد إلى ثلاثمائة أو أربعمائة ميل بعد حدود مصر. وقد تشكل اليوم الحد الفاصل بين مصر والسودان. وكثير من الناس في إقليم حلفا بالسودان يعتبرون أنهم أقرباء إثنياً ولغوياً لأولئك الذين يعيشون بين جزيرة فيلة ووادي حلفا.

جنوب هذه الحدود وحتى بلاد (بنت) PUNT على سواحل الصومال وتشمل هذه المنطقة السودان الحالي كان يسميها المصريون «الأراضي الجنوبية» أو (بلاد نهيسي) NEHESI و(بلاد القوس) TASETY.

فيما بعد عرفت تلك البلاد باسم إثيوبيا أو أرض كوش المذكورة في الإنجيل. إثيوبيا أرض الأسرار وكذلك شعبها، وحسبما ذكر هوميروس هم الأبعد من جميع الخلق، يعيشون في بلاد شاسعة، بحيث أن بعض الأثيوبيين يسكنون حيث تشرق الشمس وبعضهم حيث تغيب. هي أرض الإثيوبيين النبلاء حيث ذهب إليها الآلهة زيوس وبوسايدون وغيرهما من الآلهة بأمل الحصول على ذبائح مشوية بالمئات من البقر والضأن.

وفي هذه البلاد الكثير مما يحتاجه المصريون لإثراء معابدهم وتزيين منازلهم وكذلك الكثير لمتعهم الشخصية. وعندما لا يستطيعون الحصول على ما

يريدونه بالتجارة السلمية فإنهم يأخذونه بالقوة.

من الوقت الذي قاد فيه الفرعون سنفرو في عام ٢٩٠٠ قبل الميلاد حملة غزا بها الأراضي الجنوبية وإدعائه باستيلائه على سبعة آلاف من الرجال والنساء ومائتي ألف رأس من البقر وغيرها من البهائم، فإن هذه الأصقاع عانت كثيراً من الغارات المستمرة. وقد كتب أحد قواد القوافل يقول (أرسلني سيدي جلالة الملك لتدمير واوات وإرثت (Wawat & Erthet) وقد فعلت وقد أثنى عليّ سيدي. فقد ذبحت عدداً كبيراً هناك ومنهم أطفال وزعيمهم وأعياناً ممتازين في بلاطه. كما عدت بعدد كبير من الأسرى الأحياء لأنني كنت بطلاً على رأس العديد من المحاربين العظماء).

لمدة حوالي ألفي سنة كانت كوش خاضعة لمصر باستثناء فترات قصيرة، عند ما صارت مصر ضعيفة والكوشيون أقوياء لتحدي مصر. لكن من حوالي سنة ٩٥٠ قبل الميلاد بدأ تغيير في العلاقات بين البلدين فقد برز على مسرح التاريخ كوشي من أسلاف السودانيين المعاصرين.

في الألفية الأولى قبل الميلاد تدهورت قوة مصر وتدريجياً فقدت أجزاء من أمبراطوريتها التي امتدت في يوم ما إلى حدود إثيوبيا جنوباً وإلى حدود العراق شرقاً. أما جنوب مصر فقد حكمتها سلالة من الملوك الكهنة الذين كانوا مهتمين بتأدية طقوس دينهم أكثر من المشاكل الإدارية والأعمال الحربية. هؤلاء الحكام هربوا من طيبة في القرن الثامن قبل الميلاد واستقروا في نبتة قبالة مروي الحديثة. وبحلول عام ٧٥٠ قبل الميلاد لم تصبح كوش فقط مستقلة عن مصر، بل مددت حدودها لتشمل طيبة التي أصبحت بعد قليل فيما بعد عاصمتها.

في عام ٧٢١ قبل الميلاد سيطر بعانخي الأمير النوبي على جميع أرجاء مصر،

وتم الاعتراف بملوك كوش ملوكاً لكوش ومصر.

أصبحت آشور في هذا الوقت القوة المهيمنة في غربي آسيا نتيجة للتوسع العسكري. وبعد التغلب على مملكة سوريا وسرغون في عام ٧٢١ قبل الميلاد استولت على السامرة وأخذت الشعب اليهودي وبقيت الآن فقط مملكة جوديا الصغيرة الواقعة بين آشور ومصر تحت سيطرة كوش. وبالرغم من الحفاظ الظاهر على الصداقة كان الصدام بين آشور وكوش لابد واقعاً. وعندما غزا سنحاريب جوديا وحاصر أورشليم «القدس» أرسل (شبكة) جيشاً قاده تهارقا الذي ربما كان صغيراً للغاية حسبما جاء في (كتاب الملوك)، ولكن قبل أن يلتقي الجيشان أجبر الطاعون الذي تفشى في جيش آشور إلى تراجعه عن جوديا عام ٧٠١ قبل الميلاد. وقد ذكر (كتاب الملوك) أن الجيش أمضى تلك الليلة فأرسل الإله إليه ملكاً نشر الوباء في المعسكر فأصاب خمسة آلاف وثمانين. وعندما نهض الجيش في الصباح كان جميع المصابين جثثاً هامدة.

استمر تهارقا الذي ارتقى العرش سنة ٦٨٨ قبل الميلاد في التآمر مع أتباع آشور في فلسطين. وكانت النتيجة أن ايسارهدون (ESARHADDON) غزا مصر مرتين. وبحلول عام ٦٦٦ قبل الميلاد طرد الكوشيين منها. وقام خليفة تهارقا بمحاولة واحدة فاشلة لاسترداد مصر. ولكن منذ عام ٦٥٤ قبل الميلاد حصر الكوشيون أنشطتهم في حدود بلادهم وعاصمتها نبتة التي استمروا في تجميلها ببناء المعابد على الطراز المصري لمدة قرن أو ما شابه ذلك.

في القرن السادس قبل الميلاد نقلت عاصمة المملكة نبتة إلى جزيرة مروي بين نهر النيل ونهر عطبره، وعرفت في العهد القديم باسم (استابورس) (ESTABOURS) وهنا بنيت بعض المعابد وأهرامات صغيرة الحجم، ولكن لبعض القرون ظلت نبتة العاصمة الدينية التي يتوَّج فيها الملوك ويدفنون.

منذ هذا الوقت بدأ أهل مروي ينظرون جنوباً أكثر مما كان شمالاً ويمدون نفوذهم إلى حدود إثيوبيا ومستنقعات النيل الأبيض. وما زالت تعتبر آنذاك جزيرة الفيل (اليفانتين) (ELEPHANTINE) هي حدود مملكتهم من ناحية الشمال. ويشير المرويون إلى البلاد الأكثر رخاء الواقعة بين النهرين أرض شمال السودان الجرداء. و لم يغز سكان جنوب الوادي مصر حسب علمنا إلا مرة واحدة بعد ذلك. في عام ٢٣ قبل الميلاد هاجموا (فيله) (PHILAE) و(ساين) (SYENE) ولكن وقع عليهم انتقام سريع. فالحاكم الروماني قايوس بترونياس طردهم من الحدود وهدم مدينتهم نبتة. واضطرت (الكنداكة) (وهو لقب تحمله جميع ملكات مروي) إلى التماس السلام واستعادة أراضيها التي فقدتها. وفي عام ٣٥٠ بعد الميلاد هاجم أكسانا ملك أكسوم المملكة المروية ودمرها.

في غضون ذلك كانت المسيحية تنتشر في السودان. نحن لا نعلم كيف جاءت المسيحية إلى السودان ولكننا نقرأ في الجزء الثامن من القوانين الرسولية، الآية ٢٧، أن رجلاً إثيوبياً وهو «خصيّ» له سلطة واسعة تحت الكنداكة ملكة الإثيوبيين جاء إلى القدس للتعبد، ربما في عام ٣٤ بعد الميلاد، قام بتعميده فيليب وربما أنه عاد إلى السودان لتعليم المسيحية، أو ربما كان القديس مارك الذي قيل إنه ألقى مواعظ دينية في إثيوبيا.

حتى القرن السادس حققت المسيحية تقدماً. ولعدة سنوات ظل المسيحيون يهربون من أعمال الاضهاد التي يمارسها الرومان في مصر ويتجهون إلى السودان، بينما ظل الأكسوميون الإثيوبيون في الجنوب يمدون نفوذهم تدريجياً في إتجاه الشمال. وفي سنة ٥٤٠ ميلادية قام الملك النوبي سلكو الذي تحوَّل حديثاً إلى المسيحية (ولو أن هذا لم يتأكد حتى الآن)، قام بالسيطرة على جميع المناطق بين الشلال الأول والرابع. ومع ذلك فإن قدوم المسيحية

لم يأت بالسلام إلى هذه الربوع المخرَّبة. وقد نقش الملك سلكو هذه العبارة «أنا زعيم النوبيين وجميع الإثيوبيين. أنا... أخضعت البليميين.. أما بالنسبة لزعماء الأمم الأخرى الذين يصارعوني من أجل السيادة فإنني لن أسمح لهم بالجلوس في الظل بل في الخارج تحت الشمس. وهم لا يستطيعون حتى أخذ شربة ماء إلي بيوتهم. وأما بالنسبة لأولئك الذين يشكلون مقاومة بالنسبة لي فإنني آخذ زوجاتهم وأطفالهم».

ولفترة ألف سنة ظل السودان مسيحياً مقسوماً إلى مملكتين: المقرة وعاصمتها دنقلا وعلوة وعاصمتها سوبا على بعد أميال قليلة جنوب شرقي الخرطوم على النيل الأزرق.

ومع أن المسيحية كانت تقوِّي قبضتها على السودان تدريجياً، إلا أن تأثيرات أخرى كانت تعمل وأدت إلى زوالها في النهاية.

عام ٦٤٠ ميلادية غزا العرب مصر بقيادة عمرو بن العاص. وخلال قرون دخل كثيرون منهم السودان. ودخل منهم آخرون عن طريق البحر الأحمر وقد جذبتهم القصص التي يرويها التجار عن الأوضاع في السودان. فالسودان مثل الجزيرة العربية في كثير من النواحي، ولكنه أغنى في الرعي كما إنه غزير المياه. كذلك كان من الطبيعي لكثير من أصحاب الإبل والماشية في الجزيرة العربية عبور البحر إلى عالم جديد، حيث يشعرون أنهم ما زالوا في وطنهم وفي بلد أكثر ازدهاراً وعطاء.

في ١٥١٧ ميلادية فتح سليم الأول سلطان تركيا مصر وغزا شمال السودان. وفي حوالى نفس الوقت هاجم الفونج سوبا ونهبوها وجعلوا سنار عاصمة مملكتهم. وبين الأتراك والعرب في الشمال والفونج في الجنوب انضغطت المملكة المسيحية حتى الموت. فقط أطلال القليل من المباني والكنائس التي

نجت من الدمار الذي قام به العرب والفونج قد بقيت تذكاراً لهذه الفترة المسيحية.

حكم الفونج السودان لنحو ثلاثمائة سنة، إلا أن سلطانهم في كثير من المناطق لم يكن إلا إسمياً. وفي بداية القرن التاسع عشر فإن الصراعات الداخلية والمنافسات مزقت مملكة الفونج مما أدى إلى سقوطها لقمة سائغة للجيوش التي أرسلها محمد علي باشا لغزو السودان في سنة ١٨٢٠ ميلادية.

كان السودان لحوالى ألفي سنة تحت سيطرة مصر. ولحوالى مئات السنين مستقلاً بثقافته المروية الخاصة به. ولفترة ألف سنة قامت فيه مملكتان مسيحيتان مستقلتان ولفترة ثلاثمائة سنة تحت حكم الفونج والآن أصبح جزءاً من الإمبراطورية العثمانية.

محمد علي باشا كان مغامراً ألبانياً فرض سلطته على مصر واستولى على البقاع الإسلامية المقدسة. وما زالت لديه آنذاك شهية لمد سلطته وتابع مسلك الفراعنة بالنظر جنوباً إلى السودان وهو يحلم بثروة لا توصف من الذهب وسن الفيل والعبيد مثلما فعل الغزاة السابقون. وهكذا أرسل ابنه إسماعيل باشا سنة ١٨٢٠ على رأس قوة مسلحة مع أوامر للسيطرة على طرق التجارة عبر البحر الأحمر والاستيلاء على مناجم الذهب التي كانت معروفة بأنها في السودان.

منذ سنة ١٨٢٠ يقع تاريخ السودان في ثلاث فترات محددة تماماً التركية: وهي من سنة ١٨٢٠ حتى مقتل غردون في ٢٦ يناير ١٨٨٥. والمهدية: أخذت اسمها من محمد أحمد المهدي. واستمرت من يناير ١٨٨٥ وحتى موقعة أم درمان في ٢ سبتمبر ١٨٩٨. والحكم الثنائي: حكم مشترك من قبل بريطانيا ومصر وذلك بعد معركة أم درمان، وهو يقترب الآن من الختام.

إن فساد وقسوة وعدم كفاءة الإدارة أثناء الفترة التركية من الصعب إدراكها، حيث تعتبر الآن العدالة والحرية من المسلمات في السودان. إن القصص المرعبة التي حكاها لي كبار السن الذين ما زال بعضهم يحمل آثار العقوبات القاسية قد تركت في نفسي انطباعات عميقة. فمن المستحيل تذكر ظلم الحكام دون الاشمئزاز من أفعالهم أو تذكر شجاعة وتحمل المزارع السوداني البسيط دون الإعجاب به.

وحتى سنوات قليلة ماضية كان السودان يعتبر دائماً من قبل المصريين بلداً خطراً ورهيباً لا يرغب شخص في الذهاب إليه طواعية. بعض الأتراك والمصريين الذين يعينون لإدارة السودان يرسلون إلى هناك بدلاً من قضاء عقوبة السجن لبعض الجرائم التي اقترفوها في مصر. والبعض الآخر الذين يجدون أنفسهم منفيين إلى السودان يقررون جمع أكبر كمية من المال في أقصر وقت ممكن ليعودوا إلى وطنهم. وكانت تجارة الرقيق توفر أسرع طريق لجمع المال. ولآلاف من السنين كان المصريون يغيرون على السودان من أجل الرقيق، ولكن لم ينظم الرق كتجارة حتى القرن الأخير وذلك حين بدأت القوات التركية في فتح الطرق للسفر، وحينما بدأ التجار المعروفون باسم «الجلَّابة» التوغل في الجنوب لممارسة التجارة ولمقايضة السلع القادمة من الشمال بسن الفيل وقرون وحيد القرن وغيرها من السلع. ولكن هؤلاء التجار سرعان ما تركوا التجارة المشروعة وبدأوا المتاجرة في الرقيق الأكثر ربحاً، وغالباً ما يجدون تعاوناً نشطاً من المسئولين الحكوميين في هذا المضمار. أصبحت الغارات من أجل جمع الرقيق في جنوب السودان أمراً شائعاً يتم بطرق في غاية القسوة. وقد قتل آلاف الناس أثناء الغارات الفعلية، وتمت معاملة الناجين بوحشية مما أدى إلى موت الكثيرين أثناء الرحلة الطويلة إلى أسواق النخاسة في الشمال. بعض القبائل تكاد تكون أُبيدت بالغارات المستمرة. كانت هنالك عدة قبائل

في المديرية الاستوائية في عام ١٩٢٧ لا يزيد عدد أفرادها عن مائة فرد بالرغم من احتفاظهم بلغاتهم وعاداتهم، ويوسم العبيد بالنار على أكتافهم بنجمة مزدوجة كدليل على عبوديتهم، ويُضربون ويُعذبون لأتفه المخالفات. وإنه لمن الصعب معرفة كيف عاش العبيد مشقة الحياة التي عاشوها. وبالرغم من ذلك فإن بعضهم عاش طويلاً ، وبالإضافة إلى ذلك فإن أحفادهم الكثيرين أصبحوا أفراداً مفيدين لمجتمع السودان اليوم.

تم إخضاع الناس بالجيش الذي لم يكن منضبطاً منذ البداية. وسرعان ما زاد إلى حجم هائل من الأتباع الذين ربطوا مصيرهم به.

فرضت ضرائب فاحشة، وكثيراً ما قامت الفرق المسلحة الضخمة التي تجوس خلال البلاد لغرض جمع الضرائب بقتل الرجال واغتصاب النساء في القرى التي يمرون بها. وتؤخذ الماشية والحبوب، وفي الحقيقة، أي شيء يمكن وضع اليد عليه يعتبر غنيمة. وإذا ثبت أن أي قرية تبدي تمرداً تؤخذ نساؤها كرهائن ويسلمن للجنود سبايا إلى أن تدفع الضرائب.

تفرض أحكام في غاية القسوة على أولئك الذين يتحدون السلطة، وغالباً ما يقتل الرجال بالوضع على الخازوق، كما تتم ممارسة بتر الأعضاء. و لم يكن من النادر فرض عقوبة بخمسمائة جلدة بالبسطونة. وكثير من هذه الأعمال البربرية حرض عليها إسماعيل باشا نفسه. كيلوود Cailliaud)) الرحالة الفرنسي الذي رافق جيش إسماعيل حين دخل السودان، يتذكر كيف أن إسماعيل جعل آذان سجنائه تقطع وتنظم في شكل عقود لإرسالها إلى والده في القاهرة.

لقد جعلت هذه الفظائع أهل شندي يائسين، فقرروا وضع حد لهذه المآسي. وبحلول عام ١٨٢٢ قرر الملك نمر رئيس قبيلة الجعليين دعوة إسماعيل باشا

إلى وليمة بينما تم الاحتفاء بمرافقيه في عدة منازل بمدينة شندي. وفي الوليمة الملكية أغدق الشراب على الضيوف حتى أصبحوا عاجزين تماماً عن فعل أي شئ. وعندئذ وضعت أعواد الذرة والحشائش الجافة حول الأماكن التي كان فيها إسماعيل باشا وأعوانه يعاقرون الخمر، وأشعلت النار في هذا الهشيم مما أدى إلى قتل إسماعيل باشا وأتباعه بالحريق. وانتقم الأتراك انتقاماً رهيباً. قام أحمد بك الدفتردار صهر محمد علي باشا بالهجوم على أهل شندي بقوة كبيرة، وقتل كل رجل وامرأة وطفل قبضوا عليه. و لم ينج إلا القليلون الذين هربوا إلى الغابات على الحدود الإثيوبية.

وظل الفساد والظلم دون رادع لمدة ستين سنة أخرى إلى أن ظهر قائد عظيم في سنة ١٨٨١ ليوحِّد السودانيِّين. وصل محمد أحمد إلى جزيرة أبا (التي هي الآن عزبة ريفية للسيد عبد الرحمن المهدي) كمعلم ديني غير معروف من دنقلا. وأعلن الناس أنه داعية الله المختار وحضهم على التوحد في حرب مقدسة ضد الأتراك وطرد المضطهِدين الأجانب من السودان. وبدأت سيرة حياته عندما أصبحت البلاد ناضجة للثورة وانتشرت أنباء الفكي الجديد الغريب بسرعة كبيرة وجاء الناس بالمئات لسماع رسالته.

كان لمحمد أحمد جميع خصائص القائد الثوري العظيم. الثقة العظمى بالنفس لمن يعتقد أنه ملهم من الإله وقوة أخلاقية عظيمة ونزاهة شخصية عظيمة، كلها أجتمعت لإقناع سامعيه بصدق رسالته. وبإقتناعهم بأنه حقيقة مرسل من الله لمساعدتهم، حيُّوه باسم المهدي المنتظر. وكان هذا هو الجهاد أو الحرب المقدسة. وقد ذكر المهدي أتباعه وحسب حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) بأن من يموت في معركة مجاهداً يدخل الجنة فوراً. إن شجاعة التعصُّب التي كانت نتيجة إلهام هذه العقيدة جعلت جيش الدراويش السيء التسليح يهزم الجيش التركي المصري في معركة إثر معركة.

بدأ حملته وهو على رأس مجموعة صغيرة من الأتباع مسلحين فقط بالحراب والسيوف والسكاكين، وخلال أقل من ثلاث سنوات صار يقود جيشاً منتصراً ولديه أكثر من واحد وعشرين ألف بندقية وتسعة مدافع استولى عليها كلها من العدو.

عانى الجيش التركي المصري خسائر ثقيلة: قتل منه أتباع المهدي أو أسروا عشرين ألفاً أثناء الحملة.

وبالرغم من هذه الخسائر الفادحة كان لدى مصر حوالي أربعة وعشرين ألف جندي (منهم ألفان وخمسمائة في الخرطوم)، موزعين على حاميات معزولة في السودان وبربر والحبشة. كانت مصر متلهفة لتخليص هذه الحاميات ولكن بعد هزائم عديدة لم تستطع فعل ذلك.

و لم تكن كل من بريطانيا ولا تركيا راغبة في إرسال قوات إلى السودان. وكحل وسط غير موفق تم إرسال الجنرال غردون للتعامل مع الوضع. وهذه المهمة الصعبة صارت أكثر صعوبة بالآراء المتضاربة من قبل وزارة الخارجية البريطانية والسير ايفلين بارنج (الذي أصبح يعرف فيما بعد باسم اللورد كرومر)، فيما يتوقع من الجنرال غردون فعله. ولدى غردون آراؤه الخاصة به. وقد حيا الناسُ الذين يعرفونه ويحبونه وصولَه إلى الخرطوم بحماس عارم. ومهما كانت خططه لحل مشكلة السودان عندما غادر إنجلترا بعد إخطار سريع وسافر بسرعة عبر القاهرة في طريقه إلى السودان. وعند وصوله عزم على إنقاذ السودانيين من طغيان الدراويش. وبالرغم من أن الدراويش استولوا على معظم السودان، إلا أن الطريق إلى الشمال بسلام مازال مفتوحاً. كان يستطيع إرسال حامية الخرطوم إلى الشمال واصطحابها بنفسه. ولكن هذا كان يعني لديه ترك السودانيين لمصير من الشر. والسودانيون ينظرون إليه لحمايتهم وإنقاذهم، وهو لا يخون هذه الثقة مهما كلفه ذلك. كتب مرة

يقول «أقسم بأن أقدم حياتي طوعاً لإنقاذ هؤلاء الناس من الآلام». وأصبح الآن غردون مستعداً للوفاء بقسمه وإذا لم يستطع إنقاذ السودانيين فإنه سوف يموت معهم.

قرر أن يحمي الخرطوم لأطول مدة ممكنة على أمل أن يتم إرسال قوة سريعة في يوم ما لإنقاذ الحامية. واستطاع أن يقاوم لفترة أحد عشر شهراً وكان يمكنه أن يقاوم لفترة أطول لو كان راغباً في إجلاء الأعداد الغفيرة من المدنيين الذين سرَّعوا في سقوط المدينة بكميات الطعام التي استهلكوها من مخزون المدينة المحاصرة. فسرعان ما أصبحت إمدادات الطعام غير كافية. فالمئات ماتوا من المجاعة. وأصبح الناجون من المجاعة في غاية الهزال والضعف بحيث لا يستطيعون دفن الموتى. وأصبحت منتشرة على شواطئ النيل هياكل بشرية في غاية الهزال بحيث تجف بسرعة تحت لهيب الشمس الحارقة.

وفي يوم الأحد الرابع عشر من ديسمبر ١٨٨٤ دوَّن غردون آخر معلومة في دفتر اليومية الذي واظب على التسجيل فيه منذ بدأ الحصار « الآن انتبهوا لهذا: إذا لم تصل قوة الإنقاذ خلال عشرة أيام (وأنا لا أطلب أكثر من مائتي رجل)، فإن المدينة قد تسقط. وأنا بذلت أفضل ما عندي لشرف بلادي. مع السلامة».

إن دفاع غردون البطولي عن الخرطوم قد أثار إعجاب شعب إنجلترا لبسالته، كما أثار غضبه على عدم تحرك الحكومة البريطانية. وأخيراً اضطر جلادستون رئيس وزراء بريطانيا بسبب غضب الشعب المتزايد إلى اتخاذ إجراء متأخر. فبعد تأخيرات كثيرة أرسل حملة سريعة تحت قيادة اللورد ولسلي. لكن كان ذلك بعد فوات الأوان. ففي ٢٦ يناير ١٨٨٥ سقطت الخرطوم في يد المهدي وتم تدميرها تدميراً شاملاً. واجتاح الدراويش المتعصبون شوارع الخرطوم يقتلون وينهبون ويحرقون إلى أن أصبحت العاصمة التي كانت مزدهرة في يوم ما أطلالاً كئيبة.

بعد يومين فقط من سقوط الخرطوم وصلت باخرة مسلحة تحمل حرس المقدمة لقوة الإنقاذ. وعند منعطف في النيل رأى الجنود البريطانيون المفزوعون أطلال المدينة المنهوبة ما يزال الدخان يتصاعد منها. لقد تأخرت الحملة عن إنقاذ الخرطوم مدة ثمان وأربعين ساعة! استدارت الباخرة وأبحرت القوة الصغيرة شمالاً وهي حزينة لتبلغ اللورد ولسلي بأن الخرطوم قد سقطت.

من ٢٦ يناير ١٨٨٥ إلى ٢ سبتمبر ١٨٩٨ كان السودان في أيدي الدراويش إلى أن تغلب عليهم اللورد كتشنر على رأس قوة بريطانية سودانية مصرية في معركة أم درمان (كرري) وحطم إمبراطورية الدراويش وأقام الحكم الثنائي. الحكم الثنائي كان تجربة غريبة في الإدارة وقد اخترعها البريطانيون وحدهم و لم يكن لأحد غيرهم أدنى أمل في القدرة على تنفيذها. وعلى أي حال فقد سارت بصورة جيدة ولو أنه في الأزمنة المتأخرة، فإن بعض المصريين ذوي العقول غير المحايدة أثاروا اعتراضات تافهة ضدها، وبالرغم من أن المصريين كانوا لسنوات طويلة في إدارة مشتركة مع البريطانيين، إلا أن المسئولية الرئيسية لتهدئة وتنمية السودان اعتمدت على البريطانيين. لقد كان انحرافاً غريباً للقدر الذي حال بين المصريين ولعب دور مهم في إدارة السودان، وقد كانوا أول من غزوه قبل حوالي ستة آلاف سنة. لقد قرروا أن يترك تقدم البلاد للبريطانيين، الذين لم تكن لديهم أدنى رغبة في احتلال السودان والذي اعتبره سياسي مشهور بأنه «صحراء لا قيمة لها».

لقد ظلت مصر لثلاثة عشر عاماً مهددة بالغزو من الدراويش ولا يمكن ضمان أمنها إلا عند الدراويش من حدودها الجنوبية. وكان لابد من إزاحة هذا التهديد في يوم ما. لكن اللورد كرومر رغب في تأجيل ذلك اليوم إلى أن تتحسن أحوال مصر المالية. لكنه أجبر على تغيير خطته. ففي أوائل ١٨٩٦ صار جلياً أن الفرنسيين يحاولون الدخول إلى السودان من إثيوبيا ومن

ساحل أفريقيا الغربية. وكانت لفرنسا دائماً آمال لإقامة إمبراطورية من غرب إلى شرق أفريقيا. كما أن الإنجليز كان لديهم نفس الحلم لإقامة إمبراطورية تمتد من شمال أفريقيا إلى جنوب أفريقيا. وكان لا مناص من الصدام. هدد التحرك الفرنسي المواصلات البريطانية مع جنوب أفريقيا، وذلك ينتج عنه مرور مياه النيل العليا تحت سيطرة أجنبية. وكان كل من بريطانيا ومصر مهتمتين حيوياً بإفشال طموحات فرنسا. واتخذت خطوات في الحال لإحباطها.

ولولا هذا التهديد لموارد المياه لمصر ولخطوط المواصلات البريطانية خلال أفريقيا لما تمت إعادة احتلال السودان قبل خمس أو ست سنوات أخرى.

الباب الأول

الوصول إلى الخرطوم



الباب الأول
الوصول إلى الخرطوم

كان الجو شديد الحرارة حتى في الساعة الثامنة صباحاً وذلك نحو نهاية سبتمبر ١٩٠٧ عندما ركب ثمانية شبان قطار إكسبرس الصحراء المزدحم بالركاب في رحلته الطويلة من وادي حلفا إلى الخرطوم. كنا جميعنا خريجين جدد من الجامعات. (خمسة من أكسفورد وإثنان من كمبردج وواحد من ترنتي كولدج بدبلن)، وكنا في حالة إثارة لتوقع بدء حياة جديدة في بلاد لا نعرف عنها الكثير وقليل مما تعلمناه من الضباط البريطانيين في الجيش المصري الذين كانوا رفقاءنا في السفر. أعتقد أنه تم اختيارنا من قبل مجلس التعيينات أساساً لأننا رياضيون. وكان التفكير هو أن الرجال الذين يحبون الرياضات في الأماكن المكشوفة لا يكونون الأكثر لياقة بدنية فحسب من أولئك المتعودين على حياة الدرس والجلوس ولكنهم يميلون أيضاً إلى حياة نشطة بركوب الخيل والصيد. وليكن ذلك مهما يكن منحنى الثمانية وضمت مجموعتنا قائداً سابقاً لكرة الركبي في أكسفورد واسكتلندا وقائداً سابقاً لفريق الكريكت بجامعة كمبردج وعضواً بفريق كرة القدم الحادي عشر بجامعة أكسفورد ورجلاً لمحاولات التجديف وعضواً بفرق الكركيت لمقاطعة أكسفورد ومدلسكس ولاعب ركبي لمقاطعة سومرست. إن هذا التركيز على اللياقة البدنية هو سبب القول المأثور إن السودان هو بلدُ السود والبنيين (السمر) يديرهم الزرق (Blacks and Browns Administered by Blues)

بينما تحرك القطار من وادي حلفا ببطء كنا سعداء بأن بعض متاعبنا قد انتهت على أي حال. رائحة السمك المتعفن في الأقصر حيث توقفنا لساعتين لتناول بعض الإفطار وأخذ حمام كنا في حاجة شديدة إليه. الحرارة الخانقة

في عربات صالون لا هواء فيها في خط حديدي ضيق أخذنا إلى الشلال. ثم الحمامات الساخنة ذات اللون الأحمر البني على الباخرة النيلية وماؤها الملئ بالطمي الذي يجلبه النيل الأزرق من جبال إثيوبيا بحيث خرجنا منها ونحن أكثر كآبة مما دخلناها.

ما زالت الحرارة معنا ولا يمكن الفكاك أو الهروب منها بالرغم مما فعلته حكومة السودان لتخفيف معاناة المسافرين. كانت لكل منا غرفة بسرير ومغسلة أيدي يتم طيها ودفعها داخل الحائط ،وطاولة يتم طيها وكرسي جلوس من الخيزران. وفي كل غرفة مروحتها التي تحرك الهواء الساخن ولا تبرده على ما يبدو. ولتخفيف الوهج من الصحراء الحارقة فقد كان زجاج النوافذ المغلقة جزئياً مظللاً. ويبدو أن ذلك ليس إلا لتخفيف وحشة المنظر الخارجي الممل الذي كنا نحدق فيه بمزيج من الحيرة والرهبة. أي نوع هذه البلاد التي سنقضي فيها أجمل سنوات حياتنا؟ إن أبعد ما يمكن أن يصله البصر فإنه لا يمكن رؤية أي شيء سوى الرمل والحصى وبعض التلال التي تشبه الأهرامات، وقد أزالت الرياح وعوامل الطقس رؤوسها عبر القرون. فلا أشجار ولا شجيرات ولا حشائش ولا أزهار ولا ماء. إنه عالم ميت وغير حقيقي مما يمكن أن يكون قد تم تفجيره إلى أرض قاحلة قبل زمن طويل من بدء الحياة على الأرض. كانت الأرض بدون معالم ولا شيء يميز مكاناً عن الآخر. وحتى محطات السكك الحديدية (حيث لا أحد يدخل أو يخرج منها) لا أسماء لها فقط أرقام. وطوال خط السكة الحديدية المفرد يزحف القطار بصعوبة، ولم نلتق بالنيل مرة أخرى إلا بعد زمن طويل من مغيب الشمس عند أبوحمد، وقد تركنا وراءنا من رحلتنا الصحراوية ٢٣٢ ميلاً.

لكن الرمال التي تتسبب في إيقاف القطار أحياناً وذلك عندما يصطدم بكومة رمل لم تكن دون فائدة. سنة بعد سنة وقرناً بعد قرن تنساب تلك الرمال إلى

المساحات الفارغة من الصحراء وإلى المدن والقلاع بشمال السودان لتطمرها لآلاف السنين إلى أن يكتشفها علماء الآثار ويعطون الأجيال الحاضرة لمحة من الماضي. ولولا الرمل لكان مصير هذه المدن المطمورة نفس مصير (أفيبوري) AVEBURY وغيرها من المواقع القديمة ولأزيل طوبها وحجارتها لبناء جدران ومنازل لأناس لم يولدوا بعد. وفيما بعد عندما رأيت هـذه المدن والمعابد شـعرت بامتنان للرمل الذي حفظها. فبدونه لما علمنا شيئا كثيراً عن الناس وطريقة حياتهم في الأزمان الغابرة.

بمجرد أن وصلنا إلى أبوحمد لم يعد المنظر في غاية الكآبة. فإلى شرقي الخط الحديدي ما زالت التلال الجرداء والرمال المقفرة تتابعنا ولكن إلى الغرب، نلمح أحياناً مجموعات من أشجار النخيل بجانب النيل وقليلاً من الأشجار الشوكية وبعض شجيرات العشر. وخلال الليلتين التاليتين توقفنا عدة مرات عندما هددت العواصف الرعدية بجرف الخط الحديدي أمامنا الذي تم إصلاحه قريباً بعد أن عانى بصورة كارثية من هطول أمطار غزيرة في الأسابيع الستة الماضية.

في تلك الأيام ما زال الخط الحديدي هو نفس الخط الذي بناه المهندسون الملكيون في حملة اللورد كتشنر (١٨٩٦ – ١٨٩٨). معظم دعامات الخط كانت توضع على الرمال أو الحصى مباشرة. وكانت هنالك جسورٌ وبرابخ قليلة تحت الخط جزئياً ــ بسبب الاقتصاد في نفقات الخط – خصوصاً و أنه لا أحد في ذلك الوقت كان يعرف المجاري المنتظمة لمياه الأمطار. كانت الأمطار غير منتظمة. والخيران التي تكون ممتلئة إلى درجة الفيضان لعدة أيام في موسم الأمطار تبقى جافة للغاية، لعدة سنوات فيما بعد. وتدريجياً تم بناء جسورٍ فوق جميع تلك المجاري المائية، وأصبحت التأخيرات الوحيدة هي التي تحدث أثناء العواصف الرعدية عندما يتوقف القطار مثلما حدث لنا

عندما جرفت الأمطار الخط أمامنا. ولعدة سنوات أصبحت هذه التأخيرات مألوفة. بعد سنة أو سنتين من معركة أم درمان صادف أن قابل ضابط صغير اللورد كتشنر أثناء إجازته في بريطانيا وشكا له بأن رحلته في السنة الماضية من القاهرة إلى الخرطوم استغرقت ثلاثة أسابيع. رد عليه اللورد كتشنر: «لا أظن أن لديك الكثير لتشكو منه. لقد استغرق مني ذلك ثلاث سنوات».

لقد كنا محظوظين، حيث إن رحلتنا استغرقت أقل من ثلاثة أيام وكان وصول القطار مرحباً به للغاية. فقد كانت الخرطوم مقطوعة عن العالم الخارجي لمدة ستة أسابيع. وكانت كثير من المتاجر قد خلت من البضائع. وقد استغل تاجر إغريقي الظرف فقام باحتكار الكميات المحدودة من البيرة وحقق أرباحاً كبيرة وبغيضة من السكان العطشى.

بعض المدن لديها القدرة على إثارة الذكريات أو تظهر أنها رمز للأرض التي أنبتتها. باريس المرحة تحمل روح فرنسا المفعمة بالحيوية وفيينا البهجة وثقافة الناس المحبين للموسيقى. والقسطنطينية عند ملتقى الشرق والغرب مسجدها مسجد سنت صوفيا الذي يمثل الصراع بين الإسلام والمسيحية. الخرطوم تحيي ذكرى الحياة الورعة والموت الفدائي للجنرال غردون المسيحي ضحية الإسلام.

عند نهاية رحلتنا الطويلة وبمشاعر من التوقعات الحية وقفنا على الشاطئ الشمالي للنيل الأزرق وحدَّقنا عبر المياه إلى الخرطوم. وبالرغم من أن الفيضان السنوي تجاوز قمته فإن المياه الحاملة للطمي من إثيوبيا البعيدة أسرعت باصطحابه إلى البحر الأبيض المتوسط البعيد. معظم تلك المياه سوف تضيع في البحر في الأسابيع المقبلة، ولكن بعضها سوف يفيض ويغمر الأراضي التي يمر بها النيل ويعود بالرخاء على ساكني ضفافه. ومن هذا الخير نستطيع حتى الآن التقاط لمحة من مدينة الخرطوم التي تحفها أشجار النخيل التي تقوم على

مجرى النهر. تقوم الخرطوم عند ملتقى النهرين، حيث يتدفق النيل الأزرق في النيل الأبيض ويعطيها اسم الخرطوم، وهو يعني ، بالعربية ، خرطوم الفيل. ولولا وجود النهرين لما وجدت الخرطوم، وبدونهما فإنها تموت. فيما عدا مجرى النهر فكل الأرض قفر إلا من بعض النباتات الصحراوية وقليل من الشجيرات أو الأشجار الجافة التي تشكل مرعى فقيراً لقطعان ماشية العربان.

تبدو الخرطوم للقادم الجديد مدينة زاخرة بالألوان وذلك بمقارنتها برتابة الألوان الرمادية والبنية طيلة مسيرة السكك الحديدية لمسافة ٥٧٦ ميلاً. إن الشمس في أفريقيا والتي تسرع من المناظر المتغيرة في كثير من المناطق المعتدلة، فإنها تقتل بشدتها المدارية أضواء وألوان كل شيء تضربه. ولا تعيد إلى الحياة مرة أخرى حيوية التربة النائمة المرهقة على ما يبدو من شدة الحرارة إلا عند الشروق والغروب.

السكك الحديدية التي بناها كتشنر تم تمديدها حتى الآن إلى الخرطوم بحري (الحلفايا للسكان المحليين وجهنم بالنسبة للقلة من الإنجليز التعساء الذين أسكنوا فيها)، ولكن لم يكن هنالك جسر عبر النيل، لذلك كان الانتقال بين الشاطئين الشمالي والجنوبي بمعدية تجذب بجنزير بين الشاطئين ويكون ذلك مرفاً أثناء الفيضان.

بينما نحن في انتظار المعدية، فإن النيل الذي يفصلنا عن وجهتنا المباشرة يبدو أنه يرمز إلى الانقسام بين الشمال القاحل والجنوب الوافر بالخضرة. وبالرغم من أن الأمطار الغزيرة غير المعتادة في السودان الشمالي هذا العام قد غطت الأرض ببساط أخضر من الذرة، إلا أن المناطق الكثيرة غير المزروعة بجانب خط السكة الحديدية تشهد على قحولة الأرض التي كان ينبغي أن تسود عادة.

بحلول الوقت الذي تفقدنا فيه حقائبنا الكثيرة وغيرها من الطرود بدأ الطقس يزداد حرارة. وقد كنا شاكرين للسيد كن كورنواليس (فيما بعد أصبح السير كناهان كورنواليس) الذي انتدبه السكرتير الإداري للعناية بنا وترتيب نقل عفشنا إلى المنازل التي خصصت لسكننا. وانضممنا إلى الحشد الذي كاد أن يملأ المعدية. وبعد بضعة دقائق نزلنا من المعدية وقد حيتنا أعداد كبيرة من الحمير بنهيقها. وهي تحية غير لائقة لوصولنا إلى الخرطوم. أوقفت هذه الحمير في صف على الطريق العام لتقوم بتوصيلنا إلى أماكن إقامتنا الجديدة وخلفها صفوف من عربات الكارو ذات العجلين لنقل عفشنا. ركبنا على ظهور حمير عليها سروج عريضة وعليها فرو، وكنا نشعر بأننا سوف ننشطر إلى نصفين في أي لحظة. بدأنا المسير بصيحات من سائقي الحمير لحث الحمير على السير بكلمة «عرت»، وكنا في غاية الضيق لعدم تعودنا على هذه المقاعد، وأحياناً كدنا نسقط عندما ينحرف الحمار خشية سقوط العصا الغليظة على أي من جانبي مؤخرته. وقد غبطنا بعض السودانيين الذين مررنا بهم الذين جلسوا بارتياح في مؤخرات حميرهم ومراكيبهم الحمراء تكاد تسقط من أرجلهم الطويلة التي تكاد تصل إلى الأرض. معظم الحمير ليست لها لجم ولذلك ليست لدينا طريقة لكبحها أو لتوجيهها إلى الإتجاه الذي نريده إلا بالضغط على عنق الحمار بالأصابع. وأحياناً نكاد أن ننزلق من السرج عندما نقابل حميراً أخرى تحمل أكواماً كبيرة من العشب الذي تحمله إلى المدينة وقد فرحنا عندما وصلنا إلى وجهتنا.

الباب الثاني

الأيام الأولى في الخرطوم



الباب الثاني
الأيام الأولى في الخرطوم

الخرطوم كانت مدينة حدائق تم تخطيطها بطريقة بارعة للاستفادة من أشجار النخيل التي تحملت عقداً ونصف العقد من الزمان من الإهمال. وقد خططت بطريقة سارة حيث ميادين التنس وأشجار الفاكهة والشجيرات المزهرة وذلك من قبل مراقب الحدائق الحكومي السيد ف.س. سليتو، وعلى شاطئ النيل بيوت كبار الموظفين البريطانيين والنادي المصري للضباط من الأهالي ومنزل السيد علي الميرغني (أصبح فيما بعد الميرغني باشا) وبضعة مبانٍ حكومية ونحو الشرق كلية غردون وقشلاقات الجيش البريطاني. وخلف ذلك بيوت الموظفين الآخرين والدكاكين. وعلى أطراف المدينة كانت هناك قشلاقات لبعض كتائب من الجيش المصري، وكذلك الديوم أو مناطق سكن للسودانيين وذلك للمحافظة على النظافة وبسبب عادتهم قرع الطبول (الدلوكة) ليلاً ونهاراً، لذلك اقتطعت لهم هذه المنطقة ليبنوا فيها بيوتهم.

أُنشئت الخرطوم بعد غزو الأتراك والمصريين للسودان في ١٨٢٠ وجعلوها عاصمة للسودان. عندما وصل المستكشف بروس في طريقه شمالاً من أديس أبابا إلى مقرن النيلين الأزرق والأبيض في سبتمبر ١٧٧٢ لم يذكر الخرطوم، إذ كانت تتألف في ذلك الوقت فقط من أكواخ صيادي أسماك. ولكنه توقف في الحلفايا وهي قرية تتألف من حوالى ٣٠٠ منزل، حيث لاحظ أن الناس يعيشون على صناعة أقمشة الدمور ويأكلون القطط وكذلك التماسيح وأفراس النهر التي كانت كثيرة في تلك الأيام.

و حيث إن الخرطوم مقر الحكومة فقد جذبت كثيراً من التجار وغيرهم لتلبية احتياجات الموظفين والجنود الذين يحرسون المدينة، وأصبحت مهمة بما

يكفي لبعض القوى الأجنبية لتعيين قناصل بها. لقد كانت المدينة ذات فائدة قليلة لمن أنشأوها، حيث أصبحت مركزاً للتجار الذين نظموا فيها حملات صيد الرقيق وتموينها وتسليحها. و لم يهتم أحد بمشاكل النظافة الصحية. و لم يكن بها نظام صحيح للصرف الصحي، وتوالد البعوض الناقل للملاريا في البرك التي تتجمع فيها المياه في الشوارع. وقد قال الأب أورفالدر، وهو مبشر نمساوي أخذه الدراويش أسيراً فيما بعد، إنه كثيراً ما كان يغوص في مياه النيل هرباً من هذه الآفات. ولولا وجود النسور وغيرها من الطيور آكلة الجيف التي تلتهم الجيف وفضلات الذبائح لأصبحت المدينة أكثر اتساخاً وفي حالة وبيلة للغاية.

عندما قتل الدراويش غردون في سنة ١٨٨٥ ونهبوا المدينة رحلّوا بقية السكان القليلين الناجين من المجزرة العامة تاركين خلفهم خرائب المنازل المنهوبة وبقايا بعض المساجد المهدمة. وتجولت حيوانات بني آوي في الشوارع المهجورة. وتنقلت الثعالب الطائرة من شجرة إلى شجرة. وعشّشت الطيور في الشجيرات التي ازدهرت حول الحيطان المتداعية.

كانت أول أعمال قام بها كتشنر بعد إعادة احتلال السودان هي إعادة بناء الخرطوم. إن المدينة التي هجرت لفترة ثلاث عشرة سنة ماتت بسرعة من الفراغ والإهمال، لذلك كان كتشنر محظوظاً حيث وجد صفحة نظيفة ليرسم عليها وبدون مصالح مكتسبة تعترض مشاريعه. بالنسبة إلى مهندس عسكري كانت مهمة إعادة بناء الخرطوم مهمة ملائمة له بصورة غريبة ومكنّت من الإستخدام الكامل لعبقرية الخيال لديه والتي استخدمها على نطاق رائع. تعجب الكثيرون كيف أن كتشنر الذي يرفض صرف أي قرش إلا إذا كان لاحتياجات في غاية الضرورة، كيف صرف بسخاء على إعادة بناء الخرطوم، بحيث لم يترك مالاً للتطوير العاجل للطرق والمواصلات وبناء

بيوت محصنة ضد البعوض في مناطق الجنوب المصابة بالملاريا. السبب هو أن كتشنر كان مصمماً على إظهار أن الحكومة الجديدة جاءت لتبقى. ولهذا السبب قام ببناء مبان ثابتة ضخمة ومنازل ممتازة للمسؤولين في الخرطوم حيث يكون في ذلك إبهار للناس. كيف أن كتشنر فهم السودانيين جيداً قد ظهر بعد سنوات فيما بعد عندما جاءوا بشيوخ من سواكن وأماكن أخرى، ومن الدينكا والنوير والشلك إلى الخرطوم للحصول على بعض المعلومات عن قوة الحكومة. لقد كان مسلياً للغاية مرافقة بعض هؤلاء الناس المتحفظين من الجنوب في جولة حول الخرطوم (مثلما فعلت أنا في سنة ١٩٢٠) والإستماع إلى تعليقاتهم عن الأشياء الغريبة التي رأوها. لم يكن من السهل دائماً اختيار شيء مما يمكن أن يعجبهم أو يتكهن بردود فعلهم. وكان من المدهش حقاً رؤيتهم وهم يلفظون قطعاً من الثلج من أفواههم كانوا أعطوهم إياه قائلين إن الثلج قد حرق أفواههم. ويبدو أن تمارين الأسلحة الرشاشة والطائرات والسيارات والكهرباء لم تحرك لهم ساكناً، ولكنهم دهشوا بعمق للحدائق وحجم البنايات وعظمة المدينة. لأولئك الذين عاشوا في الصحراء حيث الماء شديد الندرة وغالباً ما كان يجلب من مسافات بعيدة، فإن فتح صنبور الماء الذي يأتي بالماء كما يبدو من مكان غير معلوم هو بالطبع مصدر تعجب. ومرة عندما أخذ بعض الشيوخ في تجوال في القصر و جاء أحدهم متأخراً تم استدراجه من قبل بعض رفقائه إلى داخل حمام، وقام أحد رفاقه بفتح الدش مما أدخل البهجة إلى نفوس الجميع فيما عدا الضحية. كثير من الناس الذين أحضرتهم من الجنوب إلى الخرطوم تركوا مستنقعاتهم في حالة ذعر شديد، جزئياً لخوفهم بأن زيارة الخرطوم سوف تعني سجنهم هناك لبقية حياتهم، وكثيراً ما حدث ذلك في الماضي، أو جزئياً لأن رحلة بالباخرة تبدو مغامرة خطرة. وحقيقة عندما تم إقناع ملك (رث) الشلك للسفر معي إلى

الشمال. غادر الملك كدوك (كانت تُسمى فشودة) وسط دموع مئات النساء اللاتي زاد نواحهن إلى هدير منفجع عندما حبا الملك على أربع لصعوده بسلم الباخرة إلى الطابق الأول، حيث لم يكن متعوداً على السلالم، ثم رفع نفسه إلى الطابق الرئيسي بدفع ظهره إلى أعلى.

أعاد كتشنر بناء الخرطوم كمدينة أوربية. لقد قصد إنشاء عاصمة محترمة للحكومة مع منطقة سكنية للأوربيين ومركز تجاري لتزويدهم باحتياجاتهم. وأما السودانيون فظلوا يسكنون في أم درمان، حيث إنهم حتى ذلك الوقت لم يكونوا جاهزين للعمل وفق اللوائح الصحيحة للمدينة الأوربية، كما إنهم لا يستطيعون دفع الرسوم العالية اللازمة لصيانتها. وإن إعادة بناء شوارع أم درمان المعقّدة لم يتم لمدة عشر سنوات بعد الفتح.

وحتى في الخرطوم كانت الأحوال بدائية إلى حد ما في سنة ١٩٠٧. لم يكم هنالك إمداد صحيح بالماء. وكان من اللازم إحضار الماء يومياً من النيل للشراب والغسيل على ظهور الحمير التي تحمل قرباً من الجلد أو المشمع. ولم تكن هنالك أي كهرباء إلا في القصر. وأما الموظفون هنا كما في أي مكان بالبلاد فكانوا يستخدمون الشموع. وللعديد من السنوات فإن الطرق المسفلتة الوحيدة كانت عبارة عن رصفة أسفلتية لمسافة مائة ياردة أمام القصر. أواسط بعض الطرق أزيل منها الرمل وبدأ رصفها تدريجياً بالأسفلت، ولكن جوانب الطرق بها رمل كثيف ومجارٍ مكشوفة لمياه الأمطار تحفر سنوياً قبل هطول الأمطار في يوليو.

تبنى كتشنر مشروع شبكة شيكاغو لشوارع الخرطوم بطرق مائلة لتقصير المسافة بين جزء وآخر من المدينة، وكان أثر ذلك أن الخرطوم خططت في صورة سلسلة من الأشكال للعلم البريطاني مما أوجد مؤخراً الأسطورة الجميلة، ولكنها خاطئة، بأن أشكال العلم البريطاني التي شكلتها شوارع

الخرطوم بتقاطعها لبعضها تتفرع من نقطة مركزية خططها كتشنر عن قصد كرمز للوطنية البريطانية، وألمح آخرون إلى سبب ضعيف كسابقه بأنه لاختياره هذا التصميم كانت لديه فكرة احتمال استخدام النقاط المركزية في شكل العلم البريطاني كنقاط لنصب الرشاشات لتغطية الشوارع المجاورة. وبما أن كتشنر هزم جيش الدراويش قبل أشهر قليلة، فإنه من المستبعد أن يفكر في الاستعداد لجيش الخليفة المهزوم في أن ينهض لمهاجمة الخرطوم. لا يوجد سبب آخر غير افتراض أنه ليس لكتشنر أي هدف آخر خلاف إيجاد مواصلات سهلة وسريعة. وفي ذلك نجح حقيقة. كان تخطيطه فعالاً للغاية وحتى الآن وبعد خمسين عاماً جرت تغييرات قليلة على الخطة الأصلية فيما عدا تضييق بعض الشوارع العريضة وإغلاق بعض الشوارع القصيرة التي كانت نادراً ما تستعمل. مصارف المياه ما زالت تحفر على جانبي الشوارع في شهر يوليو وتحذير السكان بأن موسم الأمطار اقترب.

تمتد الشوارع في خطوط مستقيمة من طرف المدينة إلى الطرف الآخر وعريضة بصورة تكفي بمرور كمية كافية من الهواء النقي خلالها، وزرعت بجانبيها أشجار ظليلة، وتم إبقاؤها حية بصعوبة في تلك الأيام. بعضها كان يسقى من قِرب من الجلد أو المشمع تحمل على الحمير التي يضربها أصحابها دون رحمة ما لم يكن هنالك بريطاني بالقرب ليمنعهم. والبعض تسقى من النسوة الأرقاء المحررات اللائي يفرغن الماء من جرار يحملنها على رؤوسهن في حفر الأشجار. كانت العملية بطيئة ومرهقة، حيث إن كل الماء كان يجلب من النهر. وعلى أية حال فإن في ذلك ميزة إيجاد عمل للكثير من الأرقاء السابقين، وأما بخلاف ذلك فربما لجأوا إلى وسائل غير مرغوبة لكسب عيشهم. وحمل الماء كان دائماً جزءاً من عملهم اليومي، ولذلك لجأوا إليه بسهولة كوسيلة لكسب العيش. وحتى البنات الصغيرات تعودن منذ سن

باكرة على حمل البرام الصغيرة على رؤوسهن وهن يوازنَّ هذه البرام بعناية فائقة على حلقات من الحشائش. وهذه الطريقة الجميلة في الحمل هي التي ميزت نساء السودان طيلة حياتهن.

الخرطوم مدينة حضرية

عدد قليل من الموظفين البريطانيين كان مسئولاً عن الإدارة العامة للبلاد. أما المدرسون المصريون فقد لعبوا دوراً مهماً في إدارة التعليم كما أدوا دوراً مهماً في كثير من الإدارات الأخرى ككتبة وموظفي تلغراف وملاحظي أشغال. وفي مكاتب الحكومة كثيراً ما كان السوريون والأقباط ما يعملون كتبة للملفات السرية وصرافين ومحاسبين، وأما الوظائف الصغيرة فكان يشغلها أناس من جنسيات عديدة في الشرق الأوسط وأما أبناء الأتراك والألبان والأرمن والشركس الذين جاءوا إلى السودان للبحث عن حظهم في عهد «التركية»، فقد تم توظيفهم في الإدارات الحكومية أو إنهم كسبوا عيشهم من التجارة. أما القساوسة الطليان فقد لبوا الاحتياجات الروحية لمواطنيهم وغيرهم من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وهنالك الإغريق الموجودون في كل مكان (معظمهم من الجزر اليونانية)، وهم يملكون معظم المتاجر الرئيسية في الخرطوم وخارجها.

عند الوصول إلى الخرطوم قضينا – نحن الثمانية الذين تم توظيفنا للخدمة المدنية بالسودان – ثلاثة أشهر في العاصمة لأجل الإلمام ببعض المعرفة لآلية الجهاز الحكومي وطرق الإدارة. وتمت زيارات لمزارع تجريبية ولمحاكم مدنية وجنائية، حيث تم تدريسنا الإجراءات الجنائية، وتعلمنا كيف يجري عمل هذه المحاكم. وأما أمسياتنا فعادة ما تمضي في الحصول على معرفة اللغة العربية الدارجة ودراسة القانون الذي ينبغي أن نجتاز امتحاناً فيه لاحقاً.

لكن العمل لم يستغرق كل وقتنا فهنالك فرص كثيرة للاسترخاء، هناك الجولف في مضمار رملي من ٩ حفر ولعبة البولو وكذلك التنس والبردج في نادي السودان(SUDAN CLUB). . وأحياناً توجد سباقات خيل تصحبها فرقة موسيقى الحدود التي منحتنا الكثير من الترفيه. وكان بين الجوكية القليلون الماهرون في ركوب الخيل كابتن كيلي (KELLY) المعروف لدى رواد مضمار السباقات وغيرهم باسم(كافالري كيلي) (CAVALRY KELLY) بعد إحدى السباقات التي فاز فيها بسهولة أخذ حصانه اللجام بين أسنانه وقفز هارباً إلى الصحراء. وبمصادفة غريبة فإن الفرقة الموسيقية السودانية التي لا تعرف الألحان التي تعزفها إلا بالأرقام وليس بالاسم، بدأت تلك الفرقة عندما هرب الحصان إلى مسافة بعزف أغنية مشهورة في تلك الأيام تقول «هل من أحد هنا رأى كيلي؟».

أحياناً تقام حفلات راقصة في الفندق الكبير (GRAND HOTEL) يذهب إليها الجميع بملابس السهرة كاملة وعلى ظهور الحمير. والضباط البريطانيون يلبسون بصورة رائعة. ومعظم الرجال يضطرون إلى الرقص مع بعضهم، حيث كان عدد النساء قليلاً في سنة ١٩٠٧ وذلك حتى حين يزداد عددهن ببعض السياح النادرين والمرحب بهم غاية الترحيب!

وفي المناسبات الرسمية يبدو الضباط في ملابس الاستقبالات الصباحية في غاية الأناقة. وبالمقابل فإن الملابس الخاصة بالموظفين المدنيين غير جاذبة ،وبالإضافة إلى ذلك فإنها غير مناسبة للطقس. كنا نلبس بدلة فراك (FRECH COAT) بتفصيل غريب وتسمى استامبولي، وربما كان ذلك بسبب تفصيلها في الأصل من قبل خياط من استانبول، ومعها بنطلون يكون في غاية السواد، وطربوش كغطاء رسمي للرأس، وأحذية بعنق طويل جانباه من البلاستيك. فالتأثير لهذه اللبسة الكاملة تجعلنا نبدو كمجموعة من الكتبة

الشرق أوسطيين ذوي الثياب الرثة.

كانت هنالك واحدة من أكثر الرياضات المحبوبة وهي صيد طيور القطا. يوم الجمعة هو يوم الراحة في السودان. وفي ذلك اليوم غالباً ما تنظم رحلات صيد القطا. تبدأ في الخروج قبل الإفطار إلى مكان تجمع القطا للشرب في حافة النيل، ويطير القطا من مسافة خمسين ميلاً أو أكثر ليصل إلى مواقع الشرب على حافة النيل في حوالي الثامنة صباحاً. وأحياناً يؤخر وصولها لبضعة دقائق أو يقلل عدد الطيور الواصلة برودة الجو أو الجو العاصف، وبخلاف ذلك فإن ميعاد وصولها منتظم. وبمجرد معرفة هذه الحقائق فمن السهل تنظيم رحلة الصيد. بينما نحن نربض خلف أي ساتر نجده ونحن ننتظر مجموعة الاستطلاع التي تطير فوقنا كجزء من القطيع الرئيسي لتتأكد من أن المكان آمن. هذه المجموعة ندعها تمر وبعد دقائق تجئ الآلاف من هذه الطيور الصغيرة التي يقل حجمها عن حجم الحمام. تحلق مؤقتاً قبل أن تخر نازلة مع اصطفاق الأجنحة وتغريد عدد غير محدود من الحناجر تملأ السماء بالموسيقى. تأخذ الطيور رشفة سريعة من الماء قبل أن تنطلق في رحلة الخمسين ميلاً عائدة إلى الصحراء حيث تسكن. خادمونا جاءوا معنا لالتقاط الطيور الميتة يرددون أهزوجة لكي تقع تلك الطيور المصابة على الأرض:

قطا.. قطا،، قطا
أضرب
واطا.. واطا.. واطا

الصيد ممنوع في موسم التزاوج. وأود أن أعتقد في صحة القصة المحلية بأن الطيور تحمل على ظهورها قطرات من الماء لتفرح بها صغارها على بعد خمسين ميلاً أو ما شابه ذلك. ربما يكون ذلك صحيحاً لأن السيد وليام بيتش توماس في كتابه

(The Yeoman`s England) يشير إلى أن «هنالك عدد من الأمثلة المسجلة للقطاة الحاضنة للبيض تسافر لمسافات طويلة لتغمر ريش صدرها بالماء وتعود بذلك إلى السبخة العطشى في الصحراء الجافة حيث يولد القطاء وإنه لا شك أن الصغار يعانون من الجفاف وهذا ما يعوضه في هذه البلاد الندي والعشب الأخضر.

القطا طيور جميلة بين الصفرة والسمرة مع نقط سوداء وجسم صغير سمين، وهي لذيذة الأكل إذا استطاع الطباخون معالجة جلدها الخشن، ولكن للأسف قليلون من يستطيعون ذلك».

عندما انتهت مدة الشهور الثلاثة لتدريبنا، ذهب زملائي السبعة إلى مديرياتهم وبقيت أنا خلفهم في الخرطوم للقيام بالأعمال الصغيرة لرؤسائي.

على أي حال، برهنت الخرطوم بأنها مكان طيب لقضاء سنة، وقد مضى الوقت في غاية المتعة. لم تكن واجباتي مرهقة ولا ذات مسئولية إلا لفترة قصيرة لأربعة أيام في الصيف حين يكون كل شخص في السلطة ذهب في إجازة وتركت مسئولاً عن خمس إدارات مختلفة. ولحسن الحظ لم تظهر مصاعب، وليس لدي إلا عمل قليل مثل توقيع كشوفات المرتبات وتصاريح الإجازات. مجرد حقيقة أنه من الممكن ترك مسئول صغير وقليل التجربة في وظيفة بتلك السلطة يوضح بصورة أكثر من الكلمات كيف أن الأزمنة قد تغيرت.

سنتي التي قضيتها في الخرطوم أعطتني فرصة لأرى كيف ينبغي أن يدار المكتب ومعرفة أوضاع السودان وذلك من خلال الإطلاع على دفاتر اليوميات التي ترسل شهرياً من جميع المديريات.

وهذه تهتم أساساً بمشاكل الإدارة وتحتوي على ملخصات قصيرة عن الحقائق

لتجعل الإدارة مطلعة على ما كان يحدث في المحطات الإقليمية. وهنالك قراءات يومية لمستوى النيل وسجلات لكميات الأمطار وأوقات سقوطها وملاحظات على الجريمة أو نتائج التجارب الزراعية - وكل شيء يضيف إلى معرفة البلاد وأهلها، لكن المعلومات الموجودة في اليوميات لم تشتمل فقط على تفاصيل الملخصات الروتينية أو الإحصائية. فالحيوانات البرية وطرقها كانت بارزة في بعضها.

يبدو أن أحد التقارير جمع حوادث الإثارة لمدى حياة كاملة في فترة شهر قصير واحد، فيه قصص عن رجال قتلتهم أسود، ونساء عجائز هاجمتهن ضباع وسحبتهن من أكواخهن، وأن خنازير برية أحدثت دماراً في مزارع الكسافا، وكذلك بعض القصص الساذجة التي تلقي، مصادفة، بكثير من الضوء على الحياة في جنوب السودان.

«رجل من قبيلة الجور وجد رجلاً من قبيلة الدينكا قرب رمبيك في أعلى شجرة يلتقط الفاكهة. الناس هنا كانوا يشعلون حرباً شعواء ضد قردة البابون التي كانت تخرب مزارعهم ومحاصيلهم. حيًّا الجوراوي الدينكاوي ولما لم يجد استجابة أعتقد أن ما رآه بابوناً فرماه بحربته فقتله».

«رجل شرطة في نابيري على طريق طمبره - واو، وصلته رسالة تقول إنه محاط بالأفيال - وهذه توجد بالمئات في فترات محددة من السنة - ويؤمل أن تظل حيث هي ولا تصل إلى أكواخ الأهالي ومحاصيلهم». (اعتقدت أن هذه صعبة إلى حد ما على رجل الشرطة).

قرأت كذلك أنه عندما كان ميجور سبنسر مفتشاً في واو ظهر رجل في يوم ما بجلد أسد للبيع. سبنسر لم يكن يحتاج إلى الجلد، ولكن دون أن يدع الرجل خالي الوفاض عرض عليه أن يشتري الجلد بخمسين قرشاً، لكن

الرجل اعترض، بالرغم من أن ذلك كان أفضل عرض تلقاه، وقال إن ذلك الأسد قتل زوجته ولذلك أعتقد أن جلده يستحق على الأقل مائة قرش».

قضيت كثيراً من الساعات المبهجة في متابعة هذه التقارير الممتعة لأقرأ واحداً لسنة ١٩٠٣: «الولد الذي اعتاد أن يجلس في ثقب معدية المديرية لمنع تجمع الماء في المعدية أضرب عن العمل و لم يوجد بديل له وكان لابد من إصلاح المعدية».

التاريخ يعيد نفسه بطريقة غريبة بعد واحد وعشرين سنة، في نفس مديرية بربر، حدث في مناسبة أن استعملت إحدى هذه المعديات. كالعادة كانت المعدية مزدحمة بصورة كبيرة وذلك بزيادة حوالي ٦٠٪ من الركاب المرخص بحملهم. موجة بعد موجة من الركاب اندفعوا داخل المعدية على صبي صغير يجلس القرفصاء في أسفل المعدية. حلفُ اليمين والرفس بالأرجل من قبل الركاب لم يجعل الصبي يحرك ساكناً. أنا أشرت على الريس ليضع الصبي في مكان آخر لمنع إيذائه. أجاب «حسن جداً جنابك. لكن من العدل أن أحذرك بأنه إذا وقف الصبي فإن المركب سوف يغرق».

هذا الصبي يجلفط (يسد شقوق المركب) مثلما كان يفعل أسلافه. ربما والده شخصياً قبل واحد وعشرين عاماً. يا ترى هل كان الثقب في المركب نوعاً من الميراث من نصيب الأبن الأكبر؟.

التلغرافات أحياناً مصدر تسلية. واحد منها اكتسب مؤخراً انتشاراً واسعاً في السودان وهو كالتالي:

«رقم ١٠٣ - مكتب البريد محاط بالأسود والفهود والأفيال والنمور نرجو إرسال نجدة».

بعد ساعة أو ساعتين، وبعد التفكير فيما تم إرساله من معلومات، أدرك موظف التلغراف بأنه لا توجد نمور في السودان أرسل تلغرافاً آخر:

« ١٠٤ - تلغرافي ١٠٣ أحذف كلمة نمور».

ثم هناك التلغراف الشهير المتعلق بالطموحات الآثارية للسيد ولكام (WELLCOME)رئيس مؤسسة السادة (BURROUGHS & WELLCOME) الذي كان محسناً كريماً بالنسبة للسودان. كان حريصاً على كشف البقايا الإنسانية لما قبل التاريخ في منطقة جبل مويا بمديرية سنار. ولكن كانت هنالك شكوك فيما إذا كانت العمالة متوفرة للقيام بالحفريات أو أن السكان قد يعترضون. ولكن مخاوفه تضاءلت عندما أرسل تلغرافاً إلى الخرطوم جاء فيه:

« أنه ربما يحفر ومرحبا»

(THAT HE MAY BURROW AND WELCOME) .

كثير من هذه التقارير تحدثت عن أيام مضت منذ زمن بعيد، ولكن من الصعب حتى الآن التذكر دون قشعريرة قصة بعض الضباط البلجيك يتحسسون طريقهم في نهر الكنغو، ولكن مركبهم وحل وكان عليهم أن يسبحوا إلى الشاطئ في منطقة تعج بالتماسيح. ثلاثة منهم نجحوا في الوصول إلى الشاطئ ليطاردهم آكلو لحوم البشر. اثنان من الضباط تم القبض عليهما، وأما الثالث فقد استطاع أن يتسلق شجرة ويختبئ فيها ويمر بتجربة قاسية، حيث كان يشاهد زملاءه يطبخون ويؤكلون تحته.

قبل عيد الميلاد بقليل قال رئيسي الكولونيل فيس، بكل عطف، إنه لتعويضي عن قضاء سنة في المكتب، أنني أستطيع أن اختار المديرية التي أنقل إليها. اخترت واحدة أبعد ما تكون جنوباً يسمح بنقل المدنيين إليها في ذلك الوقت، وفي بداية السنة الجديدة ذهبت إلى مديرية الفونج حيث تمنيت أن أجد الحيوانات الكبيرة لاصطيادها.

الباب الثالث

سنـــــــــــار

الباب الثالث
سِنّار

في وقت متأخر من ليلة الخامس من يناير ١٩٠٩ بعد أن شقت باخرة حكومة السودان طريقها ببطء على مياه النيل الأبيض العريض أنزلتني على طرف مستنقع، وسط مواساة من بعض السياح الذين كانوا ضمن الركاب ومزاح من بعض الضباط الذين برغم الظلام استطاعوا أن يروا أن هذا المكان لم يكن منتجعاً صحياً.

حلّة عباس التي توقفت عندها الباخرة كانت قرية صغيرة من الأكواخ ذات الشكل المخروطي مصنوعة من القصب والحشائش، تسكنها مستعمرة من الجنود السودانيين الذين انتهت مدة خدمتهم أصبحت مهمتهم الأساسية هي قطع حطب الوقود للبواخر، وأصبح شغلهم الشاغل خلال ذلك شرب أكبر كمية من المريسة (البيرة المحلية) التي يفضلون أن تستطيع نساؤهم عملها دون كثير من المشقة. القليلون منهم ممن كانوا أقل سكراً، بحيث يستطيعون صعود الباخرة، حملوا عفشي إلى نقطة تبدو أقل ابتلالاً من غيرها. ووجدت نفسي وحيداً وبعيداً عن الخرطوم بحوالى ٢٠٠ ميل، وتساءلت إلى أي حد سوف تسعفني العربية الفصحى التي تعلمتها في أوكسفورد دون مترجم كريم يساعدني. عندما اختفت الأضواء المتلألئة للباخرة وهي متجهة جنوباً فقد انقطعت آخر صلة لي بالمدينة.

إن الرحلة التي كان عليَّ أن أكررها مرات عديدة في السنوات التالية كانت مليئة بما يثير الانتباه. فالبواخر النيلية تتحرك ببطء مما يتيح لنا كثيراً من الوقت لمشاهدة تشكيلة رائعة من حياة الطيور أو إطلاق النار على التماسيح الكريهة التي ترقد معرضة أجسامها للشمس على الشواطئ الرملية غير منزعجة

بالمرة لمرورنا. بواخر بريد حكومة السودان لها في المؤخرة دواليب للحركة وهي تتحرك محاطة بصنادل كأنها دجاجة وحولها الكتاكيت. أحد الصنادل يكون في المقدمة مدفوعاً بالباخرة الأم. ويوجد آخر على الأقل مربوط إلى ميسرة وميمنة الباخرة. هذه الصنادل لها غرض مزدوج. الباخرة بأرضيتها المسطحة وعرضها الضيق تحمل القليل، فقط ركاب الدرجة الأولى والخشب الذي يشكل وقودها. أما الصنادل فبخلاف الحمولة التجارية، فإنها تمنع الباخرة من الغرق إذا ضربتها عاصفة مفاجئة، حيث إنه غرق بعضها بالفعل حينما ينفك صندل من الباخرة. القوات السودانية مصحوبة بعدد لا يحصى من الزوجات والأقارب في الطريق للحلول محل حامية التوفيقية، قد احتلت معظم أماكن إيواء ركاب الدرجة الثالثة. قليل من التجار الإغريق أحاطوا جزءاً صغيراً بالستائر ليجدوا بعض الخصوصية، ولكن أي شخص آخر عاش مكشوفاً لجيرانه ليلاً ونهاراً. الأطفال السود الصغار يزحفون فوق المسافرين وعفشهم، وهو مصدر تسلية لآبائهم ومضايقة قبيحة لأولئك الذين يزعجون منامهم. النساء السودانيات عاريات من وسطهن فما فوق. وهن يطحن الذرة على المرحاكة لعمل الكسرة. والمرحاكة حجر يتآكل منتصفه بسبب الطحن اليومي. إن صوت طحنهن كان دائماً معنا، ومنظر آنية الطبخ على لوح حديدي والرائحة الحادة للبصل وهو يتحمر في الشحم ليعطي نكهة لوجبة العشاء. وعندما يأتي الليل وتنتهي وجبة العشاء يتكوم الرجال والنساء والأطفال فوق السطح ويتغطون ببطاطينهم ذات اللون البني الغامق. ينامون مثل الشرانق إلى أن توقظهم الشمس على يوم آخر. يتجمعون هكذا معاً ربما كانوا أكثر دفئاً من كثير من ركاب الدرجة الأولى، مع مراتبهم ومخداتهم وملاياتهم وبطاطينهم، الذين ناموا في قفص واحد خوفاً من البعوض، وذلك في السطح الأعلى من الباخرة وهم بهذا أهداف لجميع الرياح التي تهب.

أبحرنا بصعوبة بسرعة لا تزيد عن أربعة أو خمسة عقد بحرية، بحيث يبدو أن المناظر الطبيعية لا تتغير. ويبدو الشاطئ المنحدر الذي ننظر إليه لا يتغير وهو الذي رأيناه قبل عشر أو عشرين أو ثلاثين ساعة من قبل. ولذلك قليلاً ما تختلف قرية عن أخرى. وأحياناً عندما نمر بمجموعة من الأكواخ نحو الغروب نرتاب إن كنا تقدمنا أو هي القرية التي رأيناها من صالون الطعام في ذلك الصباح في وقت الإفطار. الأبقار والضان والأغنام تصارع نزولاً من منحدرات الشواطئ للوصول إلى أماكن الشرب، وكلاب هزيلة تنبح محتجة على مرورنا، ونساء يحملن على رؤوسهن جراراً كبيرة بتوازن ويقتربن من حافة النهر في وقار ورشاقة، أشكال في إفريز معماري قديم. يبدو أن ألا شئ يتغير. فقط منظر جبيل مرتفع أو عدد الأشجار الذي يزداد تدريجياً يشير إلى أننا تحركنا إلى الأمام منذ الفجر، بينما نحن نبحر ببطء نحو الجنوب، فالانقطاع الوحيد لهذا الروتين الهادئ هو صوت صافرة الباخرة التي تصم الآذان معلنة بعض المراكز الحكومية الصغيرة بأننا قادمون لإنزال بريدهم وأخذ بعض الخضروات الطازجة وبعض الدجاج المحلي الهزيل وبيضه الذي لا يزيد عن حجم بيض الحمام.

الباخرة تسير بالحطب كوقود وتستعمل الصافرة أيضاً لتنبيه قاطعي الحطب بأننا قادمون إلى محطتهم لأخذ إمداد جديد من الوقود. وبمجرد إنزال السلالم تفتح معها أبواب جهنم! ومع الصيحات والضحكات واللعنات يلقي الحطابون كتل الخشب على ظهر الباخرة أو يدفعونها إلى داخل المخازن. وعندما نحتاج إلى أخذ حطب في الليل وينقطع نومنا، فإنه يبدو أن الضجة مضخمة في أوقات النهار خاصة إذا كان لابد من توقفنا أثناء قطع مزيد من الشجر لنستطيع الوصول إلى المحطة التالية. وفي ذلك الأثناء نتمشى ومعنا بندقية رصاص أو خرطوش أو نجمع الفراش، أو أي أزهار أو نباتات غير

عادية نجدها. وتمضي الساعات بطيئة، وعندما يأتي وقت النزول يبدو أنه لا يمكن أن أصدق أنني غادرت الخرطوم قبل أربعة أيام فقط.

وبمجرد أن تختفي أضواء الباخرة تدريجياً تظهر على البعد عشرات الآلاف من الحشرات الضارة مما يدفعني إلى الاحتماء بسريري المحاط بالناموسية. لكن النوم مستحيل. أصوات غريبة تشق هدوء الليلة الحبيسة الهواء. ولكن الهواء يهتز بضربات أجنحة البط والأوز ويصفر البط البري وهو طائر، والصرخات المفزعة لطيور غير معروفة وحيوانات غير معروفة أثار خيالنا. والضباع تعوي في مكان غير بعيد، وفرس النهر يصوت بقرب سريري. ومن مرة إلى أخرى أسمع شيئاً يسقط في الماء كصوت وقوع تمساح في الماء. ويبدو أن الليلة لم تكن هادئة فضلاً عن ذلك. واليراع المضئ يرقص ويرفرف في الظلام. وعلى مسافة مني يتسامر خدمي مع الشرطة حول نار يناقشون مسافة الرحلة الباقية

. كثيرا ما نظرت إلى الماضي بحنين إلى الليلة الأولى التي قضيتها وحيداً في إفريقيا – السودان كان وطني لمدة أربع وعشرين سنة – بعد أن تقاعدت عن العمل وكنت واحداً من حوالي مليون نملة تسرع إلى مدينة مزحومة مليئة بالدخان لقضاء اليوم في مكتب. إنني أدرك أكثر فأكثر إلى أي مدى كنت محظوظاً أنني قضيت معظم حياتي في أجزاء من السودان لم تكن معروفة.

أول أشعة صباح بارد أنهضت الشرطة والخدم دون رغبتهم من فرشهم على الأرض، وهبت ريح شمالية شديدة البرودة، وأحاط بنا ضباب رطب من النهر/ وتم تحميل الطرود بصعوبة على الجمال والتي أظهرت عدم رضاها بقذف تلك الطرود في الحال على الأرض. وبسبب البرد فقدت أصابعنا الشعور وكان من الصعب علينا عقد الحبال حول العفش. لذلك فاتت الساعة المضروبة لتحرك القافلة قبل وقت طويل. وقد أعطانا هذا التأخير القسري فرصة لصيد بعض البط والأوز للطعام في رحلتنا مما جعلنا نستغل بصورة

رابحة كل شيء سوف تدعو الحاجة إليه لفترة سنتين من الإقامة في منطقة لا شيء فيها يمكن شراؤه، ولكن قليلاً من الذرة واللحم واللبن فلابد من استجلابها بالجمال. كذلك الفرش وأدوات الطبخ وسروج الخيل والكراسي والمناضد والطعام المعلب والمشروبات والبنادق والكتب والملابس وكل شيء يمكن أن يجعل الحياة المعزولة محتملة. كل هذه الأشياء لا بد من التفكير فيها قبل التحرك إلى مثل هذه الأماكن، حيث إن ما ينكسر بالطبع ليس له بديل.

هذه رحلتي الأولى وأنا وحيد في السودان وكان لذلك سحر سوف أتذكره دائماً. إنه مما لا يمكن نسيانه الشعور بالبهجة عندما يعرف الشخص أنه لا يمكن أن تصله مساعدة خارجية لتخلصه من أي صعاب. فكل مسافر هو سيد قدره. وحتى الرتابة في السير ببطء في أرض نادراً ما تتغير مناظرها لها سحرها الخاص، فالوحدة الموحشة قد تخلق اعتماداً على النفس محصنا.

لقد اتخذنا طريقنا في وادٍ واسع مسطح معطر برائحة نبات النال الذي يبني منه الناس أكواخهم. ومن وقت لآخر يفر غزال أو أرنب مسرعاً عند اقترابنا منه. وأما النعام فيرجع رؤوسه الصغيرة إلى الوراء فوق الحشائش وتجري تحتها الأرانب البرية ويحلق فوقها طائر السمان قبل أن يتعثر بعد طيران قصير ويقع في ملجأ يختاره. أما ناحية الشمال والشرق فهناك بحر من الحشائش تمتد إلى الأفق ولا يقطع ذلك إلا شجرة صمغ أو شجيرات عشر. إن المساحات الواسعة من هذه الأراضي التي لم يمسسها إنسان يوحي بالتقديس لذلك الإتساع الأكبر للكون والذي يشكل منه جزءاً لا يعتد به.

بينما سرنا بسرعة ميلين ونصف في الساعة، وهذا كل ما استطاعت جمال العفش قطعه سرعان ما أنعشنا دفء شمس الصباح الباكر. ارتفعت أرواحنا المعنوية بعد متاعب البرودة الشديدة عند بداية رحلتنا، وبدأ قائد القافلة في الغناء.

كانت مسيرتنا الأولى قصيرة – كما هو معتاد في السفريات – وذلك لجعل أحمال الجمال تترتب ولجعل الطعام الزائد الذي يحشو به الخدم بطونهم دائماً قبل السفر يستقر في أمعائهم.

وقفتنا في منتصف النهار غير سارة لأنه لا يمكننا أن نجد ملجأ من الشمس في المناطق التي ليس فيها شجر. وبعد ساعتين استأنفنا مسيرتنا مرة أخرى وتوقفنا للمبيت في مكان مثل الذي قضينا فيه منتصف النهار. هنا أقمنا مخيمنا وكان من الممتع الاستماع إلى حفيف الريح وهي تسري خلال الأعشاب الطويلة ولاستنشاق دخان النار التي نحضّر عليها وجبة طعام رائعة، شوربة طماطم وبط نهري مشوي وحلوى كريم كراميل (البديل العظيم لجميع الطباخين البرابرة) وكبد البط البري على الخبز المحمص. فكلما كانت البيئة مواتية كلما كان الطباخ السوداني قادراً على إبداع أفضل وجبة.

في الصباح التالي أوصلنا مشي بضع ساعات إلى جبل سقدي وهو جبل جميل من الجرانيت يشكل معلماً أرضياً للكثير من الأميال. توقفنا قرب بركة حيث اتسخ الماء بكثير من قرود البابون. ولما كان هو الماء الوحيد الموجود كان علينا أن نحد من قرفنا ونغلي الماء المقرف ونملأ قربنا. قضيت بضع ساعات ممتعة في تسلق الجبل متابعاً آثار النمور الرقطاء ومشاهداً الحركات البهلوانية العديدة للأرانب الجبلية والأرانب الرومية الجاذبة التي ليست لها أذناب حينما تقفز حول الصخور الكبيرة. لكن لم نستطع أن نبقي طويلاً. لم يكن لي وقت إلا استراق لمحة إلى عمودين من الحجارة محاطان بحجارة صغيرة. وقد قال عنهما الأهالي إنها تمثل رجلاً وزوجته مسخا إلى حجارة مع بهائمهما. كنت أتمنى إذا كانت للأهالي توضيحات مهما كانت غير محتملة مثل أين ولماذا حدث ذلك؟.

توقفنا التالي كان في جبل موية ويبعد حوالى خمسة عشر ميلاً، حيث توجد

قرية ذات حجم لا بأس به. هنا الناس يرتابون في الأغراب في تلك الأيام. فهم لا يدلوننا إلى مكان الماء العذب، وقد قال الشرطي إن الماء يوجد في مكان ما في الجبال، ومرة أخرى كان علينا أن نعتمد على الماء من بركة قذرة أخرى.

في الصباح الباكر التالي غادرنا هذه القرية غير الكريمة ومشينا خلال أشجار كتر (Acacia Mellifera) كثيفة يبلغ ارتفاعها بين عشرة إلى خمسة عشر قدماً على طريق مستقيم قادنا إلى سنار. وقد كانت رحلة متعبة وكان من الصعب النظر من فوق الأشجار، و لم يكن هنالك شيء في مدى النظر، ولكن ميلاً بعد ميل من نفس الورطة غير السارة والطريق يمتد أمامنا بغير حدود إلى أن وصلنا إلى سنار.

كان انطباعي الأولي عن سنار التي وصلناها في صباح اليوم التالي أنها مكان قذر. ركبنا خلال شوارع ضيقة تحفها سياجات غير منظمة من الشوك أو أعواد الذرة وهي تحيط بمجموعات من الأكواخ البائسة. عندما نظرت إلى الفوضى العامة حولي قلت في نفسي «يبدو أن أهل سنار طيبون». فهذا المكان الصغير عليه هيئة خراب ووحشة. من الصعب إدراك أنه كان في يوم من الأيام مزدهراً. فخلال سلالة الفونج التي استمرت لثلاثمائة سنة من بداية القرن السادس عشر. فقد كانت عاصمة مملكة ضمت معظم السودان، وكانت مكان سكن سلسلة طويلة من الملوك. إن الأزقة القذرة وغير المعتنى بها ليس بها ما يذكرني بماض عندما كانت تعج بالحركة والألوان قبل مائة سنة، كانت تحف بالشوارع منازل من طابقين وتزدحم بالعبيد والخدم يسرعون في مهمات لأسيادهم الأغنياء. هنا حيث القليل من الحمير محملة بحطب الوقود وهي تدب في أزقة ترابية أو صفاً من الجمال تمشي ببطء خلال الشوارع الرديئة وهي تحمل الحبوب إلى السوق الصغيرة، وتجمع كبير من المواطنين تجمعوا لتحية ملكهم، ومئات من المحاربين وهم يلبسون الدروع والخوذات

النحاسية ويركبون خيلاً مزركشة السروج. هذا هو الحرس الملكي. ويتبع هؤلاء بأعداد كبيرة من العبيد والمحظيات على أرجلهم، والرجال منحنون تحت وطأة أحمالهم، والفتيات الشابات يحملن أقفاصاً كبيرة من الفاكهة أو لحماً مذبوحاً بتوازن على رؤوسهن. وكثيراً ما يتم الترفيه عن أهل سنار بمهرجانات من هذه المواكب الملوكية، لأن ملوك الفونج كثيراً ما يقومون برحلة الأميال الأربعة إلى قصرهم الريفي في «عيره» للهرب من الحر والذباب في العاصمة.

حقيقة إن هذا المجد قد رحل عن سنار. والآن في عام ١٩٠٩ فإن مكان السوق يفخر بحوالي ثلاثين دكاناً بائساً تفتح في ساحة مركزية وفيها قليل من البضائع البسيطة للبيع: جرار من الخزف، سياط يسمى الواحد منها «كرباج» تصنع من جلود فرس النهر، والحبوب والخضروات. كذلك يوجد دكان يديره إغريقي يحتوي على بضائع قطنية من مصانع مانشستر ومصنوعات رديئة من بيرمنجهام. وبما أن الناس لا يملكون أموالاً كبيرة، فكل ما هو متقن أو متقدم كان غير ضروري. لم أستطع أن أبعد عن تفكيري أنه إذا استطاع إغريقي أن يأتي إلى سنار لتحسين أوضاعه، فإنه لا بد أن تكون اليونان بلداً فقيراً للغاية. ولم يقدم بقية المكان كثيراً من الأسباب للتحمس له. حتى السجن تكون من بضعة أكواخ من القصب محاطة بسياج من الشوك وأعواد الذرة التي يمكن لأي إنسان أن يدفع طريقه خلالها دون أية مشكلة. والواقع أنه بعد فترة قصيرة من وصولي، قام سجين في الحراسة لجريمة صغيرة، بمحاولة للهروب، ولكن أوقعه حارس فقام بقتل الحارس مما أوجب محاكمته بجريمة قتل بدلاً من جنحة بسيطة لا يزيد عقابها عن غرامة أو فترة قصيرة من السجن. وهناك مكتب من الطوب الأحمر. وبعض الكتبة قد أسكنوهم في مساكن وضيعة من غرف مفردة هي أيضاً من الطوب الأحمر. وفيها يعرق الموظفون صيفاً

ويرتجفون شتاء بينما يعدون قروشهم ليروا إن كانوا يستطيعون أخذ إجازاتهم عندما يحين وقتها.

أما السكن الذي خصص للمفتشين البريطانيين لم يكن أفضل بكثير. وقبل أن يغادر المفتشان لمحطاتهما الخارجية أعطاهما سلاطين باشا، المفتش العام، الذي سأتحدث عنه كثيراً فيما بعد، من خبرته الواسعة كثيراً من المعلومات عن الناس والمشاكل التي عليهما معالجتها. وعندما جاء دوري لمقابلة معه أخبرني عن شيئين أثارا اهتمامي كثيراً لدرجة أنني أتذكرهما حتى الآن بالرغم من أنني آسف لأقول إنني نسيت باقي نصيحته السديدة. أخبرني أن آمر خدمي بإبعاد جميع الأسلحة القاتلة عندما أشعر بدنو هجوم الملاريا عليَّ، وأن يكون لديَّ مسواك بين شفتي عند الجلوس للحكم في قضية. « يقول سلاطين إن الناس يستطيعون قراءة أفكارك لمراقبتهم حركة فمك ويعلمون إن كنت تصدق ما يقولونه لك. أما بوجود مسواك بين أسنانك فلن يجدوا من السهل إدراك ما يجول بذهنك». وأخبرني بأنني محظوظ لإرسالي إلى سنار. حيث إنني على أية حال سوف أحصل على منزل «جيد» للسكن. وكلمة «جيد» تعبير نسبي. فبيت الطوب الأحمر بسنار ربما ظهر جيداً لشخص قضى كثيراً من حياته في أكواخ الأهالي أو في الأغلال كسجين لدى الدراويش. أما بالنسبة لي فيبدو سكناً بائساً – وهذا شعور يشاطرني فيه من أتى بعدي الذي رفض أن يسكن فيه وبنى له كوخاً كأكواخ الأهالي ليس بعيداً عن البيت الحكومي.

هذا المنزل كان مبنى مستطيلاً قليلاً، مكوناً من غرفتين منفصلتين بممر، حيث كنا عادة نتناول طعامنا فيه وذلك من أجل التهوية. كذلك يوجد مخزن صغير. وأما سكن الخدم فعلى مسافة قصيرة. والفتحات حيث ينبغي أن تكون النوافذ ركبت فيها شبابيك من خشب صناديق السكر. وهذه تزيد في فصل الأمطار بحيث نادراً ما يتيسر فتحها، وتنكمش في الشتاء بحيث يصعب إغلاقها.

وحيث إنه لا توجد فرندة، فإن المنزل حار بدرجة لا تحتمل في الصيف وبارد في الشتاء. وسقف غرفتي يرشح مثل مصفاة. وخلال أية عاصفة عليّ مراراً أن أحرك سريري في محاولة لأجد مكاناً أقل بللاً. و لم يكن مفرحاً عندما نظرت إلى أعلى، إلى السقف الذي يرشح منه الماء، لألاحظ علامة أحدثتها رصاصة مسدس سلفي، التي أطلقها على نفسه خلال جنون الملاريا التي أصابته. ربما كان سلاطين على علم بهذه الحادثة عندما نصحني بإبعاد جميع الأسلحة القاتلة عندما أشعر باقتراب الحمى.

أما مكتبي في سنار فرغم أنه كان أفضل من كثير من المكاتب في ذلك الوقت، إلا أنه يفتقد معظم الإكسسوارات التي يتطلبها العصر الحديث. كرسي خشب قاسٍ من نوع كراسي المطابخ، ومنضدة من نوع الحمار الخشبي تتأرجح على أرضية المكتب غير المستوية. كان هذا كل أثاث المكتب. أما المنضدة فكانت مغطاة ببطانية جيش قديمة ملطخة بالحبر ونقط من الشمع السائح لإغلاق المظاريف وورّاقة صغيرة لوضع الأقلام ونشافات الحبر وزجاجة حبر. وعلى الجدار رف مصنوع كالعادة من خشب صناديق السكر وعليه نسخة من القرآن الكريم وقانون عقوبات السودان وقانون العدالة المدنية وملف مهترئ لأوامر المديرية وأحدث اللوائح الحكومية. وقد ثبتت خارطة المركز على أحد الحيطان وهي غير دقيقة، ويواجه الكرسي الذي أجلس عليه لوحاً مصنوعاً من خشب صناديق السكر وعليه إعلانات ركيكة لم يكن لديها مكان آخر. وهذا لا يهم كثيراً حيث إن أجزاء منها أكلتها الأرْضة، وجعلتها زخات المطر المفاجئة غير مقروءة تقريباً.

وهناك روزنامة (ALMANAC) تقدمها في عيد الميلاد مؤسسة خرطومية. ربما كانت أفضل شيء في المكتب، حيث كنا نعيّن بناء عليها بالتقريب موعد إجازتنا البعيدة.

يكون المكتب غالباً بارداً في الشتاء حيث نضطر إلى ترك النوافذ مفتوحة لكي نرى ونكتب لعدم وجود زجاج في النوافذ. كنا نجلس نرتجف ونحن نلبس معاطف ثقيلة وندفئ أنفسنا من وقت لآخر بكوب من القهوة السوداء تأتي به إمرأة من الرقيق المحرر. وفي الصيف فإن النوافذ المفتوحة التي تسمح بمرور الرياح الباردة في الشتاء، تسمح بدخول الحرارة من الخارج، حاولنا تخفيف ذلك باستعمال البنكة (PUNKAH) (مروحة في شكل ستارة تتدلى من السقف يجذبها برفق صبي أو مسجون) على الأقل كانت تلك هي الفكرة، ولكن كلما ازدادت حرارة الجو، فإن جاذب البنكه يكون أكثر نعاساً، ولذلك عندما تزداد الحاجة إلى تيار هواء فإنه لا بد من إيقاظه.

وبما أنه لم تكن لدينا آلات طباعة أو أي شخص للقيام بالتدوين، كان لزاماً علينا كتابة كل شيء بأنفسنا وأخذ نسخة كربونية، وهذا جهد لم يشجع بالطبع التراسل المطوَّل.

لبسنا الرسمي في تلك الأيام كان مختلفاً جداً عما هو عليه الآن: زي رسمي من الكاكي مع شرائط عند الأكمام حسب الرتبة لكل موظف وطربوش وقميص أبيض خفيف مع ياقة بيضاء منشاة وربطة عنق سوداء أو بلون الكاكي. كذلك كنا نلبس خوذة ثقيلة على طراز خوذات الجيش المصري وعليها شارة من ثلاثة حروف S.C.S هي اختصار لحروف (الخدمة المدنية السودانية) بدلاً عن النجوم الثلاثة والهلال على الخوذات للجنود. مديرو المديريات ومعظم كبار الموظفين كانوا أعضاء في الجيش المصري - هيئة رفيعة من الرجال مختارون خصيصاً للخدمة المؤقتة في السودان - ونحن المدنيون علينا أن نمتثل للوائح التي يضعونها. أوامر الجيش فيما يتعلق بموضوع النظافة صارمة، والويل لأي مدني يعتبره ضابط بريطاني رفيع بأنه «لابس بصورة غير رسمية». ما زلت أتذكر بأي غبطة قرأت أمراً صادراً من الجيش يقول «يجب

ألا تلبس قمصان الكاكي وسراويل الكاكي القصيرة (SHORTS) وغيرها من الأطقم الفاخرة. «

في السفريات بالمناطق الخارجية ما كنا نحمل معنا هذه الأوامر. وقد كان دائماً من الممتع استبدال طقم ملابس المكتب بشيء أفضل ملائم لطقس البلاد: قميص غابات، قمصان كاكي التدريب، بنطلون ركوب الخيل، وجزم ركوب الخيل ذات العنق الطويل، وهذه مفيدة بالذات في الأماكن التي بها أفاعي أو نباتات شائكة. ويعتبر ضرورياً في تلك الأيام اللباد الكثيف المصنوع من الكتان المضاد للشوك والمبطن بقماش أحمر وكذلك الخوذات الثقيلة، بالرغم من أنني أعتقد ألا أحد يلبسها الآن. فالخوذات ثقيلة ولا تحتمل وهي عبء ثقيل في حرارة النهار.

سنار كانت من المفتشيات التي يقال لها (K(DOUBLE - BANKED بمعنى أنها بها محطة مفتشان اثنان. وكثيراً ما أدرك بشيء من العرفان كم كنت محظوظاً أن كان لي زميل لطيف خلال فترة خدمتي لسنتين هناك. كانت الحياة لا يمكن أن تطاق إذا كنا نكره بعضنا.

أول من عملت معه هو السيد/ ج. ر. بي سانفورد، نائب مفتش، تغيَّر فيما بعد ليصبح مساعد مفوض مركز، وهو لاعب ركبي انترناشونال. وكان معي في نفس الكلية بأكسفورد. كنت أعرفه معرفة شخصية. فقد كان ذا مثل عليا، متدين مخلص، يكرس حياته لرفاهية الناس. كان شاملاً في كل ما يفعله ويبذل غاية الجهد ليخبرني بكل ما يستطيع عن الناس والمركز. مكث معي أسبوعين قبل أن يغادر في واحدة من رحلات التفتيش الدورية بالمركز. وقد حذرني أنه من المؤكد أن جماعة من مقدمي العرائض ينتظرون فرصتهم لإرباك المفتش الجديد، وأن من المؤكد أنهم سوف ينقضُّون عليَّ بمجرد أن يغادر سانفورد في رحلته.

يومي الأول في المكتب وحيداً أثبت أن ستانفورد لم يكن مبالغاً عن صعوبات الإدارة في سنار. بدأ هياج خارج مكتبي واختلطت أصوات رجال ونساء في صياح غاضب، وفجأة اندفعت أضخم إمرأة سوداء رأيتها في حياتي إلى داخل مكتبي من خلال النافذة، ولحق بها رئيس الكتبة السوداني واثنان من الشرطة. واندفعت المرأة نحو رجليَّ وأمسكت بقوة حول ركبتي وراحت تردد في صيحات فزع شديد أن أحداً يريد قتلها. أمسك الشرطي الأول بالمرأة وأمسك الشرطي الثاني بزميله وفي الوقت نفسه أمسكت أنا بمنضدة المكتب. ألقى رئيس الكتبة بذراعيه حول خصر الشرطي الثاني، ولكيلا يتم التغلب على الموظف السوداني تمسك هو برئيس الكتبة. بدأت الآن اللعبة. ويبدو أن كل شخص في المبنى تدافع داخل مكتبي ليرى ماذا هناك. الأقلام والحبر والأوراق تطايرت في كل اتجاه وليس من السهل أن تبدو بمظهر الوقار في مثل هذه الظروف. تم صدم طربوشي إلى جانب ليرتكز على أذن واحدة. أما وجهي فقد تلطخ بالحبر. لقد سررت عندما فكت المرأة قبضتها واستعيد النظام تدريجياً. هي إمرأة من الرقيق انتظرت حتى وصل مفتش جديد لتعيد فتح مسألة وحشية سيدها المفترضة.

العبودية كانت واحدة من أصعب المشاكل على حكومة السودان التعامل معها في تلك الأيام المبكرة. وكمفتش شاب فغالباً ما كنت أجد تطبيق السياسة الرسمية على الحالات الفردية مؤلمة وغير مستساغة. لقد كان مستحيلاً على الحكومة التسريع لتحرر جميع العبيد في الوقت الذي لم تكن لديها أموال لتدفع تعويضات ملاك الرقيق. وليس فقط أن هؤلاء الملاك يعتمدون على عمل الرقيق، ولكن كثيرين منهم استثمروا كثيراً من رؤوس أموالهم في شراء الرقيق. أما التحرير الإجباري دون دفع تعويض كاف سيكون غير عادل بالمرة لمالكي الرقيق ويفكك الحياة الاقتصادية للبلاد. مثل هذه الخطوة قد تؤدي

إلى ثورة عامة ضد الحكومة وتعود بالبلاد إلى الأوضاع الفوضوية في القرن التاسع عشر. وبجانب أسباب الضرورة هذه فإن التحرير المفاجئ لن يكون حقيقة في مصلحة الرقيق. فمعظمهم قانع بالبقاء مع أسيادهم، إنها واحدة من لعنات العبودية أن تقوّض جميع المبادرات، وبعد حياة في ظل العبودية كثيرون يصبحون غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم. فالعبيد الآبقون وهم قلة، عادة ما يمتهنون السرقة أو الدعارة حسب إن كانوا رجالاً أو نساء.

تعليماتنا الرسمية هي إعادة العبيد الآبقين إلى أسيادهم وتحذير ملاك الرقيق أنه سوف ينزع منهم الرقيق إذا عاملوهم معاملة سيئة. وفي نفس الوقت صدرت أوامر أنه في المستقبل يعتبر جميع المولودين للأرقاء يعتبرون أحراراً في نظر القانون. إن تنفيذ هذه السياسة غالباً ما يكون مكروهاً بالرغم من أن الحكم بنتائجها اليوم يجعلها ليست ملائمة فقط بل حكيمة. إن عزاءنا هو أن الأرقاء تحت إشرافنا عوملوا معاملة حسنة، وأنه منذ تلك الأيام فإن الإسترقاق الإجباري قد تلاشى. لقد أدركت كيف أنهم كانوا يعاملون معاملة حسنة عندما رجاني شيخ من مديرية بربر في سنة ١٩٢٤ أن آمر عبيده ليتركوه، حيث إنهم يستهلكون من الشاي والسكر أكثر مما يستهلكه أفراد أسرته الخاصة. في كثير من الأسر كان الأرقاء قانعين للغاية بحياتهم بالرغم أنهم كانوا يستطيعون نيل حريتهم. لقد فضلوا الحياة في البيوت التي تربوا فيها، وكذلك آباؤهم كما يفعل البعض حتى اليوم، فهم يعتبرون أنفسهم ضمن أفراد العائلة.

على أية حال كان هنالك جانب آخر ولو أنه غريب لمشكلة الرقيق في سنار. لقد بدأ تمزيق الحياة القبلية في التركية. واكتمل تقريباً في المهدية مما ترك الحكومة الإنجليزية المصرية بدون أساس إداري لتبني عليه، وكان من أوائل مهامنا تجميع سجل من الناس المهمين الذين يمكن إيداع المسئولية إليهم.

كثيرون من شيوخ مركز سنار رجال من عوائل طيبة ولهم شخصيات ونفوذ، ولكن آخرين كانوا رقيقاً، و لم يكن هؤلاء الأخيرون يريدون تولي المسئولية، وهذا ليس بسبب أي خجل من جانب الشيوخ الوارثين. الأمر بعيد من ذلك. إن تعيين أحد الرقيق كرئيس شرفي لقرية مبني على حسن التصرف السليم وإظهار الحصافة من جانب سادة القوم في القرية. و ذلك ما تعلموه من الفترة التركية.

السودانيون الذين عانوا من سوء الحكم والإستغلال إلى ما يقرب من ثمانين سنة مازالوا لا يثقون في أي نوع من الحكم الأجنبي. لماذا ينبغي أن تبرهن الحكومة الجديدة أنها أفضل من سابقتها؟ هكذا جادل الشيوخ (ومن يمكن أن يلومهم؟) ولما كان ذلك كذلك وعادة ما تضرب الصاعقة أعلى الأشجار، لذلك لم يكن لديهم سعي لوضع أنفسهم في طريق صاعقة الحكومة.

الحكام الأتراك عينوا الشيوخ في القبائل والقرى وهؤلاء مسئولون عن المجتمعات التي تولوا أمرها. وكانت جباية الضرائب دائماً الهدف النهائي للإدارة والواجب الأول للشيخ هو جباية الضرائب في منطقته. وسرعان ما أدركت العوائل البارزة أن التعيين أبعد من أن يُحسد عليه. إن طبيعة العمل كريهة، وبالطبع تجعل من يقوم به غير محبوب في القبيلة. وبجانب ذلك فإن الحكومة سريعة في المعاقبة عن أي نقص في مال الضريبة، وذلك بجلد الشيخ المسئول عن ذلك. إذا قدر لأي شخص أن يدخل في مشاكل مع الحكومة، وفي جميع الاحتمالات – حسب الخبرة السابقة – أن تجلده الحكومة، فإن الشخص الذي لا يهتم به أحد هو الذي يقدم مرشحاً – أو كضحية لهذا المنصب! وهكذا يتم اختيار عبد لهذا المنصب. هذا الترتيب موافق لرغبة الشيوخ كما يرحب به الناس أيضاً. فالناس قد يشعرون أنه من الصعب رفض مطالبات رؤوس عوائلهم أو قراهم المعترف بهم، ولكن لا يكون لديهم أي

تردد في مقاومة أوامر شــخص محتقر في المجتمع مثل عبد.

يبدأ العمل في المكتب بين الثامنة والنصف والتاسعة ويشمل أساساً سماع الدعاوى الجنائية والقضايا المدنية وأنواع من الشكاوى لا حصر لها من عدد كبير من مقدمي العرائض. هؤلاء الناس لديهم متسع من الوقت لتبديده بالمقارنة مع المفتش المنهك. ومن الواضح أنهم يعتبرون أن زيارة لمكتب المفتش نوع جيد من الترفيه. وعلى أي حال فإن مما يخفف من أعبائنا أن الأيام التي يصلنا فيها البريد قليلة، وأن كمية المراسلات الرسمية قليلة وذلك واحد مما يبرر الإشارة إلى تلك الأيام بعبارة أخرى «أيام الماضي الطيبة.»

عندما ينتهي العمل اليومي، كنت أهرب مسروراً إلى الهواء الطلق. أحياناً أركب أميالاً إلى الريف لتنشيط حصاني أو لضرب كرة البولو بالقرب من سكني، وأحياناً أمشي لممارسة ضربات الجولف أو أتجول بعيداً في البر حاملاً خرطوشاً أو بندقية على أمل اصطياد شيء للطبخ. كان الوقت لطيفاً فقد بشرت الظلال المتطاولة بقدوم الهواء البارد للمشي على شاطئ النيل الأزرق وظلال أشجار السنط ومن خلفها الشمس الغاربة ولمراقبة القرود وهي تتأرجح بين فروع أشجار السنط أو الاستماع إلى هسيس طيران البط النهري. وغالباً ما كنت أقضي أوقات العصر في اصطياد التماسيح – يكاد التمساح أن يكون المخلوق الوحيد فيما عدا الثعبان الذي ليس لدي معه أي تعاطف مهما كان. أحياناً بعد هبوط الظلام المفاجئ وأنا جالس وبجانبي الوسكي وسايفون الصودا الغازية أو أكتب خطاباً إلى الأهل تتم مناداة زميل السفرجي لتشغيل جهاز الحاكي (الجرامافون) وهو عمل يعطيه فرحة طاغية. الصبي في الثامنة عشرة من عمره، لا يقرأ ولا يكتب ومع ذلك وبشيء من الحاسة السادسة الغريبة تعلم تشغيل الأسطوانات التي أريدها. وهنالك مناسبات يضع فيها الأسطوانة التي يهواها هو بشكل خاص، ويعتذر ببسمة

للغلطة التي يعلم تماماً أنني أعلم أنه ارتكبها عمداً. كيف استطاع أن يفرق بين الأسطوانات العديدة؟ هذا ما لم أستطع اكتشافه. لديه اسم عربي لكل منها مما حملني على تعلم أسمائها العربية، لكنه لم يكن سعيداً دائماً في اختياره عناوين الأسطوانات. فمثلاً إذا أردت الاختيار من مجموعة «Quacker Girl`» فينبغي أن أطلب(El sharmouta)

– أي «العاهرة». وهو الاسم الذي وضعه لهذه المجموعة !!.

يوم الجمعة، كما هو في أي مكان آخر، هو يوم راحتنا مما يعطينا دقائق قليلة إضافية في السرير ما لم نكن نائمين في السطوح في أيام الحر إذ تدفعنا الشمس إلى أسفل. كنت أحياناً أقضي اليوم في تفقد مخزوناتي من المواد الغذائية، إذ من السهل أن تنتهي بعض المواد الضرورية مما يعسّر الحصول عليها لعدة أسابيع. إرسال تلغراف إلى الخرطوم يحضر المواد بسرعة أكبر، ولكن التلغرافات على أيدي الكتبة المحليين قابلة لأن تحدث فيها تحولات يؤسف لها. بعد مناسبة أرسلت فيها تلغرافاً أطلب فيه بعض الصابون كنت في حاجة عاجلة إليه، تسلمت من الخرطوم دستة من علب الشوربة وكان مخزني ممتلئاً بها لدرجة الفيضان. وقد تخليت عن كل المحاولات لطلب احتياجاتي من البقالة تلغرافياً. مثل هذه الأخطاء البسيطة عادة ما تكون مزعجة ولكن أحياناً قد تكون مسلية. نظراً لازدياد داء الكلب في السودان فقد تقرر قبل بضعة سنوات إصدار قانون لمحاربة داء الكلب، وعندما قدمت مسودة القانون إلى مجلس الحاكم العام كان عنوان المسودة:

(An Ordinance for the Prevention of Babies)

«قانون لمنع الأطفال»

والمقصود كلمة: (Rabies) التي تحولت على يد الكاتب المحلي إلى كلمة: "Babies"

بالرغم من أن الجمعة نظرياً يوم راحة دون واجبات رسمية، كانت حسبما أتذكر هي اليوم المعتاد لزيارتي من قبل مدير مكتب البريد وهو في حالة قلق وبملابس غير منظمة، ليقول إنه لم تعد لديه أقراص الكينيا التي هو مسئول عنها في حالة عدم وجود صيدلي أو صيدلية. هذه الزيارة تحدث دائماً في موسم الملاريا عندما يكون دواء الكينيا ضرورة ملحّة.

قبل أن يغادر سانفورد في رحلة، حسبما ذكرت سابقاً، حذرني من بعض المشاكل التي ربما كان عليّ معالجتها. وقال لي إنه إذا لم تكن لدي حقيقة فكرة عن ماذا أفعل في بعض النزاعات التي تعرض علي، أستطيع دائماً إحالتها إلى محكمة الشيوخ لمعالجتها حسب العرف القبلي. وبعد يومين فقط من تفجر مشكلة المرأة الخادمة كان لدي سبب لشكره على نصيحته.

«سيدي» قالها مشتكي وهو شبه جائع، دخل مكتبي وهو يقول «أنا مظلوم» من أحمد داوود. «كل ما أملكه في الدنيا حمار يشاركني فيه أحمد». كان الشاكي يلبس بقايا متسخة من خرقة جلابية في غاية التمزق بحيث لا تغطي أجزاء من جسمه تكون عادة مخفية من نظر الناس. إنني نادراً ما رأيت شخصاً مثقلاً بالهموم مثله. بالحكم من مظهره فقد كان يقول الحقيقة وإلا فإنه لن يأتي إلى المحكمة بمثل تلك الأسمال.

سألته «ما هي مظلمتك؟».

أجاب «أحمد وأنا يملك كل منا نصف الحمار ولكن أحمد يرفض أن يعطيني نصيبي من الرَّوث».

رد أحمد المدعى عليه «بالطبع فإني لن أعطيه. لماذا عليَّ أن أفعل ذلك؟ ألم أكن أطعم الحيوان؟ إنني أضع شيئاً في طرف واحد وأنا استحق ما يخرج من الطرف الآخر».

« يا كلب ويا ابن الكلب» رد مصطفى»: ألم أسلفك معزة قبل عامين؟»

« نعم» قال أحمد « ولكنك لم تدفع لي حتى الآن عن كيلة الذرة التي استلفتها مني قبيل الحصاد».

بعد ذلك غاص النزاع إلى أعماق أبعد من مسباري وفيها ديون ماعز وحبوب وهدايا ووعود بقفاف وملابس ومعازق بصورة متشابكة يصعب حلها، حيث بدأت أنسى كل شيء عن الحمار إلى أن ذكرني نهيق عالٍ خارج مكتبي بالسبب الأصلي للنزاع. تخليت من الصراع وبالوقار الذي استطعت أن استجمعه أحلت القضية بأجمعها إلى محكمة الشيوخ.

بمجرد أن غادر المختصمان المكتب دخلت عجوز ماكرة متهدلة طويلة الثديين لها عيون عتيقة كان ينبغي أن تتوقف قبل زمن عن الحركة التي تحركها بها.

«صاحب السعادة» قالت المرأة ببسمة متكلفة «لولا أن سمعتك بالعدالة والشرف وصلت إلى كل أطراف العالم؟ «(حيث إنني كنت في سنار حوالي أسبوعين فقط، فإن هذا القول لا يبدو ممكناً.)، ألست أنت المشهور بالدفاع عن الأرامل والفقراء؟ «وهنا دارت العين مرة أخرى» ومن هو غيرك مشهور بتصحيح الأخطاء الإنسانية والإحسان؟ أنا مظلومة. «دائماً هي نفس العبارة التي أكل عليها الدهر. وهي العبارة الافتتاحية التي تسمع في جميع أنحاء السودان؟

«في السنة الماضية» واصلت الشاكية «مرضت حمارتي وقد كانت حمارة ممتازة ولها العديد من الذرية ولها عيون كعيون الغزال» وفي انفجار مفاجئ من الحماس «تكاد تكون جميلة مثل جمال سعادتك. مرضت حمارتي «كررت المرأة» فعلت ما أستطيع كويتها حوالي مائة مرة و لم أعطها طعاماً لمدة أسبوع ولكن حالتها أصبحت أسوأ. وفي حالة يأس أخذتها إلى الفكي

أحمد أعطيته قرشاً لعلاجها. نطق ببعض التعاويذ عليها وربط حجاباً حول عنقها، ثم قال لي (الآن دعي حمارتك تنطلق دون قيود، فإذا لم تشف في ظرف أسبوع فإنني سوف أدفع لك تعويضاً)، تركت حمارتي وقد أكلتها الضباع.»

«ذهبت إلى الفكي» واصلت المرأة «وطالبت بتعويضي. رفض الرجل أن يدفع قائلاً إنها إرادة الله أن تأكل الضباع حمارتك وأنه غير مسئول.»

الحمد لله أنني أحلت هذه القضية أيضاً إلى محكمة الشيوخ.

الباب الرابع

جـولات التفتيـش



الباب الرابع
جـولات التفتـيـش

الكثير من عملنا لا يمكن إنجازه إلا في الحقل، لذلك فأنا وسانفورد من النادر أن نكون معاً في سنار في وقت واحد. فالمفتش كان في تلك الأيام المبكرة «صاحب الصنائع السبع» الجاهل في معظمها والبارع في لا شيء. علينا أن نبني أو نشرف على بناء الجسور والسجون والاستراحات وشق الطرق ومعالجة المرضى وتفتيش المدارس ودكاكين الجزارة وإسداء النصح في الزراعة وتقدير ما نستطيع مما يتم تنفيذه الآن بعشرات الخبراء والفنيين.

كل هذا تطلب جولات تفتيش متكررة في المراكز التابعة لنا، وهي جولات ليس مرحباً بها فقط كتغيير من حياة المكتب، ولكن كوسيلة للابتعاد عن القيود التي يفرضها البريد والتلغراف. وفي الحقيقة أن السلطات العليا كانت متعاطفة نحونا معتقدة أن الشخص الموجود بالموقع أفضل في التقييم من الموجودين على بعد مئات الأميال لمعالجة المشاكل المحلية. لقد وثقوا فينا ونحن شاكرون للثقة التي وضعت فينا كما حاولنا ألا نخذلهم. مديرو المديريات أطلقوا أيدي المفتشين التابعين لهم، والرئاسة في الخرطوم تركتنا وحدنا و لم تشغلنا بكثير من الأرانيك التي تحتاج إلى ملئها أو التعليمات التي لا يمكن تنفيذها. وفي الحقيقة إن السلطات في الخرطوم كانت مشغولة للغاية بالمشاكل الخاصة بها، بحيث إنهم لا يعلمون إلا بالقليل عن المسئولين في المحطات الخارجية إلى أن يمروا بالعاصمة أثناء إجازاتهم أو أن ترسل دورية عسكرية لمعالجة هيجان نتيجة تعصب ديني في دائرة المركز.

ونحن بدورنا حريصون أيضا لتفادي زيادة أعبائهم بمشاكلنا – أحد المفتشين على الحدود الأثيوبية كانت لديه صينية يحفظ فيها الخطابات الرسمية التي

تنتظر الرد عليها، وفي الحائط المجاور لها هناك علامة على ارتفاع ثماني عشرة بوصة فوق المنضدة. وعندما تصل المراسلات الواردة خط النهاية على الحائط يرسل برقية إلى الخرطوم يبين فيها أنه سيكون غائباً عن المكتب في جولة تفتيشية لمدة ستة أسابيع، وأنه سوف يعالج جميع المراسلات عند عودته. وكما كان يتوقع يكون الوقت متأخراً جداً بنهاية تلك الفترة للرد على بعض المسائل المطروحة عليه.

قبل البدء في جولة تفتيش يخطر خادم عن نوع الأشياء التي يجهزها للمفتش مع تحذيره من أنه إذا نسي أي شيء وجب عليه أن يعود إلى المنزل لإحضاره. في البداية كنت أراجع واجباتهم العديدة بتفصيل، ولكن فيما بعد عرف الخدم ما أريد بالضبط وكان من النادر وجود خطأ.

الخادم الأول الذي حددت له واجباته كان مصطفى علي الطباخ. أطعمة معلبة، قهوة، شاي، سكر، زجاجتان أو ثلاث من عصير الليمون، زجاجة ويسكي وسايفون صودا غازية. كذلك خصص له أفضل جمل تحميل ليركبه، حيث إن سعادتي تعتمد على الراحة المعقولة التي يتم توفيرها له. توضع المؤن مع أي شئ آخر يشتريه من السوق في صندوق كبير. وفي صندوق آخر توضع أواني الطبخ والكانون الذي لا يمكن الاستغناء عنه (وهو صاج بسيط يستطيع الطباخ السوداني أن يعد به عشاءً كاملاً في ظروف غير مواتية من الرياح والعواصف الرملية والمطر)، وهذه الصناديق صممت خصيصاً حتى يمكن وضع أدوات الطبخ العديدة فيها بصورة منظمة. لكن صندوق المطبخ فشل في أداء الغرض منه، حيث إنني لم أستطع تغيير عادة الطباخ في وضع جواربه وحمالات البنطلون وما شابه من الملابس، بينما تصلصل الطوة وحلل الطبخ وغيرها من أدوات المطبخ بصورة مزعجة وهي مربوطة في مخلوفة الجمل. تم استدعاء صالح السفرجي لأنه مسئول عن حزم كثير من

الأشياء لأن إهمالها قد يسبب الكثير من الإزعاج. قبل كل شئ معدات المخيم وسرير المشمع والناموسية والطاولة القابلة للطي وحمام المشمع القابل للطي وكرسي المشمع القابل للطي يجري تفقدها مرة أخرى. ملابسي والحقيبة الجلدية للشمعدانات وغطاؤها الزجاجي لحمايتها من الريح كلها تشكل معدات منزلي. وتأتي بعد ذلك في القائمة بندقيتي والخرطوش والذخيرة. وأخيراً تأتي الفرشة الأرضية التي تستخدم كمظلة بالنهار وسجادة بالليل.

يتم تحميل جمل السايس بقليل من الذرة الاحتياطية لخيلي ومعدات الإصطبل وماء احتياطي في القِرب وصندوق ثقيل مقسم إلى أقسام وبه ملفات جميع القضايا مما يحتمل أن أعالجها أثناء سفري. هذا الجزء الأخير سخيف إلى حد بعيد. وقد أخذه معه نائب المفتش الذي التحق مؤخراً بالخدمة في أول رحلة له، وتركه وراءه فيما بعد.

الولدان الصغيران – يسمى الواحد منهما مرمطون وهذا مساعد طباخ، وهو يقوم بمعظم العمل ويأخذ أقل راتب، ومعهما الصبي الصغير الذي يساعد السفرجي – يتقاسمون ركوب الجمل الرابع – يجثم بمرح واحد على كل من جانبي الرحل. وهم يوازنون شحنة مختلطة من البقايا التي تركت من الجمال الثلاثة الآوائل. هدايا متنوعة – قماش ملون، مرايا وغيرها من الأشياء الرخيصة للتأكد من أن الشيخ وأتباعه لن يعانوا من وصولنا المفاجئ للقرية – بعض الحلوى والتمر للأطفال. صندوق كتبي الذي يحتوي أيضاً على فنغراف وأسطوانات، وأخيراً صندوق الأدوية الذي لا يقدر بثمن، جميع هذه الأشياء كانت في رعاية هذين الولدين حمد النيل ومحمد الناصر.

اختيار الكتب كان صعباً دائماً. لم أرد أن أضيف كثيراً من الوزن إلى أحمال الجمال، القانون الجنائي السوداني وغيره من الكتب والأوراق الرسمية التي عليّ أن أحملها معي لم تترك مجالاً لأي كتب خاصة. وفي النهاية عادة ما

أحصر نفسي في أخذ الإنجيل، وواحد أو اثنين من كتب د. د. جيكويز وآخر عدد من مجلة بلاكوود والتايمز الأسبوعية، وواحد أو اثنين من مجلدات شكسبير الصغيرة الذي أضعه في جيب قميص الرحلات لأقرأ فيه في أوقات عرضية عندما أكون منتظراً لجمال التحميل لتلحق بنا. صندوق أدويتي سبب لي في البداية شيئاً من القلق. فقبل أن نغادر إلى السودان نصحونا بتزويد أنفسنا بصندوق. وبسبب فكرة خاطئة كنا نعتقد بأن الأدوية الأغلى ربما هي الأفضل. بعضنا أحضر معه صندوقاً كبيراً يحتوي أدوية لعلاج جميع الأمراض المتخيلة اعتباراً من داء الفيل إلى التهاب ركبة الخادمة. سفرية واحدة كانت كافية لإقناعي أن مثل هذا الصندوق غير مهم على الإطلاق. وفي المستقبل كنت عادة قانعاً بأخذ كميات كبيرة من حبوب الكينيا والأسبرين والكاسكارا والكالوميل و»نمبرناينز» وبعض الضمادات البسيطة وقليلاً من مطهر سالول. هذه المجموعة المتواضعة مع خبرتي الأساسية بالإسعافات الأولية وجدتها أكثر فائدة عملياً من التجهيزات المعقدة، وكانت كافية لمعالجة معظم الأمراض التي صادفتنا كالملاريا والجروح المتعفنة والإمساك. أذكر مرة طلب مني أن أفحص شخصاً قيل إنه مريض جداً. وحتى مع عدم خبرتي استطعت أن أحدد أن الرجل يحتضر من التهاب الرئة. قلت لأقاربه سراً إنني آسف جداً إذ لا أستطيع عمل شيء له، وأنه ربما يموت قبل مضي وقت طويل. وبالفعل مات الرجل في تلك الليلة بنتائج محرجة بالنسبة إلي حيث كسبت سمعة بالمعرفة الطبية مما جلب عشرات المرضى لمقابلتي حيثما ذهبت.

أشك في أن الكثير منا نظموا جولاتهم القليلة الأولى بصورة ناجحة جداً. القليل جداً ما يعرف عن البلاد، بحيث إننا ليست لنا فكرة عما نستطيع شراؤه من الأطعمة. علمنا على أي حال أننا لن نجد دكاكين في أي مكان، لذلك علينا أن نأخذ معنا جميع احتياجاتنا من البقالة. وتوقعنا أننا نستطيع أن

نشتري خروفاً أو شاة أحياناً، وأن الكلفة لن تكون كبيرة، فالخروف بثلاثة شلنات والشاة بشلن واحد والدجاجة بنسين ونصف. ورجونا أيضاً أن تتاح لنا فرصة لاصطياد حيوان للحم مثل غزال أو دجاج وادي أو بطة. وقد نجد بعض الخضروات عندما نسير بجانب النهر ولكن بعيداً عن النهر نأمل أن نجد البامية. وللتأكد من أن الطعام لن ينفد منا حملنا معنا أكثر كثيراً مما هو ضروري بالفعل. وتدريجياً وكلما تعلمنا أكثر عن مركزنا وجدنا أننا نستطيع أن نستغني عن الكثير الذي اعتقدنا نظراً لجهلنا أنه لا غنى عنه. كان الأمر سيكون أسهل لعمل خطط إذا كنا نعرف دائماً أين ستأخذنا رحلاتنا. خرطنا لم تكن مكتملة ولما كانت لا توجد طرق ممهدة، فقد شققنا طريقنا طيلة دروب ضيقة تتعرج من قرية إلى قرية أو من أكواخ بدو إلى بئر أو مكان استسقاء على شاطئ النهر ولا ندري على وجه اليقين إلى أين سوف نصل في النهاية.

نقضي الليل وقتما كان ذلك ممكناً في العراء والنهار في كوخ إذا كانت الحرارة شديدة بالنسبة لنا للعمل خارج الظل. هذه الأكواخ (القطاطي) في شمال السودان تصنع غالباً من الطين (جالوص) أو الطوب الأخضر أي غير المحروق مع فتحات ضيقة للنوافذ والحيطان سميكة جداً مما يساعد على جعل الجو بداخلها بارداً إلى درجة معقولة، إلا أنها أحياناً قليلة التهوية. في الجنوب الممطر فإن الأكواخ من أنماط عديدة، البعض بجدران من الطين مع سقف معلق من القصب أو الحشائش لوقاية الجدران من المطر، والبعض من سيقان الذرة أو الحشائش وهي دائرية بسقف مخروطي الشكل وتسمى (تكل). وهناك نوع متطور يشتمل على (تكلين) مربوطين بممر مغطى بالقصب أو الحشائش ومعروف باسم «ظهر الثور»، وتبنى الاستراحات الحكومية أحياناً بهذا الشكل. يستعمل أحد الكوخين غرفة معيشة والثاني مكتباً.

عندما يهب نسيم، على أية حال، فإن معظمنا يفضل الجلوس تحت ملاءة معلقة بين شجرتين مناسبتين أو معلقة بين أربع حراب، حيث نتفادى الغبار الذي ينزل علينا باستمرار من الحشرات التي تنخر الخشب الموجود في سقف الكوخ.

تبدأ الرحلة النهارية في الصيف قبل نصف ساعة من شروق الشمس ما لم تحتم الحرارة السفر ليلاً لحماية حيوانات النقل. في الشتاء عادة لا نبدأ في التفكير في التحرك إلى أن ترتفع الشمس. أحياناً جمال العفش المهرولة التي تستطيع قطع أربعة أميال في الساعة أو أكثر بقليل تقصر زمن السفر. ولكن عادة نعتمد على جمال العفش التي تسير برزانة وتقطع ميلين ونصف في الساعة.

يتم تحميل القافلة بينما توزع الحلوى الباردة وبعدها كوب من الكاكاو وبعض البسكويت مما ينشطنا للرحلة إلى الشجرة أو القرية حيث تتوقف القافلة للإفطار. بينما تقوم القافلة برحلتها على مهل إلى مقصدها، كنت أقوم إما بزيارة بعض القرى بعيداً عن الطريق أو أقضي الصباح الباكر في اصطياد شيء للطبخ. في أماكن كثيرة من شمالي السودان، فإن كل ما يمكن توقعه بعض القطا أو أحياناً أرنباً ما لم تكن الرحلة بجانب النهر حيث يمكن صيد أوزة أو بطة.

جنوبي الخرطوم فإن وجود الحيوانات والطيور أكثر شيوعاً. في مركز سنار فإن دجاج الوادي كان كثيراً جداً في سنة ١٩٠٩ لدرجة أنني كنت أفطر يومياً وعلى مدى أسابيع متصلة على لحم دجاج الوادي البارد والمخللات. بينما أحياناً وجود كميات وفيرة من لحم الغزلان تتيح تغييراً ساراً من الطعام الرتيب. ترى كم غزالاً يوجد الآن هناك؟.

حوالى الساعة التاسعة أو العاشرة عادة ما نصل إلى القرية حيث نمضي منتصف النهار. ونجد جميع الناس مصطفين في الخارج لاستقبالنا، والنساء يزغردن ويغنين تحية لمقدمنا، بينما فتيات سودانيات معطرات بعطر قوي وهن من طبقة المومسات يتحركن جانبياً ويرمين رؤوسهن إلى الوراء إلى أن تكاد تلامس الأرض والزائر الذي يكرم بهذا العرض يتوقع منه أن يضع قطعة نقد على الحواجب المليئة بالدهن لدى الراقصات مفرقعاً أصابعه فوق الراقصة كتعبير عن الابتهاج وأنا كواحد كنت بعيداً عن الشعور بالابتهاج لأدائهن الكريه الرائحة.

وصولنا إلى بعض القرى البعيدة عن الطريق العام غالباً ما يحدث كثيراً من المفاجآت. فبدلاً عن عشرات من العساكر غير المنضبطين الذين كانوا عادة يرافقون المسئولين الأتراك في جولاتهم المختلفة، فقد كنا نأخذ معنا اثنين فقط من الشرطة قد نحتاج إليهما لاستدعاء متهم في قضية مدنية أو اعتقال مجرم. كما أننا لا نصادر كل ما يستهوي مزاجنا كما كان يفعل الأتراك، إننا ندفع عن كل شيء نستهلكه أو عندما يرفض الشيخ (كما يفعل عادة) قيمة العلف الذي تحتاج إليه جمالنا فإننا نعطيه هدية بدلاً عن ذلك.

بعد مصافحة كل شخص وبعض كلمات الترحيب بكل من أهل القرية ينسحب المفتش للإفطار ويساهم الشيخ فيه بجبنة قهوة سوداء قوية وغالباً معها قرعة بها ربع جالون من الحليب الطازج. وهنا ينبغي أن يشرب في الحال وكلما استطاع الضيف أن يشرب أكثر كلما كان رضاء المضيف أكثر خاصة إذا تبع ذلك تجشؤ بتلذذ علامة على الاستحسان.

عمل القهوة هذه عمل احتفالي يشاهده جمع من المشاهدين الناقدين وعادة ما يكون على رأسهم الشيخ نفسه - يوضع الفحم المشتعل في قدح من الخشب الصلب ويحرك فوقه الهواء بما يسمى (الهبابة) المصنوعة من السعف

المضفور أو الصوف المنسوج. توضع حبات البن الكاملة فوق الجمر. ويتم هز القدح ليختلط الجمر والبن وينفخ صانع القهوة لتطير قشور البن بعيداً إلى أن يتم تحميصه. ثم يوضع البن في هاون (فندك) خشبي عمقه حوالى ٦ بوصات و ٤ بوصــات في العــرض، ويتم طـحـن البن إلى أن يصـــير بودرة، ثم ينقـل البن إلى إناء فخاري يســـمى (الجبنة) ثم يضاف الماء ويسخن إلى درجة الغليان. وعندما يقتنع الشيخ أن القهوة أصبحت كأجود ما يمكن تحشى رقبة الجبنة «بالليفة « وهي نبات يعمل عمل المصفى، ثم توضع في صينية وحولها ثلاثة أو أربعة فناجين ويحملها المضيف بنفسه إلى ضيوفه. القهوة القوية غير الممزوجة السوداء كالفحم تشرب وهي حارة كالنار وهي مشروب منعش وخاصة إذا كانت «سادة» أي بدون سكر.

عادة الإكرام هذه لتحية الغريب لابد أنها جاءت مع العرب من بلادهم القليلة السكان عبر البحر الأحمر، حيث المسافات بعيدة والمسافرون قلة، ولكن تم الاحتفاظ بها في السودان بالرغم من أن الزائرين كثيرون والمسافات غير بعيدة، بالإضافة إلى ذلك أن أحد واجبات المسلمين إعطاء الصدقات للفقراء وإكرام ابن السبيل.

بعد أن شربنا قهوة الشيخ، بادلته بإكرام من ناحيتي وطلبت من بعض كبار القرية أن ينضموا إلينا. وقدمت القهوة والشاي للمدعوين والحلوى للأطفال والبسكويت والتمر لضيوفي الآخرين. وتمت إقامة سباقات للأطفال. وبعد ذلك قمت بتشغيل الفونغراف وكان ذلك شيئاً جديداً في تلك الأيام. معظم الأطفال كانوا مخلوقات صغيرة جاذبة، وكان من السهل إقامة صداقات معهم حتى بدون هدية من التمر والحلوى. فحب استطلاعهم عن المظهر الغريب للرجل الأبيض ومقتنياته تغلب على تهيُّبهم له. يحبون استراق النظر إلى داخل خيمتي أو كوخي ليروا الكنوز التي يمكن أن تكون في الداخل،

كان فرحاً عظيماً لمراقبة الحماس الذي دخلوا به في السباق والقفز، وسباق الأرجل الثلاثة التي كانت لعبة جديدة تماماً بالنسبة لهم. وكانوا أذكياء للغاية ويكاد الواحد منهم بمجرد أن تعلم المشي يدخل إلى وسط قطيع مكوَّن من خمسمائة أو ستمائة من الغنم، ويتعرف على نصف دستة منها تتبع لعائلته، ويتعرف عليها من شلوخ مميزة في آذان هذه الحيوانات. إنهم يبدأون في مهمتهم بكثير من الجدِّية وبتعبيرات صارمة، لا يأخذ ذلك وقتاً طويلاً حتى تنفرج أساريرهم ببسمة عريضة تمتد من الأذن إلى الأذن وتكشف عن أسنان جميلة بيضاء.

لديَّ بعض أغانٍ ضاحكة وهي تجد الإعجاب الكبير، ولو أن بعض المستمعين غير متأكدين إن كان من اللائق الاستغراق في الضحك، لذلك يغطون أفواههم بأيديهم في محاولة فاشلة لإخفاء مرحهم الصاخب. إن أغاني (هاري لودر) تكاد أن تكون مماثلة في شعبيتها. في البداية لم أستطع أن أفهم لماذا نقابل دائماً بعاصفة من الضحك رغم أنه لا أحد من المستمعين يفهم كلمة واحدة من غنائه. كان ذلك إلى أن وضعت أسطوانة «حفظ الله الملك» من غناء شخص بصوت عميق جهير، ووجدت أن ذلك قد استقبل بنفس المرح، فأدركت أن الصوت الأجش هو ما يضحك الناس وليس الطريقة التي يؤدي بها (هاري لودر) أغانيه.

نغم آخر يقابل دائماً باستجابة صاخبة هو من نوع مختلف تماماً «عندما يرنُّ الانجلس»، وفيه عندما ترن أجراس الدير على فترات، ولكن الناس أسموه «الشامتين» أو المتشاجرين، وهم تحت انطباع أنه يمثل شجاراً بين رجل وزوجته، بحيث يضرب الزوج زوجته ضرباً مبرحاً. ومن وقت لآخر يستثار الناس إلى أعلى درجات الاستثارة، فيشجعون الزوج بصرخات «أضربها يا أخي». ومن الغرابة أن سوء الفهم هذا للموسيقى

لم يكن محصوراً في مجموعة واحدة من القرويين أو ينبغي عليَّ أن أفكر أن ذلك يرجع إلى خصوصية غريبة في المزاج لعدد قليل من الناس. وسرعان ما انتشرت أنباء النغم، وكنت أسأل كثيراً في كل من سنار وقيلي فيما بعد كي أشغل لهم أسطوانة «الشامتين» وكانت تقابل دائماً بعاصفة من الضحك.

هناك نغم آخر محبوب وهو (وي ماكريقور باترول). في ليلة ما عندما فاجأتني عاصفة رعدية سيئة، وعندما ضربت صاعقة الأرض قريباً مني بحيث أرسلت وخزاً خفيفاً من الرّكاب إلى قدمي. قدرت أنه حان الوقت للتوقف عند أول كوخ أراه. أما الشرطي المرافق لي والخدم فقد ضلوا طريقهم في الظلام والطوفان، وأنا لم أدرك أين أنا. بعد التعثر لمدة ربع ساعة أخرى قادني ضوء خافت إلى كوخ. وبعد أن أطمأننت على راحة حصاني قضيت الليلة جالساً القرفصاء على الأرض مع سوداني أسود طويل يحتفي باسمه (برّيمة) ومعناها CORKSCROW (فتّاحة فلينة الزجاجة). كان درويشاً حاضراً معركة أم درمان، ووصف ضمن أحداث كثيرة أخرى كيف أن قذيقة أبادت القسم الذي كان يحارب فيه (جاء شيء يشبه الصندوق)، يقول السوداني «وله صوت أزيز.. "BIZZ" جميع أصدقائي قتلوا « لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى جرح نفسه. وبينما كان يرقد على الأرض سأله أحد الدراويش المتقهقرين عن قبيلته، فرد بريمة «أنا من الفور» فقال زميله في السلاح «أنا لا أحب الفور» وغرز فيه حربته. وفيما بعد مر عسكري بريطاني فقام بتضميد جروحه وأعطاه شربة من زجاجة مائه. أضاف بريمة « منذ ذلك اليوم صرت أحب الإنجليز الذين كانوا أعدائي أكثر من الدراويش الذين كانوا أصدقائي. »

وجرى الإنس بينا طيلة الليل. وللفرح الطاغي لمضيفي الذي أحببت أن يرى أن كرمه تم تقديره بصورة تامة، شربت ثلاثة وعشرين فنجاناً من قهوة سوداء قوية. وكحقيقة كان ذلك كل ما يملك تقديمه لي.

بعد ثمانية عشر شهراً عندما أصبح نقلي ضرورياً إلى مركز أفضل من الناحية الصحية نظراً للهجمات المستمرة للملاريا. مشى (بريمة) ثمانين ميلاً إلى منزلي لوداعي. وبينما جلسنا معاً في برندتي نشرب القهوة شغّلت عدة أسطوانات مما أعتقدت أنه سوف يحبها. إحدى هذه الأسطوانات «ذا وي ماكريقور باترول» التي يزداد فيها تدريجياً صوت الموسيقى العسكرية كلما اقتربت الفرقة الموسيقية ثم تخفت مرة أخرى كلما ابتعدت. طلب بريمة إعادة هذه الموسيقى عدة مرات ومرات إلى أن شعرت بالألم في يدي من لف الفونغراف. وأصبح بريمة مستثاراً أكثر وأكثر ولا يمكنه المحافظة على هدوئه. ثم أصبح لا يستطيع ضبط عواطفه. عندئذ وقف منتصباً وأمسك بحربته وتمشى جيئة وذهاباً في البرنده وملوحاً بها وهو يهتف «الله! لو أنني سمعت هذا اللحن في المعركة فلن أفر من القتال».

هذه التجمعات الأخوية كانت مقدمة للأمور الأكثر جدية في ذلك الوقت، وقد قضينا وقتاً طويلاً في توضيح أهداف وأساليب الحكومة، مشجعين الناس لتجريب مختلف أنواع المحاصيل أو محاولة إقناعهم لإرسال أبنائهم إلى المدرسة، وأي مشاكل أخرى في الإدارة يمكن مناقشتها. ولا تصبح أي زيارة كاملة دون حديث قصير عن حفظ الصحة والنظافة إن كان مثل هذه الكلمات يمكن أن تطبق على الوسائل البدائية التي تستخدم في السودان. قليل من البيوت الكبيرة المحاطة بجدران من الطين أو سياج من الشوك لديها مراحيض خاصة من الطين، تتألف من حفرة عميقة في الحوش. وبخلاف ذلك فإن الناس يخرجون عادة قبل الفجر إلى العراء بعد تجاوز حرم القرية. وتعتبر إحدى واجبات الشيخ المحافظة على نظافة وترتيب الحرم.

سرعان ما أصبحنا منسجمين مع محيطنا في جولاتنا التفتيشية. وحتى كوخ مسقوف بالقش وكبير بما يكفي لاحتواء سرير رحلات ومنضدة معسكر قابلة

للطي وحمام مشمع قد تصبح بيتاً، وعندما تكون هناك بضعة كتب مختارة بصحبتنا تكون هناك الكثير من الاهتمامات المتنوعة لشغل وقتنا. فالشمعدان يلقي ضوءاً دافئاً على هذه الأمتعة البسيطة. لقد كان مما يسر الاستماع إلى ثرثرة وضحك الأطفال الصغار وهم يدفعون الخراف والأغنام إلى زريبة مبيتها. وأصوات النساء وهن يطحن الذرة لوجبة العشاء وطنين الحياة النشطة التي تكون مقدمة للنوم. وان ما يسر أيضاً رائحة البن وهو يحمَّص طازجاً أو من نيران الحطب التي يتحلق حولها الناس جالسين مع ألسنة اللهب التي تتصاعد فتضئ وجوههم.

معيشة صعبة وسفر صعب وحياة بسيطة ومعتدلة لتجعلنا أقوياء، وبغض النظر عن الهجمات المتكررة إلى حد ما من الملاريا والدوسنتاريا أو بعض الأمراض الاستوائية الأخرى، كنا في غاية اللياقة. و لم نزعج أنفسنا بالسعرات الحرارية والفيتمينات والوجبة المتوازنة (وهي أمور لم تكن معروفة في ذلك الوقت)، بل نأكل ما نجده شاكرين على ذلك: دجاجة ضعيفة، قطعة من لحم شاة أو بعضاً من سنام جمل وهو ما يعتبر طعاماً مترفاً للذين يحبون الشحم. أما بالنسبة للخضروات فاعتمدنا في الغالب على (البازلاء واللوبيا المعلبة) التي كان يمدنا بها الإغريق المغامرون وخاصة (أنقلو كاباتو) الذي كان لديه متجر كبير في الخرطوم ومتاجر صغيرة في المحطات الخارجية. (أنقلو) رافق جيش كتشنر في حملة ١٨٩٦ – ١٨٩٨م. لقد كان شخصاً شـجاعاً، وغالباً ما يتقدم على القوات حتى يكون المطعم جاهزاً لهم عندما يعسـكرون للمبيت. وا حسرتاه! كان (أنقلو) تاجراً كثير الإقراض بحيث لا يستطيع جمع كثير من المال أو يوفر شيئاً يعينه على نوائب الزمان التي تنزل أحياناً على التجار. وأخيراً أصبح مفلساً. أشياء قاسية قيلت عن التجار الإغريق وعن الأرباح الضخمة المفترض أن يكونوا قد جمعوها، ولكنهم أشخاص

يتصفون بالشهامة ويغامرون بمالهم وحياتهم في كثير من الأحيان. فبدون متاجر هؤلاء الإغريق التي توجد في كثير من المحطات الخارجية، فإن حياة المسئول البريطاني كانت ستكون صعبة للغاية. (أنقلو) كان صديقاً حقيقياً للجميع. أستطيع أن أتصوره الآن – ممتلئ الجسم، مبتهج، قصير القامة يلبس قميصاً رمادياً مخططاً بدون ياقة وحزام يصارع أحياناً دون جدوى لاحتواء بنطلونه. إنني مسرور إذ أفكر أنه عندما تحيط به المشاكل، فهناك الكثير من أصدقائه ممن يقفون بجانبه يساعدونه للوقوف على قدميه مرة أخرى.

لقد عالجت الموضوع ببعض التفصيل فيما يتعلق بالظروف التي على الموظف أن يعيش في ظلها في السودان قبل أربعين سنة، فهي لن تتكرر مرة أخرى وإن تسجيلاً لها قد يكون محل اهتمام لأولئك الذين يجيئون بعدنا. الجمل ليس مريحاً مثل السيارة، والحصان ليس سريعاً كالطائرة، ولكن في تلك الأزمان غير المستعجلة فقد خدمت الغرض بطريقة حسنة. بأية حال أو آخر فإن العمل أنجز والأسس قد وضعت لرفاهية تنمو بسرعة. فالسفر هكذا ببطء في مراكزنا يجعلنا نعرف الناس ويجعلهم يعرفوننا أيضاً. لقد أقمنا علاقات شخصية كانت أكثر إرضاء بكثير من النظام البيروقراطي الذي تنعدم فيه العلاقة الشخصية.

في إحدى السنوات كان عليَّ زيارة قرية (ود ركين) على الدندر، وهو نهر ينحدر من جبال أثيوبيا ليصب في الأزرق، عرضه يختلف. ففي أثناء فصل الأمطار فقد يكون ما بين مائة ومائتي ياردة في العرض. وبعمق من عشرين إلى أربعين قدماً. ولكن في الشتاء يجف ليصبح سلسلة من البرك الكبيرة، حيث تجتمع التماسيح والسمك وأحياناً أفراس النهر إلى أن يأتي الفيضان التالي. جرت محاولات لفتح نهر الدندر للملاحة، ولكن النهر سريع الجريان مع وجود أشجار تتدلى فروعها على الشواطئ جعل من الصعب الملاحة فيه.

وقد ذكر بحارة إحدى البواخر التي حاولت شق طريقها في النهر كثيراً من المواجهات غير السارة مع الأفاعي التي كثيراً ما تسقط على سطح الباخرة من أغصان الأشجار عندما تحتك بها. وفي إحدى المناسبات وجد القبطان (بيج) أن ثعباناً كان يقاسمه الملوينة التي كان يستند إليها.

بدأت الرحلة كالعادة باكراً بعد الظهر بالرغم من الحرارة وهذا ما منح خدمي كل الصباحية ليستعدوا. فأنا أعلم أن الجمال لن تصل قبل العاشرة صباحاً بالرغم من أن المتعهد وعدهم بأنه سوف يصلهم عند شروق الشمس دون تأخير. توجد دائماً هرولة آخر دقيقة إلى السوق من معظم الموظفين لشراء شيء نسوه أو شرب آخر قهوة مع الأصدقاء، وبينما هم بعيدون أنهيت أي عمل في المكتب ثم غيرت ملابسي بملابس السفر.

خرجت لأرى أن كل شيء جاهز، وكان ذلك في الوقت المناسب لمنع الطباخ من ربط شبكة بها دجاج حي ورؤوسه متدلية وبجانبه مقلاة (طوة). مسألة الدجاج الحيّ مصدر نزاع دائم بيني والطباخ. وفي كل مكان أقمنا فيه كان عليّ دائماً مراقبة وجود دجاج حيّ في شبكة، أو مربوط الأرجل وهو معلق ورؤوسه إلى أسفل.

اكتملت الاستعدادات الآن ورأيت القافلة تتحرك، كان تجمعاً مختلطاً، على رأسه رجل شرطة وسيم يركب بغلاً أثيوبياً، بعده جاء الطباخ على جمل ويلبس معطفاً بالرغم من الشمس المحرقة، وكنت قد أعطيته هذا المعطف الذي يعتبره رمزاً لرتبته العالية. كنت مسروراً لرؤيته يلبس جواربه البنفسجية وأربطة الجوارب، بحيث إنه ولمرة لم يخلطها مع مضرب البيض والمصفاة. وتبعتهم مجموعة الخدم والسائس في مجموعة متنوعة من ملابس الكاكي، ثم ولدان صغيران يشتركان باعتزاز في لبس قبعة أهديتها لهما، محمد الناصر بوصفه الأكبر لبس الجزء الرئيسي من القبعة أما أخوه الأصغر فلبس حافتها.

مشى في الخلف اثنان من راكبي الجمال في جلابيب واسعة كانت بيضاء، فيما مضيا وهما يحملان حذائيهما اللذين أعتقد أنهما كانا سيكونان أكثر فائدة في أرجلهما.

المرحلة الأولى من رحلتنا أو »الشّدة« كما كانوا يسمونها كانت قصيرة حتى تعطيني فرصة لمراجعة تامة لمعدات المعسكر قبل أن نكون بعيدين جداً عن مكان إقامتنا حتى نستطيع تكملة النقص. بعد ساعتين غادرت على حصاني مع شرطي راكب يدلني على الطريق وعند الوصول إلى معسكرنا الأول، وعلى الفور، قمت بفحص المعدات. بالتأكيد إن شيئاً مهماً قد تركناه وراءنا: أحذية البعوض. أرسلت الولد المسئول عن الأهمال راجعاً مع شرطي لاحضارها، يبدو أن هذه معاملة قاسية لأن الولد كان عمره فقط اثنتا عشرة سنة، ولكن لم نضطر إلى تكرار ذلك. الخدم في السودان مخلصون ويعملون بجد، لكنهم سريعاً ما يستغلون أي تراخ أو عدم انضباط، والتغاضي عن عدم الاهتمام أو الكسل يقود إلى إزعاجٍ خطير، الولد لم ينس قط درسه. لقد خدمني بإخلاص بصورة جيدة لعدة سنوات وكثيراً ما يشير ضاحكاً إلى الحادثة. إنني مسرور لأعتقد أنه ربما بسبب هذه المعالجة القاسية في صغره تطور إلى خادم ممتاز ويعتمد عليه، وفي النهاية حصل على راتب عالٍ ووظيفة مسئول كبير الخدم في منزل مدير مديرية الخرطوم.

إن السفر في مركز سنار كان ممتعاً سواء فوق التربة الحصوية في أجزاء من داخل المركز أو على طول شواطئ النيل الأزرق أو الدندر أو الرهد. هذه الرحلة بالذات كانت جاذبة بصورة غير عادية، حيث كانت هنالك أنواع كثيرة ومختلفة من الحيوانات والطيور التي يمكن رؤيتها. ففي تلك الأيام كانت ما تزال هنالك أسود ونمور وقرود وغيرها من الحيوانات، والتماسيح كانت كثيرة كما ترى أحياناً أفراس النهر، ومما خلب لبي المرور عرضاً على مئات من

دجاج الوادي الصغير المنقش الريش وهو يجلس على فروع أشجار الصمغ. وقد قضيت العديد من الساعات السعيدة وأنا أرقد دون حراك خلف مرتفع من الأرض بينما أراقب قطيعاً من الحلوف على بعد بضعة ياردات فقط، تحفر في الأرض بأنيابها الكبيرة وتلعب مع صغارها. وبعد قليل من مغادرتي سنار كنت أمشي خلال نباتات متشابكة بالقرب من (ود الحداد) ورأيت دستة من دجاج الوادي تجلس على فرع شجرة. وعندما كنت قريباً جداً منها بحيث إنني كنت أستطيع القضاء عليها بضربة عصا، كانت هنالك خشخشة عند قدمي، ولمحت أصلة ذات لونين أسود وأخضر وهي تزحف بعيداً، وأما الطيور فطارت بعيداً. وكنت استغرب أحياناً إن كانت الطيور قد نوّمت مغناطيسياً من قبل الأصلة.

بعد بضعة أيام كنت منتظراً بعض دجاج الوادي أن ينزل إلى النهر ليشرب عندما سمعت بعض الكحة وصوت كقباع الخنازير في الأشجار ليس بعيداً. حلّ الظلام ولكني كنت أتبين بصعوبة بعض القردة الكبيرة «ربّاح» تقوم بالاستطلاع في المقدمة لترى أن الوضع آمن للمجموعة الرئيسية للإغارة على المحاصيل التي أجلس بالقرب منها. نادوا على بعضهم بعضاً لحوالي عشر دقائق إلى أن أعطى أحدهم الإشارة بأن الوضع آمن، عندئذ أسرع خمسون أو ستون قرداً إلى الوليمة «مساكين المزارعون»، قلت لنفسي «كم من مصاعب يغالبونها: آفات الحشرات، الجراد، الأوز، الغرانيق، عشرات الآلاف من العصفور الدوري والآن القردة الكبيرة (الرباح)! الجميع يأخذ ضريبة عالية على المحصول الذي زرعه الناس بآمال كبيرة، وغالباً ما يفقدون نصف المحصول قبل الحصاد.

عند الوصول إلى (ود ركين) قوبلت من الشيخ بشكوى مُرَّة عن الخراب الذي أحدثته التماسيح. خلال الشهور القليلة الماضية عدة عجائز من النساء

الأرقاء ممن ذهبن لجلب الماء من البركة النهرية قد اختطفتهن التماسيح، ولكن الشيخ لم يكن منزعجاً لأن هذا في غير محل للانزعاج، النساء كن عجائز ومن الأرقاء و لم يعدن يعملن بنشاط كما كن، وهن يكلفن كثيراً في إطعامهن بحيث لا يستحق الاحتفاظ بهن مع هذه الكلفة. وعلى العموم يبدو أنه يعتبر موتهن شيئاً... واسترسل قائلاً: «لكن بالأمس أخذ التمساح إحدى بقراتي، أرجو يا سيدي أن تخلصنا من ابن الشيطان هذا.»

جلست على قمة الشاطئ ومعي بندقيتي يحيط بي جمهور من الناس ينتظرون في صمت تدمير الحيوان. مرت ساعة بعد ساعة وكان لدي متسع من الوقت لمراقبة الحيوانات والطيور التي تزور البركة. الأشجار والشجيرات أعطت غطاء ومكاناً للاستراحة لكثير من الأشياء المتوحشة المفيدة. عقبان السمك الكبيرة ذات الرؤوس البيضاء جاثمة فوق الأغصان العليا لأشجار السنط. ومن الفروع السفلى ينقضّ الطائر غريش (King Fisher) على أسماك لا تراها إلا هذه الطيور. قرود النسناس الصغيرة ذات اللحى البيضاء والطوق الأبيض ثرثرت وتأرجحت من غصن إلى غصن، هذه سرعان ما تشجعت وجاءت عبر الرمل لتشرب، بينما وقف حراس منها منتصبين للتحذير من الخطر، وتبعتهم مجموعة من كبار القرود، وكذلك هم أوقفوا حراساً للمراقبة وبركوا لإطفاء عطشهم مع نظرات حذرة في جميع الاتجاهات. إنه مما يخلب اللب الاستماع إلى التحركات الغامضة في الغابة وتخمين سببها. هل هذه أصلة تزحف إلى حافة الماء، بينما دجاجة وادي تصفق بجانحيها وهي قلقة من اقتراب الأصلة، أو أن أسداً نزل النهر ليشرب؟ أشجار السنط ذات اللحاء الأحمر ألقت بظلال تستطيل في الماء، بينما بدأت الشمس في الغروب، مثل الأشجار ذات العقد في (Wistman's Wood in Dartmoor) تبدو كأنها تنتمي إلى عصر آخر خلاف عصرنا. الهواء مهتز باصطفاق الأجنحة.

اللون الياقوتي الأحمر والأزرق والزمردي لمعت على ريش الحائك وطائر الوروار عندما تطير عبر الماء. وكان منظراً جميلاً، لكنني بدأت أشعر بالعطش هناك في الشمس. و لم يكن هنالك عزاء في ذكريات المشروبات المثلجة التي يتم رشفها باسترخاء من الأكواب الكبيرة.

أخيراً نال الصبر الجائزة، ظهر التمساح على سطح الماء واستطعت تسديد طلقة في القلب، غاص الحيوان واختفى عن الأنظار. على أية حال علمت أنه لا بد أن يكون قد أصيب في الرئتين، لأنه خلال ربع الساعة التالي ظهر للحظات عدة مرات وهو يلهث للهواء عندما يطفو فوق السطح، ثم رقد دون حراك على الجانب البعيد من البِركة. ومرة أخرى أصبح هدفاً، ولكن حتى قبل أن تفرغ خزانة الرصاص سبح عشرون أو ثلاثون من الأهالي مع الصيحات واللعنات وربطوا حبلاً قوياً حول جسم التمساح، حزوا رأسه وأوشكوا على فصله من جسمه، وبدأوا في سحبه من الشاطئ البعيد، لقد سحبوه إلى حوالى خمسين ياردة عندما انتفض بعنف ورمى معظم الناس تحت الماء واختفى بحبله.

لا شك أنه كان تمساحاً كبيراً (أكثر من خمسة عشر قدماً في الطول، أما قوته وحيويته فهي مذهلة). انتظرنا حوالى ساعة إلى أن كادت الشمس أن تغيب. وفي النهاية ظهر التمساح مرة أخرى، هذه المرة كان قد مات بالفعل. قطعنا بطنه وفتحناها ووجدنا بالإضافة إلى كثير من الحصى الذي يبدو ابتلعه لمساعدته في الهضم ثلاثة أختام من الفضة، وذلك من أذرع ورسغ النساء اللائي أمسكهن، وقردا ابتلعه مؤخراً وما زال لم يهضمه.

لديَّ مثال لهذه الحيوية في التماسيح، في السنة السابقة عندما أطلقت النار على تمساح طوله عشرة أقدام بالقرب من سنار، وبما أنه ضرب في العنق ثم أن مرافقيَّ كادوا أن يقطعوا رأسه بالفؤوس والحراب وبالتأكيد أنه بدا ميتاً،

وبرؤية عمل أحذية من جلد بطن التمساح، أخذته على ظهر قارب شراعي صغير ووضعته في قاع القارب وبدأت الإبحار نحو البيت. بعد عشر دقائق ضرب التمساح بذيله القوي في كل الاتجاهات وقذف بالبحارين وشخصي إلى أعلى السارية ومنها بدأنا في طعنه بالحراب إلى أن نجحنا في شل حركته.

في العام التالي عندما رجعت إلى (ود ركين) كان لدي مثال آخر للثقة التي في غير محلها التي يضعها الناس على مكانة الرجل الأبيض، مذكراً لي بمقدمي الأول في سنار عندما تركت لأنام في العراء بالرغم من حقيقة أن هنالك أسوداً في المنطقة. فالأهالي قد أزعجتهم الأسود وطلبوا مني مساعدتهم، سلاحي الوحيد كان بندقية صغيرة عيار ٠،٢٥٦ - MANNLICHER SCHONAUER التي وإن كانت مؤثرة في يد صائد متمرس في صيد الحيوانات الكبيرة، كانت ذات فائدة ضئيلة لهاوٍ مثلي والأكثر احتمالاً أن تثير حفيظة الأسد من أن تقتله. وقلت بأنني أحمل هذه البندقية فقط لاصطياد غزال للحم وأنها ليست كبيرة بما يكفي لقتل أسد. وكان توضيحي هذا مثاراً للضحك والاحتقار. رد الشيخ بقوله «جنابو مو إنجليزي»؟، ورد الشيخ على سؤاله «بالطبع تستطيع قتل أسد بأي نوع من البنادق لديك». وبألم شديد، وضد رغبتي و تقديري، وافقت على أن أفعل ما أستطيع. في اليوم التالي (وعليَّ أن أعترف أنني أبطأت في تناول إفطاري في الصباح آملاً في أن ترحل الأسود إلى منطقة صيد أخرى، وأن تبقى هناك إلى أن أستطيع الحصول على بندقية يمكن الاعتماد عليها أكثر)، قبيل السابعة بقليل تحركت مع أحد الأهالي الذي يساعد في الصيد وهو يحمل حزمة من الحراب. أخذنا طريقنا خلال الأشجار القصيرة التي تحف النهر إلى أن وجدنا آثار الأسد بحوالى ميل من القرية، تبعنا الأثر لساعة، ثم إن مساعد الصيد صاح في استثارة شديدة «أهو.. أنظر!. الأسد يتتبع أريلاً إذا قتله فقد نعثر عليه مصادفة قبل

أن ينتهي من أكله». الأرض هنا أكثر انفتاحاً وهي رملية من السهل التقاط آثار الأريل وآثار الأسد وهو يطارده. ثم ما أزعجني أن مساعد الصيد بدأ يركض ويقول «أسرع وهو يشير إلى الآثار الأعمق لمخالب الأسد»، الأسد يجري خلف الأريل، لكن الأريل أدرك الخطر في الوقت المناسب. ورأينا الأسد يرقد في الأرض الرملية في حالة استسلام أو اشمئزاز مع علامات فرائه تبين بوضوح أنه الحيوان المعتاد الخالي من لبدة الذي يوجد في منطقة الأشجار القصيرة الكثيفة.

بينما كنت أنظر إلى الأرض سمعت طقطقة خلفي، فاستدرت بسرعة معتقداً بأن الصيادين أصبحوا صيداً، وبدلاً من أسد كان هنالك عشرون أو ثلاثون طفلاً – أولاداً وبنات صغاراً ما بين أربع وتسع سنوات من العمر وهم عراة إلا من رحط تلبسه البنات أو نباتات مضفورة تلبسها البنات الأكبر سناً. سألتهم «ماذا تريدون؟» ردوا «نريد أن نرى الأسد»، ثم بدأوا في ترديد ذلك في شكل كورس:

«نشوف الأسد
نشوف الأسد»

لما رفض الأطفال الذهاب إلى بيوتهم، لم يكن هنالك شيء يمكن عمله سوى ترك المطاردة. بالنسبة لمساعد الصيد أبدى امتعاضه بصوت عالٍ، ولكن في سري كان ذلك فرحاً، وخطر لي قول «يبارك الله جميع الأطفال!». بينما اتخذت طريقي بسرعة عائداً إلى القرية التي تركتها بغير رغبة قبل بضعة ساعات.

الباب الخامس

كل شيء
ضمن عمل اليوم



الباب الخامس
كل شيء ضمن عمل اليوم

بعد أن قضى معي فترة سنة نقل (ساندفورد) وحل مكانه (تشارلس ديوبيس) الذي أصبح فيما بعد مديراً لمديرية دارفور. نائب المفتش الجديد كان أكثر شخص ذي طبيعة سعيدة، باسم دائماً ومع أخلاق عظيمة السحر. إن مجرد سماعك له وهو يغني أغنية

«وديكومب فير» "WIDECOMBE FAIR" وأغانٍ أخرى من ذخيرته الواسعة يكاد يكون كفيلاً بإزالة الحمى عن المريض. ظل طبعه المرح لا يتغير خلال جميع تغيرات تلك الأيام الباكرة حتى عندما كنا ننشئ زريبة بسعة في إحدى الليالي وكدت أن أفقأ عينه بشوكة فإن طبع ديوبيس لم يتغير. ولحسن الحظ كان يشاطرني حب الهواء الطلق. أما بالنسبة للأشهر الستة التالية تكاد أن تكون تقريباً في ترحال مستمر نقدر الضرائب ونعالج المشاكل الأخرى.

في مديرية سنار كما في شمال السودان كانت هنالك ثلاث ضرائب رئيسية: العُشر وهي ضريبة الماشية والأرض. والعُشر هو ضريبة تساوي ١٠٪ تجبى عن المحاصيل المطرية. وضريبة الأرض فهي ٥٪ تجبى عن المحاصيل المروية بالساقية والشادوف. وأما ضريبة البقر فهي خمس قروش (شلن) عن كل رأس من البقر وقرش واحد عن كل رأس من الضأن ونصف قرش عن كل شاة. أما الضريبة الأخيرة فإننا لا نطالب بها الأشخاص الأشد فقراً الذين لديهم اثنتان أو ثلاث من الشياه التي يعيشون عليها.

بضعة أيام مضت بعد مغادرة ساندفورد بدأنا أنا وديوبيس في رحلة لإعادة تقييم الضريبة على الزراعة النيلية. وقد أنجزنا ذلك في ظرف شهرين من العمل

الشاق المستمر، وشعرنا أننا استحققنا إجازة قصيرة. عند انتهاء مهمتنا وجدنا أنفسنا – عن تخطيط أكثر من صدفة – في منطقة يوجد فيها كثير من الأسود. فقط أولئك الذين كان عليهم بحث مبلغ الضريبة التي ينبغي أن يدفعها أناس معارضون بقوة لدفع ضرائب من أي نوع كان، يستطيعون تقدير أيّ تغيير سارٍّ يتاح بمواجهة مع أسد مهما كان شرساً! هذا المشروع على أية حال وجب تركه عندما تسلمنا من مدير المديرية برقية جافة «تبدأ البرقية.. قف بلغنا أن طاعون البقر قد تفشى في سوق فحل.. قف أوقفوه.. قف الرسالة انتهت»، لم يكن أي منا يعرف شيئاً مهما كان عن طاعون البقر. سنة تدريبنا في أكسفورد قبل المغادرة إلى السودان تضمنت دورة في اللغة العربية ومسك الحسابات، حساب القيد المزدوج (الدوبيا) والمساحة والاسعافات الأولية. ولكن للأسف أهملت أي دروس عن الطب البيطري. كل ما كنا نستطيع عمله هو محاولة منع المرض من الانتشار. ونأمل أن يصلنا في أقرب لحظة ممكنة موظف بيطري مع بعض الأمصال من الخرطوم لمساعدتنا. معرفتنا محدودة بفكرة غامضة أن طاعون البقر يمكن انتشاره ليس فقط عن طريق الاتصال المباشر بين القطعان المصابة وغير المصابة عندما ترعى أو تشرب معاً، بل حتى الأبقار السليمة وهي تمر فوق أرض مرت عليها أبقار تعاني من المرض.

إن أول واجباتنا لذلك أن نجد أين البهائم المريضة ثم نعزلها. أخبار اعتزام الحكومة فرض حجر صحي سرعان ما انتشر ويبذل الناس قصارى جهدهم لإحباط ذلك. يدفعون بهائمهم بعيداً وذلك ليلاً إذا كنا قريبين من المكان وبالنهار إذا لم تكن هنالك فرصة لاكتشافها ويخفونها في الغابات. وهذا أمر سهل حيث إن المنطقة التي ينتشر فيها الطاعون بها نباتات كثيفة – عشرة أقدام في الارتفاع – وبالرغم من أن البقرة أو الثور يستطيعان دخولها دون كثير عناء، إلا أن الإنسان يجدها تكاد تكون مستحيلة الدخول. وبالإضافة

إلى ذلك على طول أنهار النيل الأزرق والدندر والرهد توجد مناطق كثيرة بها أشجار ونباتات تحت الأشجار كثيفة، حيث يمكن اخفاء أعداد كبيرة من الماشية مع فرصة ضئيلة لاكتشافها. عدد قليل من الشرطة الراكبة والماشية على الأقدام عليها أن تفتش وتضبط مساحة في حجم مقاطعة ويلز. ويوجد في هذا المركز ليس فقط ثلاثمائة أو أربعمائة قرية – كل منها بقطيعها الصغير – لكن أيضاً أعداد كبيرة من الماشية يمتلكها العرب الرحل الذين يسكنون في الفرقان. ويستطيعون أن يرتحلوا بسهولة من منطقة رعي إلى أخرى.

الصعوبات البدنية ازدادت بالثأرات القديمة بين العرب الرحل والمستقرين، رجوعاً إلى الأيام عندما «كان هابيل راعي أغنام ولكن قابيل كان مزارعا». العرب الرحل أطلعونا على شائعات طاعون البقر بين قطعان قرى متعددة على بعد أميال عديدة، وانتقم العرب المستقرون بسرد تفاصيل ساطعة عن العدوى بين ماشية العرب الرحل في بعض المراكز البعيدة. وبحلول الوقت الذي أثبتنا فيه عدم صحة هذه التقارير يكون هنالك قطيع مريض قد طرد من المنطقة لنشر المرض أيضاً يمر ويتم إخفاؤه في مكان مجهول.

كل قطيع من الماشية سواء أكان صحيحاً أم مريضاً يعطى منطقة رعيه الخاصة وموضع سقاية منفصل، وتصدر الأوامر بأن هذه الأماكن هي التي تستعمل فقط. وهذا الحجر الصحي المفترض أن تتم السيطرة عليه بمثل ذلك العدد القليل من الشرطة التي تستطيع جمعها ولكن أوامرنا كان يتم تجاهلها دون أدنى وخز ضمير من قبل الرعاة الذين ينظرون إليها ليس فقط كتدخل جسيم ضد حرية العباد ولكن أيضاً باعتبارها غير مجدية في ذاتها. العرب في السابق لم يفعلوا أي شيء ضد طاعون البقر خلاف حرق الأبقار المريضة. الله هو الذي جاء بالمرض والله هو الذي يزيله. وبالإضافة إلى ذلك فإن تنفيذ تعليمات الحكومة يعني العمل والمضايقة ولا يوجد عربي من الرحل من يحقِّر نفسه

بأن يعمل أكثر من مراقبة البهائم وهي ترعى او النساء وهن يحلبن البهائم.

عندما يتم أخيراً عزل القطيع يتم عمل زريبة كبيرة من الشوك ويجري دفع القطيع إلى داخلها ويتم الإمساك بالماشية واحدة بعد الأخري وطرحها أرضاً وتطعيمها. وهذا الإجراء غير مرغوب من الماشية. وهنالك أعمال كثيرة ألطف من محاولة مراوغة الماشية في مكان صغير محصور بشجيرات شائكة قوية. بعض الماشية المتهيجة التي تعارض بقوة تطعيمها تهرب وهي مرعوبة في جميع الإتجاهات وتدفع أمامها الموظفين والرعاة دون تمييز إلى موضع استراحة غير مريح على الأشواك المحيطة بالمكان.

بمجرد أن يصبح طاعون البقر تحت المراقبة علينا أن نقوم بتقييم ضريبة الماشية التي تتم كل ثلاث سنوات.

دفع هذه الضريبة المتواضعة يعني أن على الشخص إما أن يعمل ليوم أو يومين في السنة ليحصل على المال لدفعها أو أن يبيع واحدة أو أكثر من حيواناته. والناس لا يرغبون في فعل أي من الأمرين. الوضع الاجتماعي للرجل والنفوذ الذي يصحبه يعتمد على حجم قطعانه. أما تخليه عن بعض جمال أو رؤوس من الماشية فقد يقلل من مكانته. والعمل اليدوي مكروه لدى العرب الذين يعتبرونه لائقًا فقط بالعبيد، بينما السودانيون الجنوبيون لا يعملون إلا لساعات تكفي لتمكنهم من قضاء ليلة صاخبة في أقرب قطية مريسة وحتى عرض أجور أعلى لا يحفزهم على العمل، فمطالبهم الحياتية محصورة للغاية. وكلما كانت الأجور أعلى كلما كانت الحاجة أقل للعمل للوفاء بها، فالنتيجة أن الأجور الأعلى تقود إلى إنتاج أقل – وهذا الوضع ليس مقصوراً على السودان قطعاً. صحيح إنه في المناطق الإستوائية حيث الشمس حارة والطبيعة خصبة، فلا يوجد نفس الحافز للعمل كما في البلاد الباردة والأقل خصوبة كشمال أوروبا.

وصحيح أيضاً أن ادخار شيء ليوم ماطر ساعد فقط في الماضي بتسريع طوفان على المتحوط عند ما تنزل حملة جمع الضرائب على أي واحد يكون من الغباء بحيث يدخر شيئاً للمستقبل. إن الحكومة، بذكريات من نظام السخرة الشريرة في مصر، رفضت بحق السماح بأي نوع من العمل القسري، وبما أن الناس لا يرغبون في العمل بطوعهم، فإن التقدم للعديد من السنوات كان بطيئاً لدرجة محبطة.

تقدير الضريبة على المحاصيل المروية بالمطر أو من النهر كانت أمراً سهلاً نسبياً بالمقارنة مع تقدير ضريبة الماشية. المحاصيل موجودة هناك لرؤيتها عندما نذهب لغرض الضريبة، لكن البهائم ليست كذلك. الأبقار والأغنام والجمال والماعز تدفع بعيداً في كل الاتجاهات بمجرد أن يعلم الناس أننا ننوي تعدادها لضريبة الماشية. وقد حذرنا الناس أن أي شخص يقدم تقريراً غير صحيح سيكون معرضاً لعقوبات ثقيلة. وأمهلنا الشيوخ وقتاً لتجميع قوائم صحيحة عن جميع البهائم في قراهم (وهي فرصة قليلون من اغتنموها). ثم إن (ديوبيس) وشخصي غادرنا في إحدي الليالي مع كل شرطي وخفير استطعنا أن نجمعه وقبضنا على جميع الحيوانات المخبأة في مائة ميل مربع في أرض مغطاة بالأشجار القصيرة. تم التعرف على أصحابها وعدد بهائمهم مقارنة بتلك المبينة في قوائم الشيوخ، وكما توقعنا، أقل من نصف البهائم لم يتم تسجيله. وتم إعطاء الشيوخ ثلاثة أيام كفترة سماح يقدمون خلالها قوائم أكثر دقة، وتم إبلاغهم بأن عليهم أن يدفعوا ثلاثة أضعاف الضريبة العادية عن أي حيوان غير مدرج في القائمة. ونتج عن ذلك أن عدة آلاف من الحيوانات قد أضيفت إلى القوائم الأصلية. وتم تنظيم غارة ثانية. في طريقنا إلى هذا التعداد الثاني قابلنا شخص محترم جداً ويبدو عليه سيماء الصلاح، وقال لنا: إذا نظرتم إلى قائمة شيخي فينبغي أن تجدوا أن الشيخ قد سجلني كمالك

لعنزتين أدفع عنهما ضريبة تعادل ٢,٥ قرشاً، ولكن - أضاف - عندما أعطيت إقراري لشيخي فقد نسيت تماماً أن لدي أيضاً خمسة وسبعون من البقر المستحق عنها ضريبة تبلغ ثلاثة جنيهات وخمسة وسبعون قرشاً. وقد بدا لنا كشخص عزيز برئ كبير السن، وقد خلق لنا جواً من المرح بأقواله الساذجة لدرجة أننا أصبحنا متسامحين ومتساهلين إلى حد قبول توضيحاته.

أما مع الآخرين فلم نكن متسامحين إلى هذا الحد، وكثير من الناس منعوا عن محاولاتهم الوقحة للاحتيال على الحكومة، يبدو أن جمع الماشية للضريبة كان شاملاً، بحيث إننا في اليوم الخامس عندما وصلنا أخيراً إلى قرية حيث سيجري تعداد آخر، وجدنا تاجراً من العرب في غاية الغضب وكان في طريقه إلى الخرطوم على ظهر حمار، ويقول: «هذه هي المرة الثالثة التي يتم فيها إيقافي منذ أن غادرت سنار قبل خمسة أيام. كل مرة يقابلني فيها شرطي أريه إيصال ضريبتي، ولكن كلهم يقول إنه لا يقرأ ولا يكتب وإنه لن يقبل إيصالي. هذا وما زالت هنالك مسافة مائة وخمسين ميلاً إلى الخرطوم، ولكنني سأبذل قصارى جهدي لأصلها الليلة قبل أن يتم إيقافي مرة أخرى.»

السفر ليلاً خلال هذه الرحلة لتقدير ضريبة الماشية قد أعطانا أكثر رؤية رائعة للمذنب هالي. فمن الرسومات التي رأيتها يبدو أن المذنب جاذب ولكنه ضئيل نوعاً ما، ولكن مذنب هالي في أفضل حالات تمدده في سماوات السودان الصافية من منتصف السماء إلى حوالى الأفق - شعاع من الضوء الساطع، وقد حزنت أنني لن أتمكن من رؤيته مرة أخرى.

وفي الحقيقة أن ظهور المذنب أنهى التحقق من ضريبة الماشية قبل أوانها، حيث إن عرب التعايشة وغيرهم ممن كانوا في منطقة سنجة المجاروة اعتبروا أن ظهور المذنب علامة على زوال الحكومة، وبدأوا يعدون للإسراع بزوالها. وكانوا واضحين تماماً في ما يعتزمون فعله. فعندما يرسل عميل إلى إحدى

قراهم بدعوى أنه يريد سن معزوقته للزراعة يقول له الناس «إننا لا نستطيع الانشغال بالمعازق هذه الأيام، إننا مشغولون بصنع الحراب لمهاجمة الحكومة بمجرد أن نتجهز»، حتى إنهم ألّفوا أغنية صغيرة يترنمون بها في كل المناسبات تقول:

في عيد الضحية
تشوف أشيا

ديوبيس وشخصي تم استدعاؤنا وأبلغنا بأن نكون على أهبة الاستعداد بينما أرسل طلب عاجل للمساعدة إلى حامية القضارف. وبالرغم من أن الفيضان بدأ ينخفض في نهري الرهد والدندر وقطعت القوات مسافة مائة وثمانمائة وعشرين ميلاً في اثنين وسبعين ساعة وأخفق الهجوم على سنجة. كان زحفاً رائعاً على أرض وعرة وتحت ظروف طقس سيّء للغاية.

بالكاد مرت هذه الإثارة الصغيرة عندما أصبح الفلاتة والذين يسكنون في مستوطنة كبيرة تحت شيخهم مايرنو بالقرب من سنار في حالة هياج. والفلاتة هم حقيقة هوسا من شمال نيجيريا يقومون بالحج إلى مكة، ولكنهم معروفون في السودان باسم الفلاتة، وهم أناس متعصبون دينياً، فبدلاً من أن يكونوا شاكرين لحكومة السودان للحماية التي وفرتها لهم والمساعدة التي قدمتها لهم في طريقهم إلى مكة كانوا أحياناً يشكلون تهديداً خطيراً لنا. مرتان أثناء خبرتي قاموا بهجمات جادة على مراكز حكومية - مرة على كسلا في الشرق ومرة على نيالا في غرب السودان.

عندما عدنا أنا (وديوبيس) إلى سنار ذهبنا إلى استراحة الري المصري وهو مبنى أنيق به برندة عريضة على حافة النيل الأزرق. وكان ابن خال (ديوبيس) مديراً للري في السودان، وكان طيباً لدرجة أن دعانا للنزول في الإستراحة

مما أثار غضب السلطات في الخرطوم التي تساءلت بقولها: «من هما نائبا المفتش الشابين اللذين يرفضان العيش في المنزل الذي أعدته لهما حكومة السودان؟» إذا كانوا رأوا المنزل الذي عشنا فيه من قبل لما كانت هناك حاجة إلى هذا التساؤل.

بالنظر إلى حقيقة أنه يقع هجوم في أية لحظة: قررنا أنا (وديوبيس) بعد مناقشة طويلة أن نحمل معنا مسدسات إلى غرف النوم. وضعت مسدسي تحت المخدة، وصحوت من نوم عميق على اعتقاد أن شخصاً قد غرز حربة في ظهري. وفي الحقيقة أن ذلك كان مجرد أن مسدسي انزلق من مكان تثبيته إلى منتصف السرير. وضعته جانباً بعناية وأقسمت ألا أتعامل مرة أخرى مع سلاح متهور للغاية (وهو قسم حافظت عليه طيلة خدمتي في السودان) وعدت مرة أخرى للنوم. وبعد فترة قصيرة أيقظني صوت ارتطام وصوت شخص يكيل اللعنات. (ديوبيس) انزعج كما حدث لي وقذف بمسدسه على سقف البرندة.

ولكيلا نسبب ذعراً غير لائق أنا (وديوبيس) احتفظنا بأنباء الإضطرابات سراً. وكان علينا أن نحذر المأمور، ولكن أعطيته أوامر مشددة بأن يعمل كأنما كل شيء عادي، وأبلغته ألا يفعل شيئاً خلاف إرسال عدد قليل من الرجال الذين يعتمد عليهم إلى مرسى المعديات للإبلاغ عن أي غرباء مسلحين يعبرون بأعداد كبيرة غير معتادة.

قبل الصبح بوقت طويل في اليوم التالي لإصدار تلك الأوامر صحونا على وقع أقدام رجال ينشدون صيحة الحرب الخاصة بهم:

لا إله إلا الله
محمد رسول الله

ثم، ولرفع همتنا، رأينا المأمور على رأس كل الشرطة الذين استطاع أن يجمعهم وكلهم مسلحون تماماً ويهتفون تحدياً لأعداء الحكومة.

بعد يومين وصلت تعزيزات من الخرطوم كتيبة من قوات سودانية مع مدافع ميدان ورشاشات مما جعل الفلاتة يهدأون. ولم نعرف ما هي مظلمتهم. أقصى ما استطعنا تخمينه هو أنها إحدى تلك الانفجارات الدورية للتطرف الديني التي علينا دائماً أخذ الحيطة ضدها.

واستقبل أهل سنار وصول القوات بحماس عظيم. وذهبت لرفع تقريري إلى الضابط القائد للقوة. وقبل أن أقول أي شيء سألني عن وضع القرية المعادية والمنطقة المحيطة وعدد الثوار. وبمجرد أن أتيحت لي الفرصة للكلام، أخبرته بأن الناس استسلموا وأنه لن يكون هنالك قتال.» ماذا؟» صاح متعجباً باشمئزاز «ليس هناك قتال!» لابد لي من أخذ سجناء لإعادة كتيبتي إلى قوتها. كيف برب السماء الحصول عليهم إذا عطل القتال؟» بعد بضعة أيام جاء إلى سنار مدير المديرية الكابتن (نكرسون)، جزئياً للحصول على معلومات مباشرة عن الأحداث الأخيرة وجزئياً لطمأنة مستوطنة من الجنود السودانيين الاحتياطيين الذين يعيشون في قرية تابعة لهم غير بعيد في سنار. بعد معركة أم درمان العديد من العساكر في الكتائب السودانية الذين انتهت فترة تجنيدهم أطلق سراحهم من الخدمة وأسكنوا في قرى خاصة مع ضباط الصف كشيوخ لتلك القرى. وقد وعدوهم بأنه إذا وقعت أي اضطرابات محلية فسوف يستدعونهم لمساعدة الحكومة. ولتفادي التعجيل بهجوم من الفلاتة قبل وصول التعزيزات لم نستدع هؤلاء المسرحين. بالطبع إنهم سمعوا عن شائعات غامضة تتعلق باضطرابات وشيكة وأصابهم القلق لعدم استدعائهم للخدمة. (نكرسون) وشخصي ذهبنا إليهم لنشرح لهم أنهم لم يكونوا منسيين، وأن الحكومة مازالت تعتمد عليهم وعلى خدماتهم

المخلصة، وأنه عندما يحين الوقت فإننا سوف نستدعيهم للمساعدة. وبهذا الوعد أصبحوا مقتنعين واستقبلونا كالعادة استقبالاً حاراً.

تم إعطاء كل هؤلاء الجنود المسرحين عدة أفدنة من الأراضي المطرية أو أراضي المرعى وفدان واحد على شاطئ النيل وبذور خضروات لزراعتها في التربة الخصبة التي ينحسر عنها الفيضان. كما أمدتهم الحكومة بكميات كافية من الذرة إلى وقت الحصاد التالي. ولولا أنهم يحولون كثيراً من الذرة إلى شراب المريسة للسُكر لكانت الكميات التي يتسلمونها أكثر من كافية. كانت مجموعة سعيدة مبتهجة موالية بقوة للحكومة وحريصة دائماً للخروج في عرض عسكري لتحية أي زائر مهم، وللقيام بأعمال غريبة مثل قطع الحطب الذي يعتبر غير مناسب للعرب. في البداية لم يرتاحوا لفوائد الحياة الحرة غير المقيدة بعد سنوات عديدة من انضباط الجيش الصارم وكانوا ميّالين للرجوع لحياة المدن. وطالما ظلت الأمطار جيدة ومحاصيلهم يمكن حصادها بسهولة، يزرع هؤلاء الجنود الاحتياطيون ويحصدون ما يكفي لسد احتياجاتهم المتواضعة. لكن على أي حال إذا شحت الأمطار وكان عليهم ري محاصيلهم بواسطة الشادوف، فإن العمل يكون شاقاً بالنسبة إليهم، لذلك يتركون هذا العمل ويتركون مزارعهم لتموت.

هؤلاء السودانيون محاربون ممتازون وهم فخورون بقادتهم من الضباط البريطانيين، كما أن الضباط فخورون بقيادة مثل هؤلاء الشجعان المخلصين في المعارك. فكل واحد منهم يشعر بالانتماء الشخصي لقائده السابق. إذا سمعت أحدهم يحكي بإيماءات وإشارات طائشة وثروة في التمثيل الحي في وصف المعارك التي اشترك فيها يعطي انطباعاً بأنه وحده كسب الاشتباك وهزم العدو بمفرده. قاتل السودانيون لمجرد حب القتال، ولكن كانت لهم عداوات قديمة في مواجهاتهم مع الدراويش لأن العرب هم الذين أخذوهم

في الأسر واستعبدوا زوجاتهم وأطفالهم. بينما بحثت معهم الأيام الغابرة والمعارك القديمة اتقدت أعينهم بحيوية وعادوا إلى أيام الشباب. وفي بعض الأماكن يحصلون على دورات تجديدية خفيفة في التدريب العسكري وحتى شعورهم بالسرور لاستخدام بنادقهم مرة أخرى، ولو أن المنطقة يجب إخلاؤها في جميع الاتجاهات قبل السماح لهم باطلاق النار.

في إحدى المناسبات كان الاحتياطيون القدامى يطلقون النار ولبعض الوقت في (منقلا)، وكان هنالك كلب يرقد فوق ساتر ترابي، وبعد أن أصبح في حالة من القلق والاضطراب بسبب الرصاصات التي تمر فوق رأسه، رأى أن الوقت حان للبحث عن مكان يرتاح فيه ويكون أكثر أمناً. تحرك بحذر نازلاً من الساتر الترابي واتخذ موقعاً آمناً أمام «الدروة»، حيث قام بهدوء إلى أن انتهى تمرين السلاح.

سنار من أكثر المحطات غير الصحية في السودان، وعندما كانت هناك حامية تركية مصرية في سنة ١٨٠٢ كان هنالك ليس أقل من ٢٤٠٠ مريض من مجموع قوة عسكرية من ٣٠٠٠ عسكري في نفس الوقت.

في أيام سلالة الفونج كان الناس أكثر حكمة منا وكثيرون منهم ارتحلوا إلى مكان يسمى «عيرة» Aira وهي على بعد بضعة أميال إلى الداخل وبنيت على تربة من الحصى حيث يوجد قليل من البعوض. أتذكر مرة عندما كنت مريضاً بالملاريا وذهبت إلى المكتب، فلم أجد شخصاً واحداً هناك باستثناء شرطي واحد يرتجف من الملاريا، بينما يجلس أمام خزينة مكلف بحراستها. وبمجرد أن بدأ هطول الأمطار وبدأ البعوض في التوالد بسرعة أكبر ، لم ير الموظفون التابعون لي إلا توقع شهور من الملاريا مستقبلاً، ويبدو أنهم يئسوا من جميع الآمال. حاولنا أن نعمل ما نستطيعه للمحافظة على صحتهم بصرف دواء الكينيا بصورة دورية وللمحافظة على الروح المعنوية بإدخال

لعبة كرة القدم التي أصبحت رياضة محبوبة لدى معظم السكان ولبضعة ساعات كل أسبوع أصبحت أفكار السكان لا تنصرف إلى الملاريا وما سوف تجلبه في أعقابها.

خلال معظم موسم الأمطار، فإن المنطقة حول سنار مشبعة بالمياه لدرجة أن السفر مستحيل، وأن الناس يكونون مشغولين للغاية بمزروعاتهم مما يمنعهم من الحضور إلى المكتب والعمل القليل الموجود يمكن تركه بأمان للمأمور، حيث إنني كنت أستطيع قضاء جزء كبير من فترة الأمطار في سنجة (رئاسة مديرية سنار)، حيث قابلت اثنين أو ثلاثة إنجليز آخرين. وحتى هنا فإن البعوض كان سيئاً وبالرغم من أن شبابيك النملية كانت مغطاة بقماش الناموسيات، وأنا أيضاً أنام تحت ناموسية في الغرفة. ولهذا الاحتياط الإضافي وبسبب أنني كنت دائماً عميق النوم، فإنني لا أستطيع أن أكون شاكراً بما يكفي، واستيقظت في إحدى الليالي على ضوضاء في غرفتي، وتساءلت إن كان ذلك بسبب لص أو قاتل أو حيوان بري أو أي شيء آخر يمكن أن يكون. كانت الليلة مظلمة للغاية و لم أستطع رؤية أي شيء، ولكنني أستطيع سماع بعض التحركات المختلسة في غرفتي. أدركت وأنا نعسان أنه لن يكون أمراً سهلاً أن أرفع ستار ناموسيتي وأندفع من خلال شباك النملية، فعدت إلى النوم مرة أخرى. صوت تكسير أكواب وأطباق الصيني في الصباح الباكر أيقظني إلى حقيقة أن أدوات شاي الصباح ضاعت مرة أخرى. وهذا حدث كثير الوقوع من خادم يصر على وضع أحذيتي لركوب الخيل والملابس على صينية صغيرة مخصصة لحمل أدوات الشاي فقط. وهذه المرة هناك بعض العذر للمصيبة. كان الخادم يدفع باباً عليه جوخ أخضر وهو باب يتحرك إلى الداخل فقط. وفي أثناء دخوله واجهه ضبع مندفع للخروج إلى عرينه بالقرب من النيل. آثار أقدام الحيوانات حول الغرفة المغبرة تدل على أن الحيوان قضى ليلة أكثر قلقاً مني.

أعتقد أن الوقت الوحيد الذي ذهبت فيه في نزهة مع فيل كان في سنجة في

١٩١٠. وكانت إحدى ملاهي المكان حديقة حيوان صغيرة، وفي الحقيقة هي مجرد نقطة تجميع للحيوانات المراد بها تزويد حدائق حيوان الخرطوم والقاهرة. ومعظم الحيوانات لذلك لا تبقى طويلاً في حدائق سنجة. وفي الحقيقة إنها لا تبقى دائماً في سنجة بالمرة. الفيل كان صغيراً وألوفاً، يحب المشي في الشوارع وكثيراً ما يدخل خرطومه في جيوبنا على أمل أن يجد حلوى أو سكراً. كان رفيقه جاموس صغير وكان ينتظر أيضاً إرساله إلى القاهرة. كان عجلاً فقط لا يزيد طوله على ثلاثة أقدام، ولكن له قوة لا تتناسب مع حجمه. لما حان الوقت لمغادرته، رفض الجاموس الصغير المحاولات ليصعد على الباخرة إلى أن تم قيادة عجلة إلى ظهر الباخرة عندئذ وافق على أن يصعد على السلم الضيق. وقد سبب ذلك ضيقاً للفيل الصغير الذي ترك وراءهم.

تعودت على الاستمتاع بالذهاب إلى حديقة الحيوان بسنجة، فقط حُفظت قليل من الحيوانات الخطرة في أقفاص. أما الأخرى فتجري طليقة في حوش كبير وتأتي لترحب بالزائر الذي يأتي أحياناً ومعه بعض الملح أو قطعة سكر أو قطعة خبز. يحب بقر الوحش والغزال مسح أنوفها المخملية برفق ودغدغة خلف آذانها ولديها مساحة تلعب فيها، ويبدو أنها سعيدة في حياتها. وبالرغم من ذلك آمل ألا يكون اليوم بعيداً حين يعتبر فيه وضع الحيوانات والطيور في أقفاص غير قانوني ولا يسمح بإقامة حديقة حيوان أصغر من حديقة وبسنيد . (Whipsnade)

كانت الحياة في مديرية سنار مليئة بما يثير الاهتمام، وقد أسفت لاضطراري لمغادرة سنار وذهابي إلى الشمال منقولاً إلى أم درمان بسبب هجمات الملاريا المستمرة.



الباب السادس

أم درمـــــــان



الباب السادس
أم درمان

بالرغم من أن رحلة لبضعة دقائق بالمعدية تفصل بين أم درمان والخرطوم، إلا أن قروناً من الزمن تفصل بين المدينتين. أم درمان أفريقية كما أن الخرطوم أوربية. شاطئ النهر شديد الانحدار في الخرطوم تتوجه فلل وحدائق غناء يقابله في أم درمان شاطئ صخري منحدر عليه أكوام من الصمغ والذرة والجلود وجميع التجارة الرائجة والمجتمع المزدهر. خضرة الخرطوم تقابلها بصورة صارخة انعدام الأشجار والشوارع الرملية وحيشان أم درمان المقفرة. استقامة شوارع الخرطوم العريضة والمخططة بعناية تشكل مشهداً مختلفاً جداً عن متاهة الأزقة الصغيرة والطرق الفرعية التي يبدو أنها تبدأ من لا مكان وتؤدي إلى لا مكان.

في أم درمان بدلاً من الدكاكين الواسعة التي يملكها تجار أوربيون في الخرطوم، هنالك الأكشاك والدكاكين المشيدة بالطين كسوق أفريقية مضاءة بفوانيس الغاز والشموع.

عدم التشابه عظيم بين مظهر المدينتين ويلاحظ التباين الأكثر وضوحاً في نوع الناس الذين عاشوا فيهما. هنالك بالطبع سودانيون في الخرطوم كما أن هنالك أوربيون في أم درمان، ولكن إذا بدا الأفريقي غير المتمدن في غير مكانه نوعاً ما في المدينة الأوربية التي شيِّدت حديثاً، فإن المسئول البريطاني في زيه الرسمي والكاتب المصري الذي يلبس طربوشاً على رأسه يبدوان أكثر غرابة في سوق أم درمان.

لا يوجد في أي مكان، باستثناء ربما مكة، عدد كبير جداً من أعراق مختلفة

متجمعة في مكان صغير كما في أم درمان. هنود وأرمن وأتراك واغريق وسوريون وإيرانيون وغرباء من الشرق الأوسط وأوربيون من أقطار عديدة وفلاتة وغيرهم من الحجاج من ساحل أفريقيا الغربية وهدندوة وعرب ونيليون وزنوج وبرابرة وجميع الأعراق المختلطة ورجال القبائل الذين يؤلفون السودان الحديث يمكن رؤيتهم في الشوارع المكتظة.

الرحلة من الخرطوم إلى أم درمان هي أكثر من رحلة عبر ميل من الماء إلى أماكن مختلفة وأناس مختلفين. إنها رحلة أخذتنا إلى الوراء إلى نوع من حياة أسلافنا الذين سكنوا في مدينة لندن في القرن الرابع عشر. كانت هنالك نفس الأزقة الضيقة المتعرجة التي أشار إليها «بندريل» **Pendrill** في كتابه «حياة لندن في القرن الرابع عشر»، وكانت هنالك نفس الأسواق المفتوحة للحم والسمك والذرة الشامية وغيرها من ضرورات الحياة حيث إن جودة الطعام المعروض للبيع يمكن فحصها. هذه مع تسمياتها الخاصة مثل سوق الذرة، سوق السماكين، سوق الجزارين مما يعيد إلى الذاكرة كتاب كورنهل «شارع السمك القديم وسنت نيكولاس تشامبلز».

وبالنسبة لسوق الصاغة وسوق الحدادين أو سوق الفلاتة الذين يصنعون الأحذية وغيرها من السلع الجلدية، لدينا ما يوازي ذلك في سلفر ستريت وايونمو نقرز لين وكوردوينر ستريت.

كل حرفة تقوم بأعمال في أجزاء من المدينة منفصلة، مع المشاحنات العديدة التي تؤدي، كما فعلت قبل ستة قرون في لندن، إلى قتال بالسيوف والسكاكين والعصي وغيرها من الأسلحة المختلفة.

ولا يقف التشابه عند هذا الحد. في كثير من الأوقات خلال خدمتي في أم درمان لمدة سنتين، طُلب مني كثيراً، من بعض النساء العجائز ممن وجدن من

الصعب كسب عيشهن، السماح بوضع مظلة صغيرة لحماية خضرواتهن من الشمس. مثل هذا الطلب الطبيعي يتم منحه دائماً، وعند زيارة متجرها بعد بضعة أيام وجدت مظلة من الخيش الممزق مربوطاً في أعلى دكانها ومثبتة بدوبارة في وتد في الأرض. وتكشف زيارة لاحقة أن الدوبارة استبدلت بقنا أو أعواد خشبية، ولكن صاحب الدكان سعيد جداً في الوقاية التي وفرتها له مظلتها ضد الشمس بحيث يبدو التدخل فظاظة، بالرغم من أنني أدركت أن هذا ليس إلا بداية لبرنامج أكثر طموحاً. تمضي شهور وخلال ذلك توضع بضعة كنبات متحركة خارج الدكان. وتقول المرأة: «زبائني من أماكن بعيدة ويكونون متعبين عندما يصلون، بالتأكيد أن سعادتكم لا يمانع إذا استراحوا لبرهة وأعطوني فرصة لأبيع لهم شيئاً؟ «.

مرة أخرى لم ألحظ، بالرغم من أنني أعلم أنه إذا لم أراقب الدكان باستمرار، فإن الكنبات المتحركة سوف تستبدل بمقاعد من الطين تسد ممر المشاة مثلما يحدث حقيقة. استمع إلى بندريل **Pendrill** «من القرن الثالث عشر إلى السادس عشر كثير من الطرق تم التعدي عليها بعملية أصلها نابع من عادة التجار بعدم قناعتهم بالعرض الذي يعملونه داخل دكاكينهم بتشييد أكشاك في الشوارع خارج الدكاكين. السلطات في قاعة الحرفيين (**Guildhall**) احتفظت بالحق في إزالتها في أي وقت. عندما تصبح إدارة المدينة متراخية جداً لفترات طويلة كما حدث أحياناً، فإن الأكشاك تصبح منشآت ثابتة مبنية من الخشب، وفي وقت لاحق ومع عدم انتباه السلطات لذلك يعاد بناؤها بالطوب وتصبح مصلحة مكتسبة.

كثيراً ما كنت أتمشى بجانب النيل وأشاهد رجالاً ينزلون شحنات الحبوب والصمغ والخشب من عشرات السفن الشراعية الراسية على الشاطئ، وهنا أيضاً مئات من النساء عاريات إلى الخصر يطرقن أو يضربن بالحجارة الملابس

التي يغسلنها إلى أن يبدو ألا شيء سوف يبقى بعد هجومهن على الملابس أو يبقى شيء منها يشبه ما كانت عليه. ثم توضع الملابس على الأرض لتجف - بيضاء كالثلج عندما تسطع الشمس عليها أو تتحول إلى اللون الرمادي عندما تلقي عليها سحابة مارة ظلها.

هنالك جبال من الصمغ يجري تصنيفها وترتيبها في درجات. والسمَّاكون مشغولون بإصلاح شباكهم. النساء والبنات في صف لا ينتهي وهن يحملن جرارهن الخزفية إلى حافة النهر ويملأنها، وبعد مناقشات وثرثرة يبدأن العودة إلى بيوتهن.

وعلى بعد بضعة ياردات هنالك سوق الغلال. وهنالك جبال بارتفاع ستة أقدام من الذرة الصفراء التي يرفع فيها البائعون مكاييلهم الخشبية المستديرة التي تكون أوسع قليلاً في قاعدتها، بينما ينظر المشتري بعين الريبة للتأكد من أنه تلقى كيلاً وافياً مضغوطاً إلى أسفل ومهزوزاً إلى أن يتدفق الجزء الزائد. أحد التجار يزيل الحبوب الزائدة إلى أن تصبح في مستوى واحد مع حافة المكيال، بينما يحثه المشتري ويتوسل إليه بالله والرسول ليكون أكثر كرماً. وآخر ترك كوزاً صغيراً من الذرة فوق حافة المكيال وأصغى بسرور إلى دعوات الزبون وهو يفرغ الحبوب في الجوال.

والأكثر جاذبية هو السوق الرئيسي حيث وراء أنواع السلع جلس البائع القرفصاء وألح على المارة أن يكونوا زبائن له:

«انظر يا عمي» صاح أحدهم «إلى هذه القطعة الرائعة من ناب الفيل المنحوت! في أي مكان آخر ستجد مثل هذه التحفة من المنحوتات أو مثل هذه الحرفية الحاذقة؟».

«اصبر يا أخ» صاح جاره الملاصق «اتفضل. انظر فقط إلى الكركدي الممتاز

وإلى البامية اللذيذة. تذوق جودة سلعي. لن تجد مثل جودتها في جميع العالم».

يقيناً كانت هنالك أنواع كثيرة للاختيار ومنها: خضروات مزروعة محلياً، سياط مصنوعة من جلد فرس النهر، أسورة للمعصم من شعر ذيل الزراف التي يعتقد أنها تجلب الحظ، وسلال وصحون من نباتات منسوجة وملونة وأكوام من التوابل الشرقية التي ملأت الجو بعطرها، وأطباق من السعف الملون لتغطية أطباق الطعام أو القهوة لتظل دافئة.

يتدلى من سقف الدكان المبني من الطين أحجبة وهي آيات من القرآن مغلفة بالجلد وتمائم وهي خرز يلبس في العنق. دروع مصنوعة ببراعة من جلود الجاموس أو الزراف، وحزم من ريش البلشون الأبيض إلى أن منعت الحكومة بيعه. جميع ذلك في تباين ملحوظ مع سلع مزيفة لامعة من بيرمنجهام وطوكيو.

أحياناً أواصل السير إلى معدية أبو روف، حيث هنالك مركب تجارية صغيرة تحمل الركاب إلى الشاطئ الشرقي، ومن هناك ينقل الركاب قطار بخاري صغير مزعج بين الخرطوم بحري والخرطوم. أبو روف كان موطن صانعي السفن الذين يعملون في بناء سفنهم دون مخطط تصميمي فقط خبرة القرون وعين الحرفي مكنتهم لتشكيل مركب يستطيع حمل شراع اللاتين الكبير دون الانقلاب وإلقاء الركاب والبضائع التي تكون مثل هذه السفن محملة بها دائماً إلى حافة المركب. كيف استطاعوا بأدواتهم البدائية تشكيل خشب السنط الصلب لغايتهم أو دق مسمار بطول ست بوصات في الهيكل هذا ما لم أفهمه. أرجو لهم حظاً سعيداً مع الدعاء إلى الله أن يأتي فيضان عالٍ بحيث يستطيعون تدشين مراكبهم بدون متاعب التزليج الإضافية.

أصل الكلمة «أم درمان» غير معروف، لكن حسب إحدى الروايات فقد سُميت على جبلين صغيرين (دورمين) في المنطقة، وكانت القرية قد عرفت باسم أم درمان. إنني أشك في هذا التوضيح. وأفضل الرواية السائدة منذ خمسين سنة بأن المكان قد سُمي على أم رجل يُسمى درمان الذي جاء من الغرب قبل سنوات عديدة، وقد اشتهر بأنه كوَّن ثروة، وأن أمه امرأة صاحبة مشروعات عظيمة، وأنها بدأت في خدمات معدية بين أم درمان وجزيرة توتي ومستوطنات الحلفايا وما عرف فيما بعد بالخرطوم.

فالزوار إلى هذه الأماكن كثيرون في وقت كانت فيه المواصلات ضعيفة، وكانوا إذا سُئلوا كيف عبروا النهر يجيبون بأنهم جاءوا بواسطة أم درمان (والدة درمان).

قبل المهدية كانت أم درمان قرية صغيرة غير ذات أهمية، ولكنها فجأة ازدادت في أيام الخليفة إلى أن امتدت على طول النيل لمسافة ثمانية أميال واحتوت مكاناً من أربعمائة ألف شخص. وعندما حُطمت قوة الخليفة في معركة أم درمان انخفض عدد السكان فوراً. وأما رجال الجيش المحلول فقد تفرقوا إلى ديارهم في جميع أنحاء السودان. وأما المدنيون الذين أحضروا إلى أم درمان بأوامر الخليفة رجعوا إلى قراهم شاكرين. وكثيرون آخرون فروا خوفاً عندما اقتربت قوات كتشنر. وأخيراً بقي فقط خمسون ألفاً من الحشود الضخمة التي عاشت في عاصمة المهدي.

شكلت الحالة الفوضوية للمدينة التي أفرغت من معظم سكانها مشكلة ضخمة للحكومة الجديدة. إعادة البناء والتوسع السريع في السنوات الثلاثة عشر الماضية كانت عشوائية وغير منضبطة تماماً. فكل واصل جديد قام ببساطة بحيازة أي أرض فضاء وجدها وحفر حفرة وصب فيها الماء، فالطين المخلوط بالزبالة هو كل ما يحتاجه لبناء بيته. وفي كل سنة يجري عزل بيوت

الطين في أم درمان والخرطوم بالزبالة من تأثير الأمطار، وتكون رائحة الزبالة الكريهة تذكيراً لنا بأن الأمطار اقتربت.

آلاف من أكواخ الطين غير المرتبة تبنى هكذا على عجل. فكل شيء يحمي من حرارة الشمس ويدفئ ليالي الشتاء كان كافياً في أيام الشدة تلك. لا يوجد هواء مطهّر يمكن أن يدخل هذه المساكن الملتصقة ببعضها ونوافذها الوحيدة فتحتان صغيرتان في أعلى الحيطان مما جعلها تصبح بسرعة أماكن توالد للأمراض. حفرت حفر كثيرة في الطرق وكلما تقدم الزمن واستخدمت بعدد من البنائين كبر حجمها، وأصبحت المدينة أكبر بقليل من مزبلة، واستعملت هذه الحفر مكبات زبالة مفتوحة حيث يتوالد الذباب بالملايين.

مثل هذه الأوضاع غير الصحية خطر عظيم على الصحة، بينما الأزقة الضيقة المتعرجة ليست فقط غير مريحة كطرق، ولكن جعلت من الصعب المحافظة على القانون والنظام. الطرق القليلة التي لها أي عرض هي التي شقها الخليفة لتمكينه من قيادة قواته وأتباعه حول المدينة، وقد عملت هذه الطرق بوسيلة بسيطة وهي أمر أتباعه بهدم أي بيوت أو أكواخ تعترض طريقه. في متاهة الأزقة الضيقة في بقية أم درمان يكاد يكون من المستحيل اعتقال أي مجرم، إذ يستطيع مراوغة الشرطة حول الأركان التي لا تحصى أو الاختباء في واحد من المباني المهجورة.

من ضمن هؤلاء المجرمين الذين سببوا لنا كثيراً من المتاعب كانت إمرأة تسمى فاطمة – المرأة المجرمة المحترفة الوحيدة التي وجدتها في السودان – يندر أن تساق النساء إلى المحاكم وأولئك اللائي يظهرن عادة سودانيات من الجنوب ويتهمن بجرائم صغيرة مثل عمل (المريسة) بدون تصديق أو الاشتراك في بعض المشاجرات النسوية أو أحياناً بجرائم أكثر خطورة كتقطير (العرقي). فاطمة كانت لصة وهي من الرقيق المحرر، وهي قوية البنية ورياضية. ليلة

بعد أخرى تكسر بيوتاً مختلفة. تخلع ملابسها وتغطي جسدها بالدهن لتجعل الإمساك بها مستحيلاً. وأخيراً تم القبض عليها لأنه في إحدى الليالي عندما حاصرها بعض الناس في حوش قفزت فوق حائط عالٍ للغاية «تلك لا بد أنها فاطمة! صاح كل واحد، ولكن بدلاً من ملاحقتها أسرع الجمهور إلى منزلها في الحال، حيث اختبأوا وألقوا عليها القبض عندما عادت بالمسروقات.

لقد أدركنا منذ زمن طويل ضرورة إعادة بناء أم درمان وتم تأجيل العمل فقط بسبب عدم وجود التمويل. وحتى عام ١٩٠٩ حين نفذت البداية و لم نفكر كثيراً عندما بدأنا ذلك. فبجانب مرتبات بضعة مهندسين لقياس الأرض وعمال الجنزير، فإن جميع أعمال إعادة البناء لا تكلف الحكومة قرشاً واحداً. قبل كل شيء فإن رئيس مساحي المدينة (رودني بويس)، استرالي، قام بوضع خريطة تفصيلية للمدينة توضح جميع الأزقة والطرق ثم إن الطرق المستقبلية رُسمت عليها. مهمة (بويس) بالتشاور مع (ر. تي. مور) نائب حاكم أم درمان كانت تخطيط مدن. كانت المهمة تقع أولاً على عاتق السيد ا. م. اسكويث نائب المفتش، ثم على عاتقي أنا لإقناع الناس بإعادة البناء وتسوية النزاعات بين المطالبين المتنافسين على موقع معين، ثم لتخصيص تعويض لكلفة إعادة البناء.

لتفادي الضيق غير اللازم ولتخفيض التكاليف حافظنا على الطرق العريضة مع بعض التعديلات، بحيث إن مدينة أم درمان الجديدة بالرغم من أنه لا يمكن التعرف عليها من أي ممن عرفها قبل عشرين سنة، إلا أنها ما زالت تتبع الخطة العامة لمدينة الدراويش. لو كان عملياً هدم كل منزل لاتُبِعت خطة مختلفة. وكشخص غير متخصص أستطيع الآن التعاطف مع خبراء تخطيط المدن الذين كان عليهم إحداث توافق بين المرغوب في النهاية والعملي في الحال. تم تخطيط شارع رئيسي في وسط المدينة مع شوارع عريضة متفرعة

من الوسط، بينما تم تخطيط شوارع فرعية لتتصل بالخطة العامة.

بمجرد أن أقرت الخطة، أُبلغ الناس بأن الأوضاع غير الصحية الراهنة لا يمكن التغاضي عنها، وأنه يجب إعادة بناء أم درمان، وأنه يجب على كل شخص المساعدة في جعلها مكاناً أنظف وأفضل. لم نتوقع ارتفاع مقدمي طلبات بلهفة لهدم منازلهم الحالية (على نفقتهم الخاصة) وبناء أخرى (أيضاً على نفقتهم الخاصة) في جزء آخر من المدينة. لذلك كان علينا وضع خطة ما تشجع الناس لإعادة البناء. وبهذا الفهم وعدت الحكومة أي شخص هدم بيته وبنى آخر طبقاً للمخطط الجديد سيكون مالكاً ملكاً حراً لقطعة أرض مساوية في القيمة للمباني التي تم هدمها. ويجب أن يكون البيت الجديد من نوع جيد وبنفس الحجم الذي أمرت به الحكومة. يجب ألا تكون هناك أحياء وأزقة قذرة.

في كل صباح أركب حصاني لتقييم المباني التي يجب هدمها، تقدير قيمة الأرض التي تقوم عليها المباني، وعليّ أن أقرر كم كمية الأرض ذات الملكية الحرة في جزء آخر من المدينة يمكن تخصيصها إلى مقدم الطلب كتعويض، وقمت أيضاً بعمل تقييم تقريبي لقيمة جميع أراضي المدينة مع إعطاء قيمة أعلى للأراضي قرب السوق الرئيسي وعلى شاطئ النيل أكثر من بقية الأراضي.

قليل من أهل المدينة الأكثر سعة جاءوا الآن وقالوا إنهم يرغبون في إعادة البناء حسب اللوائح الجديدة. متاعبنا لم تبرهن على أنها كبيرة كما توقعنا لأن النزوح العام في سنة ١٨٩٨م ترك كثيراً من الأماكن في المدينة خالية تماماً وغيرها بعدد قليل جداً من السكان.

معظم المباني في هذه المناطق المهجورة كانت مهدمة وأخذ ترابها لاستعماله

في إعادة البناء. أحياناً عندما يكون مقدم الطلب يريد بعض الأرض التي تكون خالية جزئياً، وجزئياً يسكنها شخص في زريبة مكشوفة، يجب إقناع صاحب الزريبة بطريقة لبقة أن عليه اختيار موقع أفضل لنفسه في مكان آخر. وعادة ما عالجنا هذا الأمر دون كثير من المشاكل، حيث إن المتقدمين المبكرين اختاروا طبيعياً المواقع قرب السوق أو الشاطئ. أما العروض البديلة بملكية حرة لقطع أكبر لها قيمة أقل قد اجتذبت آخرين لحسن الحظ بعيداً عن وسط المدينة.

وبمجرد أن بدأ الناس إدراك مزايا إعادة البناء، وأنه كلما أسرعوا في تقديم الطلبات كلما كانت فرصهم كبيرة في الحصول على القطع التي يرغبونها. انهالت طلبات بعض السكان الأكثر غنى قـرروا البناء بالطـوب الأحـمـر، ولكن معظم الناس قنعوا بمنزل الطين (الجالوص) أو من الطوب (الأخضر) غير المحروق. غير أن قليلاً من المباني الحالية يمكن استخدامها بعد اصلاحات بسيطة. احتاج برنامج إعادة البناء إلى كميات كبيرة من الطين. بدا في البداية أنه ما لم نسمح بمزيد من التوسع كحفر التراب القديمة، فإنه لا بد من جلب التراب من خارج حدود المدينة. وقد علمنا على أية حال أن أي عمل أو نفقات إضافية سوف يعوق الناس من البناء. ولذلك علينا أن نجد طريقة لتفادي المشكلة. إنه السيد (أرثر اسكويث) الذي وجد الحل، لقد سمع من السودانيين أن أجزاءً من المدينة دُمرت أحياناً بمياه السيول المندفعة من الجبال التي تبعد مسافة ستة أميال في اتجاه الشمال الغربي، واقترح أنه إذا كانت مواد البناء تؤخذ من هذا الجانب من المدينة يمكن عمل مصرف حماية في نفس الوقت. وتم وضع علامات بالأوتاد لموقع مصرف سيول عرضه ٢٠ ياردة ويتم حفره في النهاية إلى عمق ٦ ياردات وتوجيه الناس لأخذ التراب منه للبناء. إن هذا التنظيم الناجح، بالإضافة إلى تقديم مكان يسهل الوصول

إليه لمن يريد تراباً للبناء كما يتيح مصرفاً واقياً من السيول. الأمر الذي كان سيكلف الحكومة أموالاً طائلة لإنشائه في ذلك الوقت.

حفر التراب الموجودة حالياً في أو بالقرب من الشوارع المقترحة ما زالت تمثل مشكلة، حيث إن هذه الحفر تكون أحياناً بعمق خمسة عشر قدماً وثلاثين قدماً عرضاً. وكان من الواضح أنه سيكون مكلفاً للغاية للحكومة للصرف على أعمال دفن هذه الحفر. معظم السودانيين راغبون في الحصول على أرض، لذلك أعلنت الحكومة أن أي أحد يدفن حفرة سوف تعطيه الأرض التي قام بردمها، أو إذا كانت الحفرة في طريق موجود أو مخطط له، فإنه يعطى قطعة موازية لها في قيمة العمل الذي بذله. وقد وجد هذا العرض استجابة فورية. فالذين لديهم حمير وأطفال لدفنها أسرعوا لاقتناص هذه الفرصة. وبما أن مواقع البناء أصبحت نادرة، زادت الحفر تدريجياً في قيمتها. لقد كانت عملية طويلة ولكنها ممتعة. وكانت لي كثير من المجادلات المسلية مع الناس حول قيمة العمل الذي قاموا به ومساحة الأرض التي ينبغي الحصول عليها لقاء جهدهم. وكانت لديَّ أيضاً أوقات مسلية عند التحكيم بين متنافسين على أرض بناء. إحدى هذه الأوقات أتذكر كانت متعلقة «بموقع مرغوب فيه» بالقرب من السوق، وكانت لدى المتنازعين حجج متعادلة ولا أحد منهما يريد أن يتنازل للآخر، وتجمع عدد كبير من الجمهور ليرى ما سوف يحدث. وبعد محاولة فاشلة لإقناع أي منهما للبحث عن مكان آخر بالمدينة. وقلت لهما إن الأرض ستعطى لشخص آخر غيرهما ما لم يكونا راغبين في ترك القـرار لله. فإذا وافقا تجـرى القـرعة على الموقع. وبعد نقاش ساخن وافقا. وقذفت بقطعة خمسة قروش في الهواء. وكان الفائز إمرأة عجوز فقيرة لها سنان فقط، وقد غمرتها الفرحة واحتضنت رجلي بكلتا يديها وصارت تقبل رجلي عدة مرات. تشكراتها بلسان طلق وشكرها لله «العادل

الرحيم وحامي الأرامل» كان شاملاً، وعلى وجهها تعبيرات غريبة مما جعل الجمهور يستغرق في الضحك وحتى المتنافس الذي لم يفز ذهب وهو يبتسم.

تخطيط المدن كان مرهقاً في الصيف، حيث إن ذلك غالباً ما يعني الوقوف لساعات في الشمس الحارقة والريح الحاملة للغبار في موقع غير مكتمل البناء وعادة محاط بجمهور صارخ. بعد العمل خارج المباني كان فرجاً عظيماً الذهاب إلى منزلي الكبير المشيّد من الطين والطوب والهروب من وهج الشمس في الخارج إلى الهدوء والبرودة في غرفة مغلقة الشبابيك.

عندما نزلت من حصاني بعد المرور حول المدينة حياني حارس البوابة النكد المزاج الطاعن في السن عند مدخل بيت الخليفة حيث أسكن. أمشي وحيداً خلال الساحات المهجورة التي تحيط بالمنزل، وقد فكرت في الحراس الدراويش المسلحين الذين حل محلهم الحارس الطاعن في السن، كما فكرت في الجماهير الضخمة التي كانت تموج حول قصر الخليفة. المكان خال وهادئ فقط مركبة الجنرال غردون بضعة مخلفات أثرية من المهدية التي حفظناها هناك لجذب أنظار الزوار واستدعاء إلى الذاكرة دراما التاريخ الذي لا زال حديثاً. قطة وحيدة هناك تعرض نفسها للشمس بهدوء. قبل ثلاث عشرة سنة فقط حشد متعدد الألوان تجمع لانتظار مقابلة حاكمهم. رسل يحملون أنباء مقتل الملك (يوحنا) وهزيمة الجيش الحبشي. أمراء، وبعضهم يرتجف خوفاً من الإبلاغ عن معارك لم تحسم في دارفور البعيدة، وآخرون يفاخرون بقصص انتصارات جديدة، ومجرمون وأصحاب عرائض يستأنفون ضد أحكام قاسية أصدرها ضدهم قضاة الخليفة. أشخاص من طبقات عليا وآخرون من طبقات سفلى، أغنياء وفقراء يجوبون حول الساحات المغبرة منتظرين استدعاءهم إلى حضرة الخليفة. الآن فقط توجد إمرأة من الرقيق المحررين تحمل فوق رأسها جرة من الماء لبيتي بقيت من آلاف السجناء والأرقاء الذين كانوا يكدحون هنا

من أجل سيد مستبد. أحرار وسجناء وأرقاء جميعهم عاشوا في خطر في فترة عدم أمان وعنف أصبحت الآن جزءاً من التاريخ.

أحياناً تبدو الساحات وكأن أشباح الأحداث المأساوية التي شهدتها تزورها مرة أخرى. هنا توسل الأب (أورفالدر) لشيء من الطعام لراهباته الجائعات، وهناك سلاطين قد برك باستسلام أمام سيده.

البيت الذي أسكنه بُني جزئياً من أنقاض قصر الجنرال غردون في الخرطوم وعلى مسافة قصيرة، بجانب النهر كان سجن الحجر - مبني مربع يبلغ حوالى ستة وعشرين قدماً في الطول والعرض. وفيه غالباً يحشر مائتان وخمسون سجيناً في الليل. ولا يعطونهم طعاماً وكانوا يعتمدون على بقايا الخبز القليل لأولئك الذين لديهم أصدقاء يقنعون حراس السجن بتقديمها لهم. مئات ماتوا جوعاً. مقيدون بحديد ثقيل حول أرجلهم وأعناقهم. والسجناء يتشاجرون دون توقف لإيجاد مكان بجانب الحيطان، حيث يريحون ظهورهم في الليالي التي ليس فيها نوم. وبدون ظروف صحية أو تهوية، فإن الرائحة الكريهة من الأرضيات القذرة والسجناء المزدحمين في أسمالهم المليئة بالقمل كانت ظروفاً قاهرة. وفي المشاجرات التي لا تنتهي لإيجاد مكان بجانب الحيطان، فإن المرضى والمشرفين على الموت والجرحى يداس عليهم حتى الموت. وفي كل صباح ستة أو أكثر من الجثث يتم إبعادها من سجن التعذيب.

.بما أن البيت الذي سكنت فيه كان قد بُني للخليفة، فإن به أفضل ملامح المعمار السوداني المحلي، والذي بالرغم من أنه بسيط في التخطيط، فإنه مناسب بكثير للطقس من المنازل المبنية بالطوب الأحمر والتي كثيراً ما تقدم لموظفي الحكومة. حيطان ثخينة للغاية تجعل المنزل بارداً في الطقس الحار ودافئاً بصورة معقولة في الشتاء الذي يمكن أن يكون بارداً جداً في السودان الشمالي. حائط عالٍ من الطوب والحجر أحاط .بمسكني، ولكنه لم يضم

اصطبلات الخليفة ومخازنه ولا مساكن المخصيين والخدم أو أماكن السكن الضخمة التي خصصت لزوجاته ومحظياته في البناء الأصلي عند ما أُنشئ المنزل.

كان منزلاً بهيجاً للعيش فيه. الغرف واسعة ومتجددة الهواء. وأفضل الكل في الجانب الغربي من سكني مبني من طابقين. إن أفراح صعود الدرج لا يقدرها تماماً إلا من عاشوا لسنوات في منزل من طابق واحد.

لقد بنى الخليفة نوافذ صغيرة في كل الحيطان الأربع حتى يتمكن من الرؤية دون أن يُرى ويراقب ما يحدث في أم درمان. ليس لديَّ نفس الريب والمخاوف التي كانت لديه. كنت أفضل الجلوس في أمسيات الصيف الحارة في سقف صغير مسطح، بجانب الغرفة التي كان الخليفة كثيراً ما يراقب منها. من هنا أستطيع التقاط منظر بعيد لأنشطة الناس، بالرغم من أنني كنت مكشوفاً لأعينهم المستطلعة كما هم بالنسبة إليَّ.

وبالنظر حولي أستطيع رؤية (جبل سرغام) الذي استطاع منه (كتشنر) وموظفوه تقدير جيش الدراويش قبل الاستيلاء على أم درمان، ورؤية جبلي كرري التوأمين اللذين سميت بهما المعركة. ومن هناك قام الدراويش بهجوم غير متوقع مما كاد أن يوقع كارثة لجيش كتشنر. وفي ناحية الغرب كانت هناك سلسلة من الجبال (مسرح بنات آوى) مع كثير من الغزلان في السهل المحيط.

في مجال الفضاء الأقرب أرى بعض الحمير تتعثر تحت أحمالها من حزم الحطب، أو سلسلة من الجمال تأتي بالذرة والصمغ من كردفان، تسرع بخطاها المرهقة حينما شمت رائحة مياه النيل بعد رحلتها العطشى عبر الصحراء. الأغنام التي دفعها الأطفال الصغار في الصباح الباكر إلى الخلاء لترعى ما تجده من علف جاف وشجيرات صحراوية تعود الآن ولا تتوقف

إلا لالتهام بعض قصاصات الورق وقشر البطيخ ونبات غار الجبل.

ثم حلول الظلام السريع أخفى المنظر البعيد وأنهى ضوضاء النهار. فقط بضعة أضواء متفرقة في شارع أو مقهى أو الوهج الخافت المنعكس من حيطان حوش يجرى فيه إعداد وجبة المساء مما يضئ ظلام مدينة صامتة.

بيت الخليفة الآن متحف، ولكن بالرغم من أنه في أيامي كان كما تركه سيده عندما هرب لتفادي القبض عليه بعد هزيمته في معركة كرري، سرعان ما بدأت أعاني من عقوبات العيش في «مكان عرض». كان الاهتمام العام بالسودان ما زال قوياً. وفي الشتاء يأتي كثير من السياح لزيارة المواقع التاريخية للخرطوم وأم درمان. وبيتي بالطبع له أهمية خاصة ويصل الزوار في شكل تيار لا ينقطع.

في أي وقت فإنني أستطيع أن أنضم إلى السياح عندما يتجولون في البيت، ليس فقط لأعمل كمترجم، بل لأحدٍ من خيال حارس البوابة الجامح (نصر الدين) الذي يأخذ السياح في جولة، ولكن لأن لدى نصر الدين دائماً بعض القصص ليرويها مما لم أسمع به من قبل.

(نصر الدين) كان من الدراويش وما زال يلبس الجبة وشرح باعتزاز لزواره كيف، إثباتاً لطموحاتهم غير الدنيوية، أصلح الدراويش جببهم القديمة المهترئة بدلاً من شراء جبب جديدة. والجِبة هي زي جيش الدراويش ورمز للجهاد الإسلامي. كان يجب أن يسهب في سرد الأحداث المروعة السابقة وليس في صوته نوع من الشفقة على ضحايا تلك الأيام العنيفة.

«كان هناك حيث تقفون أنتم الآن» أذكره يقول مرة «إن الخليفة قرر مصير قبيلة البطاحين الذين رفضوا دفع ضريبة الذرة وطردوا الرجال الذين جاءوا لجبايتها. أرسل الخليفة قوة ضخمة ضدهم وتم القبض على مئات منهم.

ومعظمهم مات من الجوع إلى أن بقي منهم سبعون من الأحياء. عن هؤلاء السبعين أنا أحدثكم.»

صمت (نصر الدين) برهة ليستجمع أفكاره قبل أن يواصل (في اليوم التالي) بعد أن قرر الخليفة مصيرهم، قرعت طبول الحرب بقوة ونفخ في الأمباية بصوت عالٍ حيث اقتيد ثمانية عشر رجلاً من البطاحين لقتلهم. نصبت ثلاث مشانق. وفي كل منها علق ثلاثة رجال في وقت واحد، وربطت أيديهم خلف ظهورهم، بينما انتظر الباقون دورهم في الشنق. ولمدة نهار وليلة ظلت جثثهم معلقة تحذيراً لأي شخص يجرؤ على معارضة إرادة الخليفة. (بعد شنق الرجال قاد الخليفة جيشه إلى مكان الإعدام. كان هناك آلاف من حاملي الرماح وراكبي الخيل وآلاف من سكان أم درمان ذهبت معهم لأرى القتلى. الموت لا يعني شيئاً بالنسبة لنا في تلك الأيام، لأن المكتوب لابد أن يقع).

(وكلما تحركنا إلى الأمام أمر الخليفة من وقت لآخر قطع رأس واحد من الباقين من السجناء إلى أن بقي حوالى نصفهم ثم حين وصلنا إلى المشانق أمر الخليفة الجزارين بقطع أيدي وأرجل الباقين من خلاف).

(دا مش طيب) أضاف نصر الدين بسرعة عندما رأى نظرات الرعب على أوجه زواره، لكن لديَّ بعض الشك أنه يعني ذلك حقيقة. لقد كان معتاداً جداً على مناظر القسوة والموت العنيف، حيث اعتاد على قبولها كجزء من حياته العادية مثل إعداد العصيدة أو الحضور خمس مرات في اليوم للصلاة في المسجد. ربما في تلك الأيام التعيسة السعداء هم الأموات.

من وقت لآخر يزور أم درمان أشخاص في غاية الأهمية، ويتم منحهم شرف التجوال في شوارع المدينة في موكب حكومي راكب. مثل هذه المناسبات كانت دائماً تخلق نوعاً من القلق لمن يكونون مسئولين عن سير الأمور على

ما يرام وألا تقع حادثة مؤسفة. المجنون الذي يكون عادة مطيعاً ربما يكون لديه فجأة إيحاء فيقذف حجراً على الخيل المارة. وإن ميزة الاستغاثة في بلاد الشرق بضيف فخري قد تستغلها عجوز وهي تقبض على أوراق نزاع عقاري قديم هي تصرخ وتلقي بنفسها عند أقدام الضيف.

الموكب الذي تم تنظيمه على شرف زيارة اللورد كتشنر لأم درمان في سنة ١٩١٢ كان هو الذي أتذكره بوضوح تماماً. كان كتشنر على رأس موكب الخيل المهيب الذي ضم الجنرال (ونجت)، حاكم مديرية الخرطوم، سلاطين باشا وموظفيهم. كان أملنا أن تكون الجماهير في مستوى المناسبة. كثير من الناس كانوا شغوفين للترحيب بضيفهم وتكريمه. ذلك الرجل الذي أنقذهم من ظلم الدراويش. وآخرون الذين حاربوا ضده لديهم حب استطلاع ليروا عن قرب الرجل الذي دحرهم في كرري. كنا نريدهم أن يستغلوا كل فرصة ليرحبوا ترحيباً حماسياً. المشكلة هي التأكد أن يكونوا جميعهم في المكان الصحيح وفي الوقت الصحيح. عازمين على منعهم من الحضور متأخرين ساعات. لذلك أرسلنا حراساً ليليين في الصباح الباكر ليوم الحدث لجمعهم. كانت هناك نقاط محددة طوال الجزء الأول من الطريق وجَّه الحراس من كانوا في عهدتهم مزودين بأعلام وطبول واقفين في حالة استعداد للاقتحام في حالة الهتافات المتحمسة بمجرد رؤية الفيلد مارشال. ثم عندما يمر الموكب توجه بسرعة كل مجموعة من المشاهدين إلى نقطة أبعد على طريق الموكب حيث يكررون الهتافات. كل هذا تم بطريقة حصيفة حتى لا يكتشف الضيوف حيلتنا الصغيرة.

انطلاق موسيقى صاخبة أو رفع علم ذي ألوان براقة بصورة غير متوقعة إلى الأمام أو صيحات مفاجئة من مشاهد مجهد بالعمل سبَّب في مناسبات أخرى قليلاً من الحرج وذلك بازعاج الخيل التي لم تكن متعودة على ضجيج

الجماهير. بينما أنا راكب في موكب كتشنر وبالطبع في حالة انتباه لمثل تلك المتاعب، لاحظت مع بعض الارتياح أن حصاناً على الفطرة تابع لضابط رفيع من الأهالي كان سيتصرف بغاية الانضباط، وعندما سألت الضابط عن سبب هذا الانضباط، رد بقوله (حسناً سيدي، ألا تكون أهدأ قليلاً إذا لم تتناول طعاماً لمدة أربعة أيام؟»).

أحياناً أنواع أخرى من الترفيه تقدم لضيوفنا المرموقين. بالنظر إلى الوراء إلى تلك الأزمان البعيدة استدعي إلى ذاكرتي ليلة في أم درمان عند ما عزفت الفرق الموسيقية المجمعة للألوية السودانية نوبة تمام على شرف لورد لوفات. وبعد ذلك قامت القوات بالرقص والغناء والتصفيق بالأيدي، بينما قامت النساء بالزغاريد تعبيراً عن الفرح. وحتى الزغاريد التي لا تنقطع لم تستطع إخفاء ضربات الطبول، بينما كنت أراقب الرجال وهم يعزفون الايقاعات بمرافقهم وعصيهم وراحات أيديهم - متحدّين. حزانى ومتهللين كما تحركهم الروح - تُرى ما ذكريات الرقص في غابات الجنوب أو في جبال النوبة، ما ذكريات المعارك في الأيام الغابرة التي تطوف بأذهانهم. الألحان تبدو بالنسبة للغربيين رتيبة إلى حد ما، لكن بعضها جذاب لنبرة الحزن فيها. الآلات الموسيقية قليلة وبدائية: ربابة بأوتار من مصارين البهائم مشدودة فوق درع سلحفاة، صافرات من الخشب أو القصب أو قرون بقر الوحش الأفريقي أو غيرها من الظباء لإضافة تنويع للأوركسترا والطبول.

طبول نحاسية ضخمة (نحاس) من العرب تزن حتى سبعين رطلاً. النحاس الكبير يسمى (الأم) والصغير يسمى (البنت). هذه توارثها الناس من جيل إلى جيل آخر في القبائل. طبول متقنة الصنع من الجنوب. تجوَّف جذوع الأشجار الصلبة بأدوات بدائية. طبول كبيرة تبلغ ستة أقدام في الطول وطبول صغيرة تبلغ قدماً واحداً في الارتفاع. صيغت كل منها بمهارة لإخراج نغمة

منفردة. محاكاة ساخرة شجية للطبول. ويتم شد جلد على صفيحة بترول قديمة يعزف عليها محارب أو رقيق محرر إيقاعاً تقليدياً لأسلافه الجنوبيين. وحتى يمكن لصفيحة بسكويت فارغة أن تحدث لحناً فيه حنين إلى الماضي.

الطبول السودانية، عن هذه دائماً أفكر عندما أتذكر موسيقى البلاد. كيف أنه من المبهج للذين يرقصون على إيقاعها ومع ذلك كيف أنها تكون محفوفة بالموت. أفكر فيها مع اختصاراتها الغريبة يتردد صداها خلال غابات أفريقيا الوسطى المعتمة وهي تدعو الناس للرقص في قرية أو تجمع قبلي أو نقل الأخبار من مكان إلى آخر خلال الريف. أفكر فيها وهي تدعو جيوش الدراويش إلى معركة أو ينذر بموت عنيف لشخص تحدى حكام الدراويش. أفكر خاصة في الطبول بأم درمان وهي تأمر الناس حضور إعدام أحد البائسين ممن يحكم عليهم بالإعدام. وأفكر في رجلين – سلاطين باشا والأب أورفالدر – اللذين كثيراً ما سمعا الرسالة المفزعة وكانا غير قادرين على إنقاذ الضحايا من قدرهم المشئوم.

الباب السابع

سجناء الدراويش

الباب السابع
سجناء الدراويش

كنائب لمفتش أم درمان كثيراً ما كان يطلب مني أخذ الزوار في جولات حول المدينة لمشاهدة بيت الخليفة وغيره من الأماكن ذات الأهمية. وهكذا تعرفت إلى شخصين امتزجت حياتهما بصورة مأساوية مع بعضهما خلال أكثر السنوات بؤساً في تاريخ السودان - سلاطين باشا والأب أورفالدر. في يوم من الأيام دعاني سلاطين باشا لتناول العشاء معه في الخرطوم للقاء بعض أصدقائه النمساويين الذين يرغبون في زيارة أم درمان. عند الوصول إلى منزله سررت لأن الحفل ضم ثلاث سائحات فاتنات، حيث إن سلاطين يكون دائماً في مزاج غير متحفظ عندما يكون لديه عدد من النساء الجميلات.

بعد العشاء وأثناء جلوسنا على كراسي خيزران طويلة في برنده منزل سلاطين العريضة علقت إحدى الزائرات أنها تجشمت هذه الرحلة الطويلة إلى الخرطوم لأن كتاب سلاطين (النار والسيف في السودان) أثار خيالها وشعرت بأنه يجب عليها أن تجئ وترى المكان الذي قتل فيه غردون، والمكان الذي تحمّل فيه سلاطين بشجاعة أسره المأساوي.

يحب سلاطين دائماً مثل هذا الإطراء. وبقليل من الإلحاح من بقية الموجودين قصّ علينا شيئاً من حياته في السودان.

(الجنرال السير ردولف سلاطين) هذا الاسم كان مشهوراً قبل خمسين سنة. أما اليوم فرغم أن الكثيرين نسوه، إلا أنه يعيش في ذاكرة الذين أسعدهم الحظ بلقاء هذا الرجل غير العادي والعمل معه.

كان سلاطين قد أمضى ثلاثين عاماً من عمره في السودان عندما التحقت

بالخدمة المدنية في السودان. وقبل أن أكتب عنه كما أتذكره في زياراته المتكررة إلى أم درمان أو عندما استضافنا في منزله بالخرطوم، سوف أحاول أن أنقل إليكم بعضاً من صبره وشجاعته. وبإعطائكم نبذة قصيرة عن سنوات نضاله السابقة، سوف أجعلكم تقدرون شجاعته المذهلة بعودته إلى البلاد التي عانى فيها من قبل كثيراً.

زار سلاطين السودان لأول مرة في عام ١٨٧٤م عندما لم يتجاوز آنذاك الثامنة عشرة من العمر، ولكن أسفاره الباكرة توقفت بسبب اعتلال صحته. عاد إلى وطنه في فيينا وسرعان ما بدأ بعد ذلك حياته العسكرية.

كان الضابط الشاب في الخدمة بالجيش النمساوي عندما تسلم في يوليو ١٨٧٨ رسالة حددت مجرى حياته وجميع مستقبله. كانت الرسالة من السودان وبالتحديد من الجنرال غردون الذي طلب منه أن يحضر إلى السودان والانضمام إلى موظفيه. قَبلَ سلاطين العرض على الفور وبدأ التوجه إلى الخرطوم بمجرد إخلاء طرفه من واجباته العسكرية.

في أوائل عام ١٨٧٩ وصل سلاطين إلى الخرطوم وقدم نفسه للانخراط في العمل. تم تعيينه في البداية مستشاراً مالياً للحكومة، ثم بعد ذلك حاكماً عاماً على مديرية دارفور.

في هذه المديرية البعيدة عن الخرطوم بحوالى ٦٠٠ ميل كان سلاطين منقطعاً تماماً عن مقر رئاسة الحكومة. إن مهمة حكم قبائل الغرب ذات النزعة الحربية مع جميع صعاب الإدارة التي يثيرها عدم الاستقرار السياسي كان عبئاً ثقيلاً ليحمله رجل وحده على عاتقه. وكثيراً ما تدعو الحاجة إلى القوة العسكرية لتنفيذ أوامر الحكومة، و لم يكن لدى سلاطين غير قوات من الجيش التركي المصري التي لا يمكن الاعتماد عليها.

سبع وعشرون مرة قاد سلاطين هؤلاء الرجال في معارك كانت نتائجها متباينة. فمنذ وصوله كانت هنالك انتفاضات قبلية، وكان عليه إخمادها ومعارك مستمرة مع العصابات المسلحة من تجار الرقيق. وفيما بعد قام بمحاولات شجاعة كثيرة لوقف تقدم قوات الدراويش التي تقوم الآن بسرعة بإخضاع السودان باسم المهدي.

أصبح تيار المعارك يتحول ضده. وعندما عزا رجاله وجميعهم مسلمون أن هزائمهم ناتجة عن أن قائدهم مسيحي كافر، اتخذ سلاطين قراراً سبّب له كثيراً من المعاناة في المستقبل. ففي محاولة أخيرة لاستمالة قواته أعلن اعتناقه الإسلام.

بدأت الآن مرحلة مأساوية في حياة سلاطين. لقد فشلت محاولته اليائسة في تأليف قلوب قواته، و لم يستطع أن يفعل شيئاً لتفادي الكارثة. وأخيراً وعندما كادت أن تنفد ذخيرته وضع عساكره أسلحتهم ورفضوا القتال. وأخذ الدراويش سلاطين أسيراً مصَّفداً بالأغلال إلى المهدي. وظل في الأسر لمدة إثنتي عشرة سنة في يد المهدي وخليفته متحملاً مشقات قليل من الأوروبيين الآخرين يستطيع العيش بعدها. هرب في عام ١٨٩٥ والتحق بإدارة الاستخبارات في الجيش المصري وفي (حملة النيل) حملة استرجاع السودان ١٨٩٦ – ١٨٩٨ كان سلاطين ضمن جيش كتشنر. إن المجازفة بأسره مرة أخرى من قبل الدراويش واستبدال الحرية التي حصل عليها مؤخراً بشقاء الأسر الذي كابده، لابد أنها أمور تحتاج إلى شجاعة فائقة. بعد استرجاع السودان تم تعيين سلاطين مفتشاً عاماً في السودان – وهي وظيفة خاصة أنشأها له كتشنر. واحتفظ بها حتى نشوب الحرب العالمية الأولى.

سرد علينا سلاطين لبعض الوقت حروبه في دارفور. ثم سأله أحد الضيوف عن أكثر ذكرياته الحية المتعلقة بمغامراته السابقة. لم يرد سلاطين على الفور

وبدا وكأنه غارق في تفكير عميق. أما نحن من جانبنا فكنا نحدّق في حديقة منزله الغارقة في ضوء القمر، حيث تلمع أزهار الداتورة البيضاء كأبواق فضية، وتفيض شجيرات الجهنمية على البرنده ألواناً وردية وبنفسجية، ويفوح في المكان عبير أزهار النيم المتفتحة. وباستثناء حشرات رقيقة ترف بالقرب منا كان كل شيء ساكناً. أما أنا كواحد من الجالسين لم أتمالك من مقارنة الهدوء الذي ساد هذا المساء مع اضطراب ذلك الفجر المروّع قبل ستة وعشرين عاماً عندما اندفعت حشود الدراويش خلال المكان الذي نجلس فيه الآن وذبحت كل من صادفها.

انتبه أخيراً سلاطين من استغراقه في التفكير العميق، وقال: (ذلك يا صديقي سؤال تصعب عليَّ إجابته. وربما أستطيع أن أقول حقيقة بأن ذكرياتي تتركز على هروبي من أم درمان.. ذكريات لا تنحصر في الرحلة الفعلية عبر الصحراء في عام ١٨٩٥ فحسب، بل تشمل جميع السنوات المملة التي سبقت ذلك، عندما فشلت خطة وراء خطة لتهريبي. وبالطبع فوق كل ذلك أتذكر الشعور العظيم بالابتهاج عندما رأيت في السادس عشر من مارس ١٨٩٥ مدينة أسوان والنيل ونهاية فراري القاسي عبر الصحراء والحرية في النهاية. كانت تلك حقيقة لحظة ابتهاج. فمنذ لحظة أسري لم أفقد الأمل مطلقاً و لم أتوقف عن التخطيط للهرب. أشكر الله! لم يدر بخلدي أن اثنتي عشرة سنة سوف تمضي قبل أن تتحقق أحلامي. كانت أية محاولة للهرب لعدة شهور مسألة لا يمكن التفكير فيها بسبب أنني كنت مقيداً بالسلاسل. وعندما فكت عني هذه القيود أصبحت خادم الخليفة وعرضة لاستدعائي من قبل سيدي في أية لحظة من الليل أو النهار. لم يحب الخليفة أن يظهر لأعوانه فحسب أن الأوروبي الذي كان حاكماً عاماً على مديرية دارفور حيث ولد هو أصبح أحد خدمه، بل إنه يعلم أيضاً أن لديّ معرفةً عميقة بالسودان والمنافسات القبلية فيه، وأنني

أستطيع التحدث بالعربية بطلاقة. وكان يخشى أنني لو هربت فقد أساعد الإنجليز على إعادة فتح السودان. وفي وضع خططي للهرب لم أدر كيف أستطيع توفير اثنتي عشرة ساعة من الانطلاق كحد أدنى أسبق بها المطاردين لإعطائي فرصة محتملة للنجاة. لقد أدركت منذ فترة مبكرة من أسري أنني لا أستطيع فعل شيء بنفسي، وأن هروبي يجب تدبيره من الخارج. لقد دبر أصدقائي المخلصون في القاهرة وخاصة (ونجت) الذي كان مديراً للاستخبارات العسكرية إيصال بضعة رسائل إليّ، وكذلك إرسال مبالغ مالية من أسرتي في النمسا بواسطة العرب الموالين. وهكذا عرفت أنهم لم ينسوني، وأن كل جهد يبذل من أجل إنقاذي. ولك أن تتصور مدى إحباطي عندما يأتي العرب مرة بعد أخرى برسائل سرية تقول إن خططاً لإنقاذي أُنجزت ثم يخشون على أنفسهم ويفرون عائدين إلى القاهرة).

(في ليلة ما ذهبت للقاء رجل قيل لي إنه يمكن الاعتماد عليه بصورة مطلقة، وصلت مكان اللقاء بالقرب من خور شمبات لاكتشف أن الجمال التي كان من المفترض أن تخلصني من قبضة الخليفة لم تكن موجودة. عدت إلى منزلي مرهقاً ومحبطاً، وعندئذ جاء رسول من الخليفة يسأل لماذا لم أحضر صلاة الصبح. وكان مظهري البائس قد أيّد ايضاحاتي بأنني كنت مريضاً أثناء الليل.

مضت أشهر وعندئذ تسلمت قصاصة ورق من الأب (أورفالدر) يقول فيها إن رجلاً موثوقاً به في طريقه إليّ وعليّ أن أتعرف عليه من واقعة أنه سوف يسلمني بعض إبر الخياطة. لم يمض وقت طويل حتى همس إليّ رجل غريب في الطريق قائلاً: (أنا الشخص الذي معه إبر الخياطة. أبحث عني في المسجد بعد صلاة المغرب). قابلته كما اقترح فأخبرني أن الترتيبات لهروبي تمت، وأنه في ظرف بضعة أيام سوف يقابلني الشخص الذي سيقوم بإنقاذي في نفس المكان ويخبرني بموعد الانطلاق. وفي يوم ١٧ فبراير أخبرني (الرجل حامل

إبر الخياطة) محمد ود حسين أنه سيعطيني إشارة بعد يومين إذا كان كل شيء جاهزاً لفراري، وأنه إذا كان الأمر كذلك فلابد لي من اختلاق عذر للتغيب عن ملازمة الخليفة لبعض الوقت لأتمكن من قطع مسافة قبل اكتشاف أمري. وفي يوم الثلاثاء جاءني محمد بالبشارة بأن الجِمال سوف تكون جاهزة في مساء اليوم التالي).

(وفي اليوم التالي حصلت على إذن من الخليفة للتغيب عن صلاة الصبح بحجة أنني أشعر بتوعك، وأنني أنوي تناول شربة من السنامكة والتمر هندي. وبعد ثلاث ساعات من مغيب الشمس غادرت منزلي واتخذت الطريق المؤدي إلى شمال أم درمان حيث قابلت محمد الذي أحضر حماراً لأخذي في الجزء الأول من الرحلة. وفي طرف المدينة وجدنا الجِمال في انتظارنا وبدأت رحلة الهروب. وخلال واحد وعشرين ساعة قطعنا مائة وثلاثين ميلاً ثم تعبت الجِمال وبدأت متاعبي. كان عليَّ أن اختبئ في الجبال خشية أن يراني أحد في أية لحظة ويبلغ عني).

(ولم أصل إلى مدينة أسوان إلا في السادس عشر من مارس. على أية حال أخشى أن تكون هذه ربما الذكرى السعيدة الوحيدة بالنسبة لي في جميع هذه السنوات الطويلة المملة حتى (معركة أم درمان) عندما انتهى حكم الدراويش الذي حاربت ضده طويلاً، وقد أدركت أنه تم الانتقام لمقتل غردون.

صمت سلاطين للحظة، ثم واصل حديثه بقوله: (بالنسبة للبقية فإنني أتذكر تماماً ذلك اليوم المشؤوم عندما قررت اعتناق الإسلام، إنني أدعو الله ألا يضطر أحدكم لاتخاذ مثل هذا القرار، وألا يعاني أحدكم ليالي وأيام القلق والشكوك التي قضيتها. كنت جندياً وأعمل بموجب أوامر من الجنرال غردون لقمع الاضطرابات في دارفور وإخماد ثورة الدراويش. كانت الحملة تسير بصورة سيئة ضدنا. كان هناك نقص في الذخيرة وانخفضت الروح المعنوية لقواتنا

بسبب انتصارات الدراويش المتكررة. وبدأ الرجال يتذمرون لأن قائدهم (كافر) وقد نسبوا هزائمهم إلى ذلك. يجب أن أعترف أنني لم أنشأ على تربية مسيحية ملتزمة. ومع ذلك كان من الضعف إتخاذ قرار تغيير دیانتي. لقد شعرت أخيراً أنه إذا كان من الممكن بتغيير ديانتي حث قواتي على مواصلة القتال لمدة أطول، فإن من واجبي كجندي اعتناق الإسلام. كانت تلك هي الكيفية التي تخليت بها عن المسيحية).

وفي صمت استغرق سلاطين في التفكير. ثم واصل القول: (إني لأتساءل ماذا كان العالم سيرى في تغيير ديانتي إذا كان ذلك قد أدى إلى نجاح في منع الكارثة التي لحقت بالسودان. وأضاف بابتسامة قصيرة قائلاً: (ولكن عندئذ لا أحد كان يمكنه أن يرى أنواع الرعب المروعة التي ستأتي. ولذلك لا أحد كان سيدرك من أي شيء تم إنقاذهم. إن كنت قد أثمت فإن الله يعلم أنني عانيت من آثامي ودفعت ثمناً باهظاً عنها).

توقف سلاطين عن الكلام وكما هي عادته في أوقات التوتر، فإنه يشبك أصابع يديه ويفكها. ولاحظت أنه فقد أصبعاً واحداً من يده. وعندئذ تذكرت كيف أنه عندما جرح في يده في إحدى معاركه الكثيرة طلب من أحد رجاله قطع الأصبع التالف حتى يستمر في القتال. ظل سلاطين صامتاً لبعض الوقت قبل أن يواصل حديثه بصوت يرتجف من الانفعال قائلاً: (إلى حد بعيد، فإن أسوأ لحظة في جميع حياتي كانت في الصباح التالي لسقوط الخرطوم. لقد أيقظتني قبل الفجر أصوات القتال في الخرطوم. و لم أعلم إلا بعد حين بسقوط الخرطوم بسبب الخيانة من بعض المدافعين عن الخرطوم).

سلاطين عند رؤية رأس غردون

(كنت مع المهدي عندما وصل رسول بالأخبار عن الاستيلاء على الخرطوم، وكان الرسول يحمل صرة وقام بفتحها فجأة ليظهر رأس غردون المقطوع وقد أحضره بفرحة إلى سيده. ومن الإنصاف أن أضيف على أية حال أن المهدي استاء بشدة لمقتل وقطع رأس عدوه النبيل الذي يكن له كثيراً من الاحترام).

وبصوت خفيض قال سلاطين: (ماذا أقول عن الجنرال غردون سوى أنه أشجع رجل قابلته على الإطلاق وأنه قديس كذلك).

صفّق سلاطين للفت انتباه خادمه وطلب منه إعادة ملء كؤوسنا بالرغم من أنها كانت نصف ممتلئة. وكنا نحن في غاية التشوُّق إلى ما يرويه لنا. وإنني متأكد أن هذا الذي فعله كان لتغطية انفعاله فيما يتعلق بالحديث عن غردون، ولمساعدته على استعادة هدوئه النفسي قبل أن يواصل حديثه قائلاً: (كان غردون رجلاً رائعاً لمن يعملون في خدمته. إنه يعدي بحماسه الملتهب جميع معاونيه. لقد شعرنا بأنه لن يخذلنا قط وأنه يجب علينا ألا نخذله). واتجه نحوي وقال: (لست أدري يا جاكسون إن كنت سمعت أنني عندما قدمت إلى السودان أول مرة أن غردون عينني مستشاراً مالياً، ولكنني أصبت بالاشمئزاز من الرشوة والفساد والابتزاز بين الأتراك بحيث إنني لم أستطع الاستمرار في العمل)، أجبته بأنني علمت بذلك. وواصل سلاطين حديثه قائلاً: (لقد استقلت من وظيفتي متوقعاً إعادتي إلى بلادي النمسا. قبل غردون استقالتي. وكان يعلم تماماً لم كانت مصاعبي عظيمة. لم أكن أكثر من شاب صغير السن في ذلك الوقتَ. تعاطف معي غردون، وبدلاً من إرسالي إلى بلادي منحني وظيفة عالية في مديرية دارفور، وبعد فترة قصيرة عينني حاكماً عاماً على دارفور. كنت غير مدرك تماماً ما يعنيه هذا القرار

بالنسبة إليَّ! في ذلك الوقت كنت في غاية الابتهاج للاستمرار في خدمة قائد شجاع مثله. غردون لم يكن يعرف ما هو الخوف. وقد قطع مسافات شاسعة على ظهر الجمل وبسرعة خرافية حتى أن العرب بدأوا ينظرون إليه كما لو أنه سوبرمان. وهناك حادثة لا تنسى وذلك عندما وردت أخبار بأن سليمان الزبير، ابن الزبير باشا، كان على وشك مهاجمة (حامية دارا) مدركاً أن غردون كان يقاتل على بعد خمسة وثمانين ميلاً. كان الموقف ميئوساً منه. على الفور ركب غردون جمله وأسرع بحيث لم يستطع حراسه مجاراته في السير ووصل إلى (دارا) بعد ست وثلاثين ساعة.

(لقد ذهل تجار الرقيق الذين كان غردون يهاجمهم في كل بقعة من السودان وذلك عندما سمعوا بوصوله غير المتوقع وطلبوا مقابلته، ولكنه رفض وقال إنه سوف يذهب إلى معسكرهم في اليوم التالي. وفي الصباح لبس بدلة المارشالية الرائعة ذات الأزرار المذهبة وانطلق مع حرسه المكون من خمسين من الخيَّالة وشق صفوف أربعة آلاف من المحاربين حتى وصل إلى خيمة سليمان وأمره بأن يحضر للاجتماع به في (دارا). وانتظر غردون من سليمان أن يطيع أوامره مدركاً أن قواته القليلة والتي لا يمكن الاعتماد عليها في (دارا) لا يمكنها أن تأمل في صد حشود سليمان. وعندما ظهر سليمان في (دارا) أبلغه غردون أنه يعلم أن سليمان يريد أن يقود ثورة ضد الحكومة، ولكنه إذا حاول ذلك فإنه سوف يتم تجريده من السلاح وكسر شكوته. وهكذا كانت هيبة غردون بالرغم من أن الكثيرين من جيش سليمان كانوا يرغبون في مهاجمة (دارا) وقتل غردون، ولكنهم في النهاية قرروا التوصل إلى سلام.

ختم سلاطين حديثه بقوله: (هل تعجبون يا أصدقائي أنني واحد من الناس كنت مستعداً للموت من أجل هذا الرجل؟ عندما كنت سجيناً في أم درمان كتبت مرات عديدة إلى غردون أطلب منه الإذن بالسماح لي بالهروب

والانضمام إليه في الخرطوم. لم يرد غردون مطلقاً على هذه الرسائل، حيث رفض التعامل معي بعد أن أصبحت مسلماً. فقد شعر بأنني خنت عقيدتي). تنهد سلاطين عند ذكرى هذه الأيام غير السعيدة ولرفض غردون السماح له بفرصة خدمته حتى النهاية.

تحدثنا لبرهة عن معركة أم درمان. وجميعنا قرأ كتاب (حرب النهر) لونستون تشيرشل. وبما أن سلاطين أخذ ضيوفه في ذلك الصباح إلى ميدان المعركة الذي زرته أنا كثيراً، فقد كان من السهل متابعة وصفه للمعركة. ولقد تساءلت كثيراً ماذا كانت مشاعره في الليلة السابقة على المعركة، ولماذا لم يقم الدراويش بهجوم ليلي؟ وتمنيت أن يستطيع سلاطين تقديم بعض الايضاح للأسباب التي جعلتهم يمتنعون عن ذلك. إن قوات العدو التي كانت في ذلك الوقت تتفوق في عددها على البريطانيين والمصريين والسودانيين بما يقارب على الأقل بنسبة ثلاثة إلى واحد، أظهرت قوتها في الهجوم، وفي الحقيقة مرتين في (طاماي) و(أبو طليح) قامت بكسر المربع البريطاني في رابعة النهار موجة إثر موجة تقدم حاملو الرماح من جيش المهدي بتهور متعصب غير عابئين بخسائرهم واخترقوا الدفاعات البريطانية.

انتظرت فترة توقف في الحديث، ثم قلت: (أخبرنا أيها الجنرال كيف كانت مشاعرك قبيل المعركة وأنت تعلم قوة العدو وأن مصيراً غير سار ينتظرك إذا وقعت مرة أخرى في قبضة الخليفة؟ ماذا كان سيحدث إذا قام الدراويش بهجوم ليلي حين تكون حرابهم أسلحة ذات فاعلية أكثر من البنادق؟).

رد سلاطين بقوله: (لم أكن مرتاح البال) وقد بدا رده لسامعيه أعجوبة في تقليل شأن المسألة. وواصل قوله: كان معيّ مسدسي وقد صممت ألا يقبض عليَّ حيّاً. ثم بالطبع كنت أتوق للانتقام. لاثنتي عشرة سنة كنت سجيناً لدى الدراويش. أنا ضابط في الجيش النمساوي تمت إهانتي ووضعت في

الأغلال وعوملت كعبد. ليلاً ونهاراً كنت أكدح من أجل الخليفة أتبعه إلى المسجد وأقوم بحمل رسائله وأشيائه. لقد كرهت الخليفة بسبب الإهانات التي تعرضت لها، وبسبب جميع المعاملات القاسية التي تحملتها.)

صك سلاطين أسنانه وهو يسترسل (لم أرد الانتقام لأسباب شخصية فحسب، بل لأن المهدي قتل قائدي المحبوب. أردت أن أفعل ما أستطيع للانتقام لمقتل غردون وتحرير أهل السودان من طغيان حاكم متجبر. وفي الواقع يروق لي أنه ربما ساعدت قليلاً في الإطاحة بحكم الدراويش. والتفت إلى سلاطين قائلاً ربما سمعت أن كتشنر كان يخشى فكرة الهجوم الليلي. كثيرون من قواته لم يدخلوا معركة قط من قبل. وهو لم يكن متأكداً بالمرة كيف يستطيع جنود غير مجرَّبين الوقوف في وجه هجوم من آلاف الدراويش المتعصبين الذين لا يخشون الموت إذا استطاعوا قبل الموت قتل كافر. أثناء فترة أسري في أم درمان كانت لديَّ فرص كثيرة لدراسة السودانيين والتعرف إلى عوائلهم وثأراتهم القبلية. وكان لديَّ أيضاً عدد من الأصدقاء في معسكر الدراويش أو جواسيس إذا أردت تسميتهم. فكرت في خطة ناقشتها مع (ونجت). كانت خطة بسيطة. اقترحت أن أبلغ بعضاً من جواسيسي بأن كتشنر سوف يهاجم أم درمان في تلك الليلة، ولكنه لما كان يرغب في حماية أرواح أولئك الموالين من الأصدقاء، فإن عليهم أن يبلغوا أولئك الأصدقاء بنوايا كتشنر حتى يتمكنوا من الهروب من المدينة المشئومة. وقد أوحيت إلى جواسيسي ألا يخبروا شخصاً آخر خلاف الذين ذكرتهم لهم بما سيحدث، حيث إننا لا نريد أن يغادر أم درمان أناس كثيرون.

أشاد ونجت بالفكرة وأخذني إلى كتشنر للموافقة عليها. وافق كتشنر فوراً على الفكرة ووضعها قيد التنفيذ. كما توقعت فإن جواسيسي بدلاً من تحذير أصدقائهم بالهجوم الوشيك نشروا الأخبار على نطاق واسع. لذلك أبقى

الخليفة جيشه في الميدان لمنع قوات كتشنر من التقدم إلى أم درمان. وهكذا لم يقع هجوم كتشنر الليلي الذي لم يتم التفكير فيه أصلاً كما لم يقع الهجوم الليلي من قبل الخليفة والذي كنا نخشاه كثيراً.

قلت يا باشا هل لي أن أسألك سؤالاً أخيراً؟ أجاب نعم، ولكني لا أعد بالإجابة عليه. واصلت القول (العديد من الناس سألني لماذا بعد معركة أم درمان تم أخذ جثمان المهدي من القبر وأُلقي في النيل؟ أجاب سلاطين: (لا أعتقد أن السودانيين كانوا منزعجين بصورة خاصة لهذا. وبرغم كل شيء فهذا بالضبط ما فعلوه بجثمان غردون. وفي الواقع لم يكن ذلك بأي دافع انتقام. تعلم يا جاكسون أن المهدي تم تقديسه كولي. وفي البلاد الإسلامية فإن أسطورة من القداسة تتكون بسرعة. ومهما كانت دوافع المهدي (وأنا كشخص أعتقد في استقامته)، كان علينا أن نبرهن على أنه مجرد إنسان وليس خالداً. فإذا كنا أبقينا على جثمانه في القبة، فإن الكثير والكثير من الناس كان سوف يأتي للتعبد في ضريحه. وقبل مضي وقت طويل سوف تبدأ حركة خطرة تحيي جميع كراهيات التعصب القديمة وتغرق السودان مرة أخرى في الفوضى التي أنقذناه منها قريباً). رددت عليه بقولي: (إنني أدرك كأمر واقع كثيراً ما أرى النساء يقمن بالدعاء جانب قبة المهدي ويجمعن التراب بالقرب منها بنية التبرك). قال سلاطين (هذا ما أقصده فلا يهم إذا كانت بضعة نساء يأتين للدعاء بغرض تسهيل وضع الحمل أو لزيادة أفراد العائلة. فهذا الأمر يختلف تماماً عما إذا جاء رجال مسلحون لمباركة حرابهم وسيوفهم قبل مهاجمة الحكومة. لقد عمّ السلام الآن في السودان لفترة ثلاثة عشر عاماً – ربما كانت هذه أطول فترة سلام عرفها السودان. وأضاف باللغة العربية وبصوت منخفض: إنه متروك لك يا جاكسون التأكد من استمرار هذا السلام).

صمتنا جميعنا لفترة بعد هذا، ثم ودعنا سلاطين حاملين معنا ذكرى شخص نبيل للغاية وفهماً أعمق للأسباب التي قادته إلى الارتداد عن العقيدة المسيحية.

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م كان سلاطين في إجازة و لم يسمح له بالعودة إلى السودان. إنه انعكاس محزن على الحضارة الحديثة أن يعامل رسمياً رجل برهن على صداقته للبريطانيين وخدمهم بإخلاص على أنه عدو أجنبي. إن الملكة فكتوريا المخلصة لذكرى غردون كانت دائماً مستعدة للترحيب بسلاطين في قصر بالمورال كرجل عرف غردون وخدم تحته وفعل الكثير للانتقام لمقتله. والملك إدوارد السابع كان صديقاً آخر من أصدقاء غردون، وبوساطة سلاطين حاول في اجتماع مشهور في إسكل إقناع الإمبراطور (فرانز جوزيف) فك الارتباط بألمانيا والوقوف مع الإنجليز في الحرب.

كان الإمبراطور يعرف سلاطين منذ سنوات عديدة، وعرض عليه قيادة عليا في الجيش النمساوي، لكن سلاطين يرفض هذا الشرف. لم يستطع أن يحارب ضد البريطانيين. واحترمت وجهة نظره وعين مسئولاً عن الصليب الأحمر النمساوي. وكان ذلك حلاً وسطاً ساراً حيث إن سلاطين لا يخدم بلاده فحسب، بل أصدقاءه الإنجليز كذلك. فالكثير من سجناء الحرب البريطانيين يتذكرون بالشكر المساعدة التي تلقوها من الجنرال سير ردولف سلاطين باشا.

بمجرد انتهاء الحرب عاد سلاطين إلى السودان للتصرف في ممتلكاته وليبحث مع السلطات مسألة معاش التقاعد. قانونياً لم يكن يستحق معاشاً بالرغم من أنه كسبه عن جدارة. لكن حكومة السودان أوجدت استثناء لصالحه ومنحته معاشاً مجزياً.

مضت أكثر من أربعين سنة منذ أن ذهب سلاطين لأول مرة إلى السودان. بلاد أنهكتها الحروب المستمرة وكانت فريسة للمسئولين الفاسدين وتحت نير تجار الرقيق. وجدها الآن أرضاً للرخاء والسلام حيث يحصل أي فرد على العدالة واختفى تجار الرقيق. وفي عشاء وداع أقامه على شرفه أصدقاؤه الإنجليز، سرد على مستمعيه التغييرات التي لاحظها، ثم غيَّر الموضوع تماماً، وانهى خطابه بصورة لم تكن متوقعة! قال:

(وقعت مؤخراً على كتاب لشخص يسمى استراشي. وفيه يتهم غردون بالمبالغة في شرب الخمر. إنها كذبة. وصاح بصوت متهدج من الغضب مضيفاً: إنها كذبة بلغاء! ثم قال:

هل يعرف استراشي غردون؟ لا!

هل أعرف أنا غردون؟ نعم!

(كان غردون يأخذ أحياناً قليلاً من البراندي عندما يكون مريضاً أو مرهقاً. فهو يجد من الصعب الاستمرار دون قليل من شراب منشط. كان غردون يقطع مسافات طويلة على ظهر الجمل بسرعة عظيمة. إذا أراد أن يأخذ أكثر من زجاجة أو اثنتين من البراندي في هذه الرحلات الطويلة السريعة، فإن ذلك يكون مستحيلاً من الناحية الجسمانية بالنسبة له. إنني لم أستطع اكتشاف كيف أن أسطورة تصوير غردون كسكير قد نمت. كثيراً عندما يكون غردون مرهقاً أو منزعجاً لكثرة مسئولياته يغلق خيمته ويضع فأساً وراية خارجها ليبيِّن أنه لا يرغب في إزعاجه، بينما يستريح ويقرأ الإنجيل أو يصلي. أستطيع أن أفترض فقط أن شخصاً ذا نفس شريرة قد اخترع قصة شرب غردون للخمر سراً، وذلك بدافع العداوة للجنرال غردون أو ليفسر خلوته في مثل المناسبات المذكورة.

ربما كانت هذه آخر مرة أجد فيها فرصة لتقديم احترامي وإعجابي لأشجع رجل وقديس قابلته مطلقاً. عليكم أن تختاروا بين شخصي الذي عرف غردون واستراشي الذي لم يعرفه. وبالإضافة إلى ذلك فلو أن غردون كان سكيراً لما كسب مطلقاً احترام المهدي وهو مسلم ورع لم يقرب الخمر مطلقاً. كان المهدي يأمل دائماً أن يلتقي غردون وأن يبحث معه تعاليم عقيدتيهما المختلفتين. إنني متأكد أنه عندما قتل غردون في الخرطوم وجيء برأسه إلى المهدي تألم حقيقة لموت غردون).

(لا تنسوا ما قلته لكم وعليكم أن تكذبوا أي شخص يخبركم أن غردون كان سكيراً.)

جلس سلاطين وهو متأثر بعمق من الاستقبال الحميم الذي أقامه له أصدقاؤه الإنجليز والتصفيق المتواصل لخطاب الوداع الذي ألقاه.

يقول جاكسون بعد بضعة أيام من دعوة عشاء سلاطين، تحدثت إليّ السيد مور وهو حينذاك نائب حاكم لأم درمان عن القصص التي رواها لنا سلاطين. فقال السيد مور: (إذا كانت لك رغبة في الحديث عن أيام زمان ربما كنت ترغب في لقاء أحد مواطني سلاطين وهو الأب أورفالدر. فسوف يأتي للغداء معنا في يوم الجمعة. وأنا وزوجتي سوف نكون سعداء للغاية إذا انضممت إلينا.)

قبلت بسرور فرصة لقاء رجل طالما سمعت وقرأت عنه كثيراً وكانت حياته مرتبطة بصورة غريبة بحياة سلاطين.

بدأ تتابع الأحداث الغريب في أوائل ١٨٨١ عندما غادر سلاطين وأورفالدر الخرطوم إلى غربي السودان. سافرا معاً حتى مدينة الأبيّض، ومن هناك ذهب الأب أورفالدر إلى الدلنج في جبال النوبة. واتجه سلاطين غرباً لتسلم وظيفته

الجديدة في دارفور. لم يدر بخلد الاثنين عندما ودعًا بعضهما بعضاً أي محنة قاسية ستجمعهما مرة أخرى.

بعد أكثر من سنة بقليل تم القبض عليهما من قبل الدراويش. وكلاهما ذاق شقاء سنوات طويلة من الأسر. وكلاهما هرب في النهاية عبر الصحراء المحرقة إلى مصر. وكلاهما ساعده في الهرب الرائد ونجت. وأخيراً بعد استرجاع السودان رجع كلا الرجلين إلى السودان لمواصلة عمله الذي انقطع. لابد أن ذلك تطلب شجاعة فائقة للرجوع إلى بلاد فيها مثل تلك الذكريات المريرة، حيث إن كل شارع صغير يذكرهما بما عانياه.

بعد القبض عليهم من قبل الدراويش، فإن الأب أورفالدر والراهبات الثلاث ظلوا مع الجيش أثناء تحركه في البلاد. وتعرضوا للسلب والضرب والسخرية من قبل آسريهم. وتم تهديدهم باستمرار بالقتل إذا لم يرتدوا عن عقيدتهم المسيحية. وفي مرة من المرات قادوهم إلى استعراض كبير أقيم لحضور إعدامهم، وكانوا قد أحنوا رؤوسهم لتلقي ضربات السيف عندما أوقف الخليفة تنفيذ الإعدام. والخرق البالية القليلة التي تغطي أجسادهم المليئة بالقمل لم يكن من الممكن غسلها، حيث لم يكن في الغالب وجود ماء كافٍ حتى للشراب. وفي كل صباح يستيقظ فيه أورفالدر كان ينفض العقاربَ التي زحفت إليه أثناء الليل من ملابسه البالية. ولحسن حظه أصبحت لديه مناعة من سم العقارب لكثرة ما لدغته. وفي سيرهم من كردفان إلى أم درمان ازدادت معاناتهم، حيث قطعوا المسافات بجهد كبير وبأقدام حافية متقرحة من الرمال الساخنة أو دامية من الأشواك التي على الأرض وهم في غاية المرض والضعف ويكاد الجوع يقتلهم وهم يتنقلون من معسكر إلى آخر. وأحياناً تنهمر عليهم عاصفة أمطار مدارية، فيقضون الليل يرتجفون على أرض مشبعة بالماء وهم شبه موتى من الحمى والدوسنتاريا والاسقربوط.

وقد عانت الراهبات أكثر من الأب أورفالدر في السير لمسافات طويلة على الطرق المتربة أو على الأراضي المشبعة بالمياه وقد حمّلوهن بأحمال ثقيلة كالحيوانات ويضربوهن بالسياط عندما يتعثرن أو يتأخرن. وقد تحمل أولئك النساء بشجاعة وواصلن السير المضني. وبدون وقاية من الهجير اللافح أحرقت الشمس وجوههن وتسلخت حتى أصبحن لا يشبهن البشر كثيراً. ولربما أن الراهبات المسكينات رحبن بهذا التشوُّه لأنهن كن في خوف دائم من الاغتصاب. و لم تكن هذه هي أعمال التعذيب الوحيدة التي تحملنها. ذكر أورفالدر في كتابه (عشر سنوات من الأسر في معسكر المهدي) أن إحداهن عُلقت في شجرة وجُلدت على باطن قدميها حتى تورمتا وأسودتا وسرعان ما سقطت أظافرهما.

أخيراً ونحو نهاية أبريل ١٨٨٥ وبعد أنواع من العذاب ما كان يمكنهن العيش بعدها إلا بفضل عقيدتهن التي لا تقهر، وصلن إلى أم درمان حيث الحياة خلت من بعض الرعب بالرغم من أنها صعبة للغاية. هنا وجدت الراهبات سكناً مع بعض الإغريق، بينما حصل أورفالدر على كوخ لا يبعد كثيراً عنهن. وعلى كل حال فإن مصاعبهم لم تنته. فسرعان ما اكتسحت المجاعة السودان. فيكاد ألا يوجد طعام لكي يتم شراؤه. وما كان موجوداً لا يمكن شراؤه إلا بأسعار باهظة. وكل شيء كانت الراهبات يمتلكنه في يوم ما سُرق منهن. ولفترة أعطاهن المسيحيون والسوريون والإغريق القليل من الطعام الذي استطاعوا الاستغناء عنه. وحاولت الراهبات كسب القليل من النقود من الخياطة حتى تناقص الطلب على عملهن في بلاد جائعة ضربها الفقر.

الأب أورفالدر والراهبات

وهكذا مضت السنون إلى أن جاء العربي أحمد حسن في سنة ١٨٩٠ ليقول إنه سيحاول تدبير هروب السجناء. وأعطاه أورفالدر رسالة إلى كبير الأساقفة سوقارو في القاهرة. ولكن عندما مضى الشتاء والربيع والصيف و لم يظهر أحمد، أعتقد أورفالدر أنه خدع مرة أخرى من قبل الرسل الذين وعدوا بمساعدته، وأنه حُكم عليه بقضاء بقية حياته في بؤس شديد. ولكن في ٢٨ أكتوبر ١٨٩١ ظهر فجأة أحمد في كوخ أورفالدر وهو محمل بالمال من قبل كبير الأساقفة سوقارو وسأل أورفالدر إن كان جاهزاً. ومضى شهر في عمل ترتيبات سرية للرحلة. وفي الساعة التاسعة من ليلة الأحد ٢٠ نوفمبر بدأ أورفالدر ومجموعته الصغيرة في مخاطرتهم اليائسة. والجميع مجهد من المرض وقلة الطعام، كما أن التوتر والإثارة خلال الأيام القليلة الماضية منعتهم من النوم. وهي حقيقة كادت أن تكون لها عواقب وخيمة نحو نهاية الرحلة. فالأب أورفالدر كان يبصق دماً وهو يعاني من آلام مبرحة في الصدر، كما أنه في غاية الهزال الشديد. الراهبتان كترينا شنكاريني والزابيث فنتوريني كانتا في حالة بائسة أكثر منه وتحتم رفعهما على رحلي جملين، بينما تشبث عربيان خلفهما كرديفين لمراقبتهما. أما الراهبة الثالثة لقيت حتفها من قبل. وأما أورفالدر فقد ركب جملاً آخر وخلفه عديلة وهي بنت من الأرقاء. وأما الجمل الرابع فكان يركبه أحمد دليل القافلة الذي ينبغي أن يكون حراً ليستطلع الطريق أمامه أو ليتحدث مع أي مسافرين مشبوهين قد يلاقونهم. ولسبعة أيام بلياليها كانوا في عدو مستمر مع القليل من الراحة أو النوم. كانوا في غاية الإرهاق وحتى في بداية رحلتهم الطويلة سقطت إحدى الراهبات من الجمل مغشياً عليها وتم انعاشها بصعوبة كبيرة. وقبل أن يقطعوا أكثر من نصف مسافة الرحلة أصبحت أعينهم محمرَّة ومتورمة من وهج الشمس

المستمر ومن الرياح الباردة التي ضربت وجوههم في بداية الرحلة وأفقدت أجسادهم الإحساس. والآن تغير الحال إلى حرارة لا تطاق. وأن الشيء الوحيد الذي جعلهم يتماسكون رغم إرهاقهم هو ذكرى ما عانوه والأمل في الحرية. على مدى عشر سنوات لم يتناولوا وجبة طعام مشبعة. وبسبب عدم النوم اضطروا إلى قرص أجسادهم حتى تدمي لمنع سقوطهم من الجِمال. والجِمال نفسها أصبحت تشعر بآثار الأرض الحجرية القاسية وتسلخت أخفافها وأصبحت تقفز من جانب إلى آخر من شدة الألم.

وبطريقة أخرى استطاع أورفالدر ومجموعته أن يصلوا بصعوبة إلى آبار المرات. وبعد يومين من الراحة اتخذوا طريقهم على مراحل سهلة إلى كورسكو وإلى الحرية.

عندما جاء يوم الجمعة ذهبت إلى منزل مضيفي وهو لا يبعد إلا بضعة ياردات من منزلي. وسمعت أن الأب أورفالدر تأخر بصورة غير متوقعة. وعلى أية حال قبل أن يطول الانتظار، وبينما أنا جالس مع السيد مور وزوجته نحتسي عصير الليمون، أقبل نحو المنزل قسيس وسيم في ثياب رجال الدين ذو بشرة سمراء مثل العرب وعليه لحية مهذبة بدأت تضرب إلى البياض وهو حاسر الرأس أثناء شمس الظهيرة الحارقة. وحتى عن بعد أستطيع أن أرى علامات المعاناة على وجهه. قام السيد مور بتقديمي إليه. هذا إذن هو الأب أورفالدر. ولكن كيف كان أورفالدر وسلاطين لا يشبهان بعضهما! سلاطين كان قصيراً ممتلئ الجسم شيطاني التصرفات، ومرحاً في العادة ما لم يشار بالصدفة إلى بعض الناس الذين عاملوه في الماضي معاملة سيئة مؤذية مما يثير فيه غضباً شديداً ويجعله يتلفظ بألفاظ بذيئة. أما أورفالدر فهو مختلف تماماً. فهو طويل القامة وهادئ وعليه مسحة حزن. ولا أستطيع أن أتصوره يتحدث عن مضطهديه أو عن الفظائع التي تحملها إلا بوقار تام وتسامح ومحبة مسيحية

عريضة. واعتقدت في أول الأمر أن الحزن المرتسم على وجهه كان راجعاً إلى جميع الفظائع التي تحملها بجلد. ولكن بعد مرور سنوات عديدة علمت أن حزنه كان بسبب أنه منع من إقامة القدّاس بسبب ارتكابه لخطيئة عرضية أثناء سنوات أسره.

كيف لا يشبهان بعضهما أيضاً في نواح أخرى! سلاطين كان جندياً تخلى عن ديانته، وأما أورفالدر فهو مبشر ورعٌ من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، تحدى الدراويش ورفض الارتداد عن ديانته بالرغم من أنه كان يعلم بأنه يخاطر بحياته. ففي مرة من المرات قادوه إلى ميدان استعراض الجيش في أم درمان لينال أقصى عقوبة لرفضه الاعتراف بالإسلام. ووضعت أنشطوة المشنقة حول عنقه عندما ركض رسول على حمار لإيقاف عملية الشنق في آخر لحظة بأمر الخليفة. وذكر لنا أورفالدر٬ أثناء الغداء عندما كان يقص علينا شيئاً من تجاربه السابقة «لا أدري مطلقاً سبب إيقاف تنفيذ الحكم. لقد سمعت بعد فترة من تلك الواقعة أنه تم نصح الخليفة في الوقت المناسب من قبل مستشاريه الدينيين، أنه لا يجوز الحكم على القسس المسيحيين بالإعدام، حيث إن قديساً في سالف الأزمان أنقذ ذات مرة حياة النبي. لكنني لا أدري إن كانت هذه القصة حقيقية، وعلى أية حال وبالرغم من أنه قد يكون قتل القسس محرماً، لكن لا يبدو أنه محرم جرحه أو تعذيبه. لقد وضعوني في كوخ صغير من القش، بينما يستطيع أي أحد يمر بالقرب من الكوخ أن ينخسني بحربته. لقد حميت عيني بتغطيتهما براحتي اليدين، ولكن باقي جسمي عانى من الجروح الكثيرة.)

وبالرغم من اختلافهما من أوجه كثيرة، إلا أن كلا سلاطين وأورفالدر كان من الرجال ذوي الشجاعة النادرة. وكان لديهما تصميم رائع لعمل كل ما في وسعهما لضمان عدم تكرار معاناة الثمانين سنة الماضية في تاريخ السودان.

بعد الغداء استرخى أورفالدر في كرسيه بهدوء مستمتعاً بكأس من البراندي. لقد حذروني في السودان من أن هنالك طريقتين مؤكدتين للتعرض لضربة الشمس.. ترك المنزل في الظهيرة دون غطاء للرأس وشرب الكحول قبل مغيب الشمس. أورفالدر كسر القاعدة الأولى من هاتين القاعدتين والآن يكسر القاعدة الثانية. لقد دهشت إلى أن أدركت أنه تأقلم تماماً مع جو السودان. وإلا كيف استطاع البقاء بالرغم من الحرمان الذي عاناه أثناء أسره؟

لم يكن أورفالدر يرغب مثل سلاطين في الحديث عن الماضي، ربما كان يؤلمه تذكر معاناة الراهبات التي كانت قصتهن المأساوية مرتبطة بقصته. لكن عندما تجرأت بملاحظة فحواها أن رجوعه هو وسلاطين والراهبات إلى أرض بها مثل تلك الذكريات الأليمة يتطلب شجاعة نادرة. رد بأريحيته المميزة أن الأمر كان أكثر صعوبة بالنسبة لسلاطين مما بالنسبة له هو. (تدرك يا جاكسون أنه كانت لديَّ حرية أكثر من سلاطين كما كان لديَّ أصدقاء كثيرون في أم درمان. أما سلاطين ودون إرادته كان عبداً للخليفة وكخادم لشخص مكروه للغاية مثل الخليفة فقد جلب على نفسه كثيراً من الأعداء بالرغم من أن ذلك، وأكرر، دون خطأ من جانبه هو. وبجانب ذلك كان لديَّ دعم روحي من عقيدتي بينما لم يكن لسلاطين ذلك.

واصلت الحديث على أمل أن يخبرني عن بعض تجاربه، فقلت: (لقد قرأت كتابك أيها الأب أورفالدر، ولكن ما زلت لا أستطيع أن أفهم كيف تمكنت أن تجد أي شيء لتأكله ولإمداد الراهبات وتابعيك الآخرين أو كيف استطعت توفير المال للقليل الذي كنت تستطيع شراءه.)

أجاب أورفالدر (لقد كانت أوقاتاً صعبة)، ثم أضاف بابتسامة (أعتقد أنني أكلت اليوم في الغداء أكثر مما كنت آكله عادة في أسبوع كامل أثناء فترة أسري. وأثناء فترة المجاعة في ١٨٨٩ لم يكن لدينا خلال سبعة أشهر كاملة إلا القليل

من الخبز المحلي وبعض الخضروات المغلية في الماء. لا زيت ولا لبن ولا شحم ولا لحم. وأما الآخرون فقد كانوا على أية حال أسوأ منا بكثير.)

واصلت الحديث بقولي (كيف أيها الأب أورفالدر استطعت شراء الطعام مطلقاً؟ لم يكن لديك أي مال أليس كذلك؟)

رد بقوله: (فقط ما كنت أكسبه. ففي وقت ما حاولت صنع الصابون ولكن عندما مات فجأة (لوبتن بك) الذي خلف (جسي) كحاكم عام على بحر الغزال، والذي كان يعلمني صناعة الصابون، اضطررت إلى ترك هذا العمل. ثم بدأت في عمل خطّافات من أسلاك التلغراف. وكانت الراهبات يقمن بخياطة الخطّافات على محافظ النقود أو على أشياء أخرى. ولفترة ما استطعنا أن نكسب قليلاً من النقود يومياً إلى أن انتهت موضة هذه الأشياء، وبالإضافة إلى ذلك فإن الناس كانوا في غاية الفقر، بحيث إن القليلين منهم كانوا يستطيعوا شراء هذه الأشياء بالرغم من رخص ثمنها. ربما لا تصدق يا سيد جاكسون أن معظم الناس لم يكن حالهم أحسن منا، ثم جاءتني فكرة عمل أشرطة زينة تخاط على أطراف ثياب السيدات، اجتهدت في الحصول على نول محلي للنسيج، ثم اشتريت قطعة من شريط الزينة وقمت بنقض غزله بعناية تامة لمعرفة طريقة نسجه، وقد باءت محاولاتي الأولى في نسج شريط مثله بالفشل، وأخيراً على أية حال نجحت في نسج أربع ياردات من الشريط بعد العمل يوماً كاملاً، كان عملاً قاصماً للظهر وكانت حصيلة بيع الشريط أربعة قروش أدفع منها كلفة الخيط، وفيما بعد عندما ازدادت خبرتي بالممارسة استطعت أن أنسج ست عشرة ياردة في اليوم، ولكن لم أستطع دائماً إيجاد مشترين لعملي. ومع ذلك غمرني الرضا بأنني أستطيع كسب القليل من المال، وأن ذلك بحد ذاته أعطانا كل الثقة.

وواصل الأب (أورفالدر) حديثه بقوله: (الآن أسمح لي فأنا أفضل الحديث في أشياء أخرى، فإن ذكرى تلك السنوات ما زال حيّاً في مخيلتي ولا أستطيع الكلام عنها دون ألم.)

شكرت الأب على ما أخبرني به، وتحولنا إلى مناقشة خططنا الخاصة بإعادة بناء أم درمان، وإمكانية مد مواسير للإمداد المائي. وسرعان بعد ذلك ما غادرت وكذلك الأب أورفالدر إلى منازلنا. وعندما افترقنا عند بوابة بيت الخليفة حيث كان سلاطين يجلس يوماً بعد آخر يتلو القرآن، فكرت في جميع ما عاناه أورفالدر والراهبات. احتمالهم لمعاناة لا يمكن تصورها وشجاعتهم التي كثيراً ما واجهوا بها الموت والعقيدة التي دعمتهم روحياً وفرارهم الملحمي عبر الصحراء، كلها دليل مستمر على شجاعة روح الإنسان التي لا تقهر.



الباب الثامن

ود مدنـــــــي



الباب الثامن
ود مدني

بعد سنتين في أم درمان تم نفيي لفترة قصيرة في الجيلي، وهي على بعد مسافة قصيرة شمالي الخرطوم، حيث وصلتها في أكثر وقت تعيس، كان عليَّ وأنا بمفردي أن أتعامل مع انتشار خطير لحمى التيفوس، كانت هنالك مجاعة في البلاد ونتيجة لذلك كانت هنالك سرقات منتشرة للأبقار، والوقت القليل الذي عليَّ أن أوفره من التعامل مع الوباء والمجاعة وواجباتي المعتادة كنت أكرسه لمحاكمة عشرات الأشخاص لسرقتهم أغنام وضأن وبقر وجِمال جيرانهم، ومن النادر أن ينتهي العمل حتى وقت متأخر من الليل.

بالرغم من أن معظمنا يكره فكرة نقله إلى مقر الرئاسة، ليس ذلك بسبب أن تكون لنا حرية أقل لاتخاذ القرارات، ولكن بسبب أنه سيكون حتماً مزيداً من العمل المكتبي، وأقل فرصة للتجول في مراكزنا. تطلعت بعد خبراتي الحديثة أن أنقل إلى ود مدني، هنا كان يعمل عدة ضباط وموظفين بريطانيين، بالإضافة إلى مفتشي المجلس السوداني للزراعة الذين يسكنون على بعد بضعة أميال. كانت لدينا العديد من أنواع الترفيه التي نقضي بها وقت فراغنا، ومجموعة سعيدة نتمتع بلعب البولو والبردج والتنس. عندما ذهبت في البداية إلى ود مدني لم نستطع إلا لعب التنس في الطقس الجاف، لأن سطح الميادين المصنوعين من الرمل والصمغ كانا يذوبان مع الأمطار، ولكن فيما بعد صنع نوع جديد من السطح «صالح لكل أنواع الطقس» مما مكننا من اللعب على مدار السنة، لكن أحياناً تعوق القرود لعبنا للتنس، حيث تسكن في بعض أشجار الجميز، أحياناً تقذفنا بثمار الجميز الناضجة، وأحياناً تقفز من الأغصان لتخطف كرة التنس مع قهقهات الفرح مما يثير حفيظتنا.

و د مدني ليست مكاناً جاذباً لتنظر إليه، نحن في تخطيطنا لمدننا نهتم بوظيفة المدينة لدرجة كبيرة، فالأشكال المنحنية والهلالية لا نفضلها، فالشوارع تمتد في زوايا مستقيمة بين واحد وآخر وهي واسعة ليس فقط لتقليل انتشار الحريق من مربع مباني إلى آخر، بل لتقليل فرصة التستر لأي مجرم يكمن في الليل في الشوارع غير المضاءة. كثير من الدكاكين وقليل من البيوت الخاصة من الطوب الأحمر، أما الأخرى فمعظمها من الطوب الأخضر أو هي أكواخ من القش محاطة بسياج من الشوك. في تلك الأيام كان لدينا مال قليل لذلك لم نستطع تشغيل كناسين. لذلك كان كل صاحب بيت مسئولاً عن كنس نصف عرض الشارع المواجه لبيته أو دكانه أو حوشه في كل يوم للمحافظة على نظافة المدينة.

مخاطر الحريق كانت تسبب لنا قلقاً مستمراً خاصة في الأجزاء الفقيرة من المدينة حيث الأكواخ ذات سقوف القش وسياجات الشوك السريعة الاشتعال وهي متلاصقة من أجل السلامة. بدأنا خطة لتخطيط المدينة ولكننا توقفنا في جزء واحد من المدينة، حيث رفض الناس مغادرة أكواخهم و لم نكن راغبين في استخدام قوتنا القانونية لإخلائهم إن كان يمكن تفادي ذلك. وبينما كنا ما نزال نناقش المشكلة شبَّ حريق في ليلة ودمر جميع الأكواخ الصغيرة والسياجات التي كنا نريد هدمها. وبدون أي إيماء بشعور عدائي نسب جميع السكان الحريق إليّ. واعتقدوا أنني قررت هذه الوسيلة العنيفة لمعالجة هذه المشكلة! وفي الواقع التعليق الوحيد الذي سمعته (بالرغم من أنه قد تكون هناك تعليقات أخرى) هو «المفتش والله جدع!»»، إنني أتخيل أن الناس يتذكرون السلوك الطغياني للإداريين الأتراك والمصريين في الماضي، واعتقدوا أنني أواصل اتباع تلك التقاليد القديمة. إنها واحدة من المناسبات الكثيرة التي لم يستطع الناس فيها فهم طرقنا، كما أننا لم ندرك ما يدور في أذهانهم.

ربما كان فشل السودانيين هذا في فهم دوافعنا، حيث أعطوا فكرة خاطئة عن الحياة بأكملها لأناس ممتازين لديهم سجايا أسطورية. هنا أسطورة عن مفتش مركز كان يجري بحصانه في شوارع ملكال ومعه أحد النوير وهو عارٍ ومعلق بركاب الحصان. ومع أن هذه القصة بدأت قبل ثلاثين سنة، لكنها وحتى قريباً جداً ما زالت تروى باستحسان. وفي الشمال البعيد يتذكر الناس بتأثر وتقدير لفترة عشرين سنة على الأقل ما يعرف بقصة «أبو سبعة سنين» في مديرية بربر بسبب قصة غير صحيحة بالمرة، وهو أن صاحبها لديه «حكم واحد» فكل من قدم إليه في المحكمة قيل إنه تلقى نفس الحكم «سبع سنوات من السجن»، وكثيراً ما تعجبت كم عاشت أسطورة إشعالي الحريق في ود مدني بعد مغادرتي إياها؟

الثكنات وبضعة منازل للموظفين الكبار كانت تبعد قليلاً عن المدينة ولا توجد حولها أسوار، وكانت حيواناتنا الأليفة طليقة تتجول حيثما تريد. وأحدها كان أريل ولأنه كان مصدر إزعاج بعض الشيء في كل من مكان السكان وفي المدينة، حيث يذهب غالباً ليجد شخصاً يلعب معه. وقرونه عندما ينطح بها ما حوله في لعبه يحدث جرحاً خطيراً. وعندما كان معنا فإن الضيوف كثيراً ما كانوا يقبلون بخطوات إلى الخلف ليحاولوا الإمساك بقرونه وهو يطاردهم إلى البرنده.

وهناك حيوان آخر وهو لبوة صغيرة تسمى فاطمة. وكانت حيواناً محبوباً وكانت تقفز مرحاً مثل قطة صغيرة وهي تأتي عندما تناديها باسمها. وعندما كبرت قليلاً ونقلت الكتيبة إلى أم درمان، رافقت فاطمة القوات حيث كان الرأي أنه من الأفضل أن توضع في حديقة الحيوان بالخرطوم. ولسوء الحظ ماتت فاطمة أثناء الرحلة – ربما من جراء الفزع من ضجة القطار. وكقاعدة معظم الحيوانات لا يبدو أنها تهتم حتى بمثل أنواع السفر غير المعتاد. أحياناً

رحلة قطار قد تشابه لها نشاطاً صاخباً. وقد سافرت مرة أربع غزلان صغيرة معي وزوجتي من سنكات إلى بورتسودان جعلتنا مستيقظين كل الليل بمحاولتهم لجعلنا نلعب معهم. لكن وجودهم في عربة نوم من الدرجة الأولى لم يفقد كمساري التذاكر اتزانه، حيث كان اهتمامه الرئيسي هو هل يأخذ عن الغزلان أجرة كاملة أو نصف الأجرة؟.

كثيرون منا كانوا يحتفظون بحيوانات أليفة: القرنوق ذو العرف، الدقدق الأريل، حمار الوحش، ظبي الماء، الغزال وغيرها من الحيوانات الأفريقَية بدلاً من الكلاب الإنجليزية، لأن الكلاب التي استجلبت من إنجلترا لم تعش طويلاً في السودان بالرغم من كل العناية التي اتخذناها.

وقد شعرنا مع جورج إليوت بأن الحيوانات حقيقة هي رفيق مقبول: «هي لا تسألك أسئلة كما أنها لا توجه انتقادات».

من جميع حيواناتي الأليفة ليس فيها من كان أكثر سحراً من الغزلان الأربع التي أخذتها من الجيلي بعيونها الشفافة وأرجلها النحيفة التي تقفز بحركات رشيقة في أول إيحاء بالخطر. وكانت دائماً مسرورة بالترحاب بي عندما أعود للبيت. وأحياناً تأتي معي إلى المكتب حيث تتجمع مع بعضها في زاوية إلى أن ينتهي عمل الصباح. وهي تحوز البيت بأكمله وتتجول في داخله وخارجه كما تستولي على فراشي لإغفاءة منتصف النهار. الشكوى الوحيدة ضدها هي أنها عند الساعة الرابعة في صباح شتاء بارد، وهي غالباً ما تلعب «اتبع قائدي» وهي تدور وتدور في الحوش الرملي – مكان عظيم للمرح. وعندما يقفز قائدي بصورة لا تتغير فوق فراشي عند ذلك توقظني ستة عشر من الأظلاف – أكثر تأثيراً من أكثر الأبواق رنيناً.

هذه الغزلان جاءت معي من أم درمان، حيث كانت أعظم الأشياء المحبوبة

لدى العديد من زوار بيت الخليفة الذي كنت أسكن فيه آنئذ. ويبدو لي أن وجبتها العادية من الذرة والقش لم تكن ترضيها، لذلك تبحث في البيت عن أي شيء يمكن أكله.

في يوم من الأيام عدت من المكتب للغداء لأجد الغزلان هناك قبل وصولي، ثلاث منها وقفت حول طاولة الطعام وكل واحدة منها تبرز من فمها قطعة لحم، بينما الغزالة الرابعة تحاول جهدها للحصول على قطعة. وقد واصلن مضغ قطع اللحم بسرور. وإن كان بالإمكان للغزلان الابتسام وأكل قطعة اللحم في نفس الوقت، فإن تلك المجرمات الصغيرات كن يفعلن ذلك. وفي مرة أخرى أكلن لفة فيلم – لحسن الحظ لم تكن للفيلم آثار ضارة – ومرة انتهزن فرصة غيابي في الخرطوم لفتح علبة سيجار كانت مغلقة جزئياً وكل ما تبقى كان بقايا خمسين سيجاراً على الأرضية وهو ممضوغ. وأعقاب السجائر وكذلك السكر كانت تعتبر من ألذ أنواع الطعام. كما أنها لا تحتقر الورق والستائر وتقريباً أي شيء يمكن أن يؤكل. ولكنها تدفع أكثر من مائة ضعف عن أي تلف تحدثه وذلك بودها وشفقتها ولطفها.

من جميع الواجبات الكثيرة التي تحال إلى مفتش المركز في تلك الأيام لم يكن هنالك أكثر كراهة من محاكمة شخص بالإعدام. فالمحاكمة بلغة أجنبية. والمتهم عادة جاهل وغير قادر على تقديم أفضل دفاع عن نفسه وليس لديه محام يدافع عنه وليست هنالك هيئة محلفين. المحكمة الكبرى التي تُنظر فيها كلُ قضايا القتل الجنائي أو القتل العمد برئاسة موظف بريطاني الذي تزيد مصاعبه حينما يكون عليه أحياناً إعداد القضية التي عليه فيما بعد سماعها. كانت إحدى أولى مهامي عندما نقلت إلى ود مدني، التحقيق في سر جثة مجهولة ثم محاكمة القضية التي اتضح أنها قتل عمد.

مزارع يركب جملاً متجهاً نحو ود مدني، رأى كلباً ينبش حول قبر مهجور

مما أثار حب استطلاع الرجل، فنزل من جمله وذهب ليرى ماذا يفعل الكلب. وجد الكلب يأكل في لوحة كتف إنسان دفن في قبر قديم. أخبر أحداً بالحادث الغريب وتم إبلاغ الحكومة بذلك. وأظهر فحص المقبرة أن هناك قطعاً أخرى من العظام وكذلك جمجمة. ومن بعض خصوصية شعره كان يعتقد أن ذلك يخص رجلاً يسمى محمد أحمد. ووجدت عظام أخرى في قعر آبار. وجرت تحريات أخرى وعرف منها أن محمداً كان حياً آخر مرة قبل ستة أشهر وهو في طريقه جنوباً مع ستة أصدقاء. ومضت عدة شهور وكانت الاشاعات منتشرة، ولكن بالرغم من أننا شعرنا بأننا متأكدون من هو القاتل، إلا أنه لم تكن الأدلة كافية لتسمح باعتقاله. وقد بدا أن القاتل سوف يذهب دون عقاب. وربما كان سيحدث ذلك لولا واحدة من تلك الأحداث التي تقع مصادفة والتي كثيراً ما تجلب المجرم للعدالة.

واحدة من زوجات الرجل الذي وقعت عليه الشبهة حدث أن سمعت زوجها يطلب زجاجة من العطر، واعتقدت أنه أراد أن يعطي جزءاً من عطرها لامرأة أخرى، تبعته إلى كوخ لم يكن بعيداً. هنا وهي تسترق النظر من خلال فتحة في جدران القصب. دهشت وهي ترى زوجها يضع يديه فوق شخص ميت. ثم قام بعد ذلك برش الجثة بالعطر و لم يسمع بعد ذلك عن الحادثة. الزوجة كسبت القوة لابتزاز زوجها – وهي مفيدة خاصة في بلد مسلم حيث لدى النساء حقوق قليلة. ولسوء حظ المجرم فإن العطر الذي استخدمه لا يخص المرأة التي اكتشفته مع الجثمان بل لامرأة أخرى التي اتهمته بسرقته. وحدثت مشاجرة وكان الشجار بصوت مرتفع وانتشرت الأخبار في القرية، ولكن بعد عدة شهور عرفت أهمية زجاجة العطر المفقودة وظهرت الحقيقة للعيان.

محمد القتيل في زيارة للقرية التي لقي فيها حتفه افتخر بصورة غير حكيمة أن شيخه الديني كان أهم من الشيخ الذي يدين له مضيفه بالولاء. فشعر

أهل القرية بالإهانة والاستياء. واستدرج أحدهم محمداً في منزل وقام بقتله هناك. ولم يعرف كيف يتخلص من الجثة. واستلف من إحدى زوجاته عطراً ليمنع تحلل الجثة ويحول دون افتضاح أمرها. ثم قام بتهديد ثلاثة أو أربعة من أخوانه حتى وقفوا على مساعدته لتقطيع الجثة أثناء الليل وتوزيعها في أماكن مختلفة. وبالرغم من أن القاتل حوكم بالإعدام وأن شركاءه بعد القتل حوكموا بفترات سجن طويلة، إلا أن حكمه استبدل بالسجن مدى الحياة. وبعد عشر سنوات تمت مراجعة الحكم وأطلق سراحه فقط ليقتل في سنة ١٩٢٦ من قبل أقارب القتيل.

قضية غريبة صادفتني في وقت لاحق أظهرت التقدم الجيد الذي أحرز في تثبيت الأمن العام. رجل دخل مكتبي ذات صباح وقال إنه يرغب في تسليم نفسه للحكومة. ذكر لي اسمه وكان يبدو مألوفاً إلى حد ما، ووجدت عندما رجعت إلى كروت الفهرست أنه واحد من أولئك المتورطين في قتل نائب مفتش رفاعة كولن اسكوت مونكريف في سنة ١٩٠٨. وقد هرب بعد العراك الذي جرى واتخذ طريقه من مكان إلى مكان دون أن يتمكن من الإقامة لفترة طويلة في أي مكان إلى أن وصل دارفور. وفي هذا الوقت كانت دارفور تدفع أتاوة اسمية إلى حكومة السودان بالرغم من أن السلطان علي دينار كان فعلياً حاكماً مستقلاً، ولكن بعد هزيمته وموته في سنة ١٩١٦ لم تعد دارفور ملجأً للمجرمين. لذلك أصبح الرجل مرة أخرى مطارداً واتخذ طريقه راجعاً إلى كوستي على النيل الأبيض. ومن هنا بدأ محاولة الوصول إلى موطنه في الجزيرة أو ربما مثل القتلة الآخرين كان يدفعه دافع غريب لزيارة مسرح جريمته. ولما وجد على أية حال أن الشرطة تتعقبه جاء وسلم نفسه إلى الحكومة بدلاً من إلقاء الشرطة القبض عليه. وكان ذلك مثالاً جيداً للصعوبة التي يواجهها المجرم الهارب من وجه العدالة في السودان. وكان هناك مثال

ممتع بعد بضعة أشهر.

بنت من الأرقاء في الثامنة عشرة من عمرها، جاءتني وقالت إن أمها قتلت عندما كانت هي طفلة في عمر سنتين. وكل ما استطاعت أن ترويه لي أنها عندما كانت صغيرة جداً كانت تسكن في كوخ، وجاء رجل وفعل شيئاً لأمها بحبل. وأنها لم تر أمها مرة أخرى. وعندما كبرت سمعت أناساً يتكلمون عن اختفاء أمها قبل سنوات عديدة، وسألتهم وأخبروها أن بعض القرويين أخذوا جثة والدتها ودفنوها قرب مقبرة محلية، ولكن على بعد مسافة قصيرة من بقية القبور. وقالت إنها تستطيع أن تعطيني بعض المؤشرات على مكان القبر.

تحركت بسيارة فورد وأخذت طبيباً سورياً والفتاة معي وذهبت إلى المقبرة مسافة حوالي ثلاثين ميلاً. لم يكن لدينا الكثير لنواصل ولكن كان أملنا أن نجد جثة إمرأة غير معروفة مدفونة بعيداً عن بقية الأموات وإن كانت هنالك أية علامات على خلع عظام الرقبة، فذلك سيساعد على تأييد حقيقة ما ذكرته البنت.

كان الوقت يقترب من الثامنة مساء عندما وصلنا. ولما كان على الطبيب أن يعود بأسرع ما يمكن بعد أن تم تأخيره بعملية، قررنا أن نبدأ عملنا بالحفر في المقبرة على الفور. كانت الليلة مظلمة ورطبة وخانقة بالحرارة التي تنذر بعاصفة. وأضاء البرق عبر السماء ودوى الرعد في البعد وجعل عملنا أكثر رعباً. القرويون الذين أجبروا على مساعدتنا رمقوا السماء والأرض بنظرات تدل على عدم الارتياح. تصور عندئذ مجموعة صغيرة بجانب القبر الذي يتم فتحه أضاءوا بنور ضعيف من الفانوس المحلي. الطبيب السوري وشخصي وشيخ القرية واقفون، بينما هنالك ستة عمال غير راغبين يقومون بحفر الأرض الصلبة. العاصفة المقتربة سحبت ستارة كثيفة عبر السماء مخفية ضوء النجوم والهلال. الظلام كثيف تخرقه فقط ألسنة البرق المشتعل الذي أظهر

للحظة منظر تجمهر القرويين وهم ينتظرون على بعد عشر ياردات ليروا إن كان القبر سيكشف السر الذي نبحث عنه. التمع البرق بحيوية أكثر وقصف الرعد بصوت أقرب. أترى يمكنني الرجوع إلى ود مدني تلك الليلة إذا غمرت العاصفة، التي تبدو وشيكة، الأرض الواقعة بينها هنا وود مدني. بعد عمل نصف ساعة فتحنا قبر فتاة صغيرة ماتت قبل بضعة أسابيع من حمى التيفوس. وكدنا أن نقرر ترك مهمتنا الرهيبة، ولكن الفتاة اليتيمة كانت متأكدة أن أمها دفنت بالقرب من مكان حفرنا، لذلك بدأنا مرة أخرى. وبعد فتح المزيد من القبور وجدنا الهيكل العظمى لجثة استطاع الطبيب أن يقول إنها ربما كانت لامرأة في حوالى الثلاثين سنة من العمر.

أعجبنا بتصميم الفتاة على كشف الحقيقة. وعندئذ تقدم الشهود ليخبرونا بما علموا عن الحادث. رجل متدين جداً كان ذاهباً إلى قرية على نهر الدندر وأرسل أحد أتباعه قبله ليرى إن كان هنالك كثير من الطعام والماء والشحم لاستقباله حين وصوله. وعند أول كوخ وصله الرسول لم يكن هنالك أحد باستثناء خادم رفضت تزويد رسول الفكي بالشحم الذي كان يتبع لطائفة دينية أخرى خلاف طائفة سيدها هي. وفي حالة غضب لرفض الخادمة وخوفاً مما سيقوله سيده ألقى الرجل أنشوطة حول رقبة الخادمة ورفعها وعلقها في عارضة في السقف، بينما كانت البنت الصغيرة تربض في الأرض غير دارية بما حدث في الظلام.

انتهى عملنا. أنا والطبيب بدأنا رحلتنا راجعين إلى ود مدني. تحولت العاصفة إلى الاتجاه الشمالي ووصلنا ود مدني بدون حادث مؤسف. وبعد بضعة أيام تم اعتقال مرتكب الجريمة وعمّنا ارتياح للقبض على قاتل كان طليقاً لمدة ستة عشر عاماً.

كان وجود جرائم قليلة لم تكشف في شمال السودان يعود إلى حد بعيد إلى

ذكاء قصاصي الأثر المحليين الذين يستطيعون، إذا كانوا أمناء، تقديم أدلة لا تقل في قطعيتها عن البصمات. وقصاصو الأثر عموماً يمكن الاعتماد عليهم رغم أن أدلتهم ينبغي أن تقبل بكثير من التحفظ نظراً إلى حقيقة أنه قد تكون لهم خصومة مع بعض الأطراف أو ربما تم تهديدهم. كانت لدي حادثة واحدة بارزة عن قدراتهم في ود مدني. اعتقل رجل من حارس ليلي لعدم إطاعته أمراً حكومياً أن على كل شخص أن يحمل ضوءاً بعد المغيب. وأتوا به أمام ضابط الشرطة في اليوم التالي، وبينما التحقيق جار جاءت امرأة لتشتكي أن رجلاً دخل منزلها في الليلة السابقة وسرق زوجاً من الأحذية وغيرها من الملابس. تم تسجيل أقوالها وتركت أحد المكاتب وتصادف أن قابلت الشخص الذي اتهم كمتشرد خارجاً من الباب التالي، فصاحت: «هذا هو ابن الكلب الذي سرق أحذيتي وملابسي في الليلة السابقة!»، وعندما أعادوه إلى المكتب اعترف الرجل بأنه مذنب بالسرقة التي اتهمته بها المرأة وارتياباً في أن هذه الشخصية غير المرغوبة ربما كانت متورطة في بعض جرائم السرقة الحديثة التي لم تستطع الشرطة القيام بأية اعتقالات بشأنها، رتب ضابط الشرطة عرضاً للتعرف لا على الأوجه بل البصمات. صدر أمر إلى المشتبه فيه وأحد عشر آخرين للمشي على شريط من الرمل الذي تم إعداده لهذا الغرض، ثم أرسل قصاص الأثر لفحص أثر الأقدام. صرف القصاص أحد عشر منهم، ولكنه قال إنه لا يستطيع التأكد من الثاني عشر، حيث كان يحاول أن يخفي آثار رجليه بعدم المشي بالجزء المسطح من قدميه. تم تسطيح الرمل مرة أخرى ومشى الجميع مرة أخرى فوق الرمل. ومرة أخرى قال قصاص الأثر إن أحد المشتبهين لا يمشي بطريقة تترك أثراً واضحاً لرجليه على الرمل. وللمرة الثالثة أجريت التجربة وفي هذه المرة مشى ضابط خلف المشتبه فيه ويداه على كتفي المشتبه ليجبره على المشي على مسطح قدميه. وفي الحال قال قصاص الأثر

إنه عرف الأثر وإنه لرجل لم يره من قبل وإنه لا يعرف اسمه، ولكن بصمات رجليه رأها خارج دكان صائغ تم كسره قبل ثلاث سنوات. وبعد مزيد من التحريات اكتشف أن الرجل الذي دار حوله الاشتباه لجريمة السرقة هذه كان خادماً في دكان الصائغ وأنه اختفى بعد السرقة.

عندما جاءت القضية للمحاكمة سألت قصاص الأثر كيف استطاع التعرف على آثار الأقدام بعد العديد من السنوات؟ رد بأن قدمه كانت قبيحة جداً، وسألني «إذا رأيت وجهاً قبيحاً جداً ألا تستطيع تذكره بعد ثلاث سنوات؟»).

لم تأخذ القضية وقتاً طويلاً حيث إن المتهم اعترف بالسرقة، ولكن الحادثة انطبعت بوضوح في ذهني كمثال لما يمكن أن يفعله قصاص أثر حاذق حقيقة.

قضايا الشجار كانت كثيرة وهذه تنجم عادة عن أن أحداً سكر بمشروب (العرقي) المحلي الممنوع الذي يقطر بعملية بسيطة وهي إدخال قصبة مجوفة في إناء به مريسة تغلي، ويتم ربط في أعلاها بقصبة أخرى وتمر الأبخرة من إناء المريسة داخل القصبة وتتكثف في صورة كحول تسمى (عرقي). في بلد حيث كل شخص يحمل حربة أو سيفاً أو سكيناً داخل قراب يلبس في الذراع اليسرى فوق الكوع بقليل، فإن جروحاً بالغة غالباً ما تنتج عن عراك مفاجئ من قبل شخص شرب كثيراً من هذه الكحول الخام (العرقي).

شيوخ القرى مخولون للتعامل مع جميع الجنح الصغيرة، ولكن قضايا الجرائم الخطيرة يحاكمها المفتشون البريطانيون. وعندما يجب أن تتدخل الحكومة، فإن طبيعة المخالفة هي التي تحدد طبيعة المحكمة التي تسمعها. ولن أدخل في تفاصيل تكوين وسلطات المحاكم المختلفة باستثناء أن الجرائم الخطيرة مثل القتل والاغتصاب فإنها تسمع لدى ما يسمى بالمحاكم الكبرى، بينما الجرائم الأخرى تنظر فيها المحاكم الصغرى أو بواسطة المفتشين أو المآمير. المأمور

لديه سلطات محدودة جداً «سلطة ايجازية»، وأعرف أن أحد المفتشين وجد أن هنالك كثيراً من الأحكام صدرت عن محاكم إيجازية «لارتكاب جريمة غير طبيعية»، وأنه طبقت فقط عقوبات اسمية. وبما أن هذه كانت جريمة خطيرة وعقوبتها المقررة هي عدة سنوات من السجن. فقد طلب المفتش إجراءات هذه القضايا العديدة، فأوضحت السجلات أن هذه «الجرائم غير الطبيعية» هي رفض قرويين معينين حمل عفش المفتش من النهر إلى منزله.

ماذا يمكن أن يكون غير طبيعي أكثر من هذا؟

القضايا الجنائية غالباً خسيسة إلى حد ما مع القليل لتخفيف كآبتها، ولكنني مرة تسليت كثيراً عندما قام مجرم عريق باستئناف حكم بالسجن ستة أشهر كنت قد أصدرته ضده، وطلب مقابلتي حيث إن لديه اقتراحاً لتغيير في الإجراءات القانونية. علماً بأن المجرم كان لصاً وممن يقومون بالسطو ليلاً على المباني. لست أدري إن كان اقتراحه سيكون لإلغاء جميع العقوبات لهذه الجرائم. وافقت على مقابلة الرجل والاقتراح الذي قدمه كان أصلياً ومفاجئاً. هو يعتقد أن على الحكومة أن تفرض رسوماً على الاستئنافات في القضايا الجنائية. وقال دعماً لرأيه: «خذ قضيتي مثلاً.. ليست لديَّ مظلمة ولكنني استأنفت ضد حكمك بستة أشهر سجناً لأن الاستئناف لا يكلفني شيئاً. من المؤكد أنه ينبغي لي أن أفكر مرتين إذا كانوا قد طلبوا مني دفع رسوم بمبلغ خمسة أو عشرة قروش للحصول على حق الاستئناف. فكر كم من المتاعب كانت سوف تتفاداها الحكومة إذا كانت الاستئنافات غير المعقولة مثل استئنافي لم تقدم كثيراً «. لحسن الحظ أن جميع الدعاوى القضائية تم إرسالها إلى مقر الرئاسة وإلا كنت سأجد من الصعب رفض استئناف مثل هذا من متردد سجون عريق ما زال لديه وقت ليقترح خطة بها ربما تسبب جنحه المتكررة أقل ما يمكن من متاعب.

في كل اكتشاف ومنع الجريمة، فقد خدمتنا شرطتنا خدمة جيدة ولا أتذكر مناسبة واحدة في شمالي السودان، كنت مضطراً فيها لمعاقبة شرطي لإهمال خطير لواجباته.

في المدن، فإن قوة الشرطة الصغيرة المدربة كانت تدعم بالخفراء (الحراس الليليون). والخفير شبيه جداً بنوع الرجل المستخدم في إنجلترا قبل أيام سير روبرت بيل. وكلمة «حارس» هي تعبير ملطف، إذ إن هؤلاء «حراس السلام» ينامون بعمق معظم الليل. وحتى في بعض الأماكن يقومون بطابور عرض عند غروب الشمس ومعهم عناقريبهم قبل الذهاب إلى نقاطهم العديدة. ومن المفترض أن ينادي كل منهم رقم نقطته على فترات متكررة ليثبت أنه يقظان (وهذه تركة من أيام الخليفة)، ويستطيع الشخص أن يسمعهم يصيحون «نمرة واحد» – «نمرة اثنين» وهكذا. فإذا لم ترد نقطة نمرة اثنين عندئذ على نمرة واحد أن يذهب ليعرف السبب. وهكذا خلال سلسلة النقاط. أحياناً في الليالي الباردة أو الممطرة أو بعد واحدة من ليالي شرابهم الدورية، فلا أحد يزعج نومهم بصوت من أي نقطة من النقاط.

معظم هؤلاء الخفراء كانوا جنوداً سابقين وهم يوفون بالغرض ولا يترددون في الطريقة التي يقضون بها لياليهم. كنت مرة أحاكم قضية في ود مدني وكان خفير يصف ما حدث. قال الرجل: «كانت هناك صيحة حرامي! حرامي! فاستيقظت واعتقلت اللص!».

معظم وقتي قضيته في مقر رئاسة المديرية. وكان مجلس نباتات السودان يجري تجارب في طيبة وبركات (قرب ود مدني) مع زراعة أنواع مختلفة من القطن، ويعالج مواضيع فنية أخرى مثل مناسيب المياه، تأثير الأمطار الموسمية على المحاصيل، العلاقة بين الحكومة والمزارعين والمجلس. أبرزت مشاكل عديدة وكان يجب عمل كثير من العمل التمهيدي قبل مشاريع زراعة القطن

على نطاق واسع. و لم أستطع أن أدرك، إلا بصعوبة، ضخامة المشروع الذي سوف يتطور من هذه البدايات المتواضعة.

بني في مكوار خزان طوله حوالى ميلين، وعندما تم افتتاحه في عام ١٩٢٥ زرعت ثلاثمائة ألف فدان. ومنذ ذلك الوقت تمت تعلية الخزان وبحلول عام ١٩٤٩ امتد الخزان ثلاثة وتسعين ميلاً في اتجاه المنبع وخزن سبعمائة وواحد وثمانين مليون متر مكعب من الماء. وعندما يكون ممتلئاً يغطي مساحة سبعة وخمسين ميلاً مربعاً من الأرض. ويمكن الآن ري حوالى مليون فدان من المياه المحتجزة في الخزان، وسوف تزداد هذه المساحة قبل مضي وقت طويل.

مشروع الجزيرة تجربة فريدة في الجهود التعاونية. وتطبيق مبادئها في جميع أنحاء العالم يسهم بشكل كبير في حل الصعوبات الاقتصادية وينهي العداء الذي يوجد دائماً بين رأس المال والعمال، بين الشخص الذي يعمل بيديه والرجل الذي يوجه بذهنه هذا العمل إلى قنوات مربحة. ففي مشروع الجزيرة لكل من الحكومة ورجل الأعمال والمزارع مصلحة مباشرة في نجاح المشروع. فإذا فشل أحدهم فشل الجميع. فمجلس نباتات السودان جمع رأس المال في المملكة المتحدة والحكومة البريطانية ضمنت القرض، وحكومة السودان أجرت الترتيبات لبناء خزان سنار (أو مكوار)، وحفرت القنوات الرئيسية. وقام المجلس بحفر جميع القنوات الفرعية وتشييد محالج القطن وغيرها من المباني الدائمة، وتوريد وتشغيل الجرارات وجميع الآليات الثقيلة، وعلم وأشرف على الزراع وقدم البذور المجربة، وبحلج وتصنيف وتسويق المحاصيل خفض عمولة السمسرة إلى الحد الأدنى، كما عمل كبنك للناس يقدم لهم المال لمواجهة نفقاتهم الزراعية والنفقات الأخرى إلى أن يتم حصاد المحاصيل وبيعها.

من المشاكل الاقتصادية الكبيرة في السودان كما في البلاد الشرقية والأفريقية

الأخرى هي كيف تسيطر على الممارسة الحمقاء التي يقوم بموجبها المزارع الفقير وقصير النظر برهن جميع محصوله السنوي للتجار مقابل النقد أو البضائع. وبما أن الإجراء يتم غالباً قبل الحصاد بشهور، فإن قيمة النقد الفعلية للمحصول تكون أحياناً أكبر بكثير من دين المزارع ولكن لا تعويض له. وبعمله كبنك يستطيع المزارعون الاقتراض منه لمواجهة نفقاتهم الجارية إلى أن يتم تسويق القطن. استطاع المجلس إزالة التجار المقرضين للمال ورفع مستوى المعيشة في الجزيرة.

بجانب قيام المزارع بالبذر والعناية بمحصوله بالطريقة العادية وريه في أوقات ينظمها المجلس، كان عليه أن يتبع قواعد معينة للعناية العلمية بالزراعة وضعت لإرشاده ويطبقها المفتشون التابعون للمجلس. وعند بيع المحصول ٢٠٪ من الأرباح تكون للمجلس و ٤٠ ٪ لكل من المزارعين والحكومة. هذا التوزيع يقوم على القسمة العرفية لأرباح الأرض التي تروى بالساقية، حيث يملك رجلٌ الأرض، وآخر الأيدي العاملة، والثالث الأبقار والأدوات الضرورية. ففي عام ١٩٥١ حقق محصول قطن الجزيرة مبلغ ٥٤،٠٠٠،٠٠٠ جنيه وتقاضى المزارعون البالغ عددهم ٢٦،٠٠٠ مزارع مبلغ ١٧،٥٠٠،٠٠٠ جنيه، وكانت ثروة لا تحصى لأناس كانوا حتى قبل سنوات قليلة يكون الواحد منهم محظوظاً إذا امتلك بضعة معزات وكمية قليلة من الذرة التي زرعها بمخاطر عظيمة وبكثير من العمل. وبالإضافة إلى النقد الذي حصلوا عليه مقابل قطنهم، فإن الماء يقدم إليهم لزراعة الذرة والخضروات لأسرهم والعلف لحيواناتهم. ومقابل ذلك فإنهم لا يدفعون شيئاً.

في يوليو ١٩٥٩ انتهى امتياز مجلس السودان للنباتات وتم تأميم المشروع تحت إدارة مجلس الجزيرة. ومن الأرباح التي تراكم للحكومة بنيت مستشفيات ومدارس وطورت خدمات المنافع العامة بمعدل لا يصدق.

استطعت من وقت لآخر مغادرة ود مدني في جولة تفتيش، وفي إحدى هذه الجولات كان من سروري مقابلة واحد من أكثر الشخصيات البارزة في السودان وهو الشيخ بابكر بدري. الشيخ بابكر بدري من قبيلة الرباطاب وهي تسكن المنطقة القاحلة التي تمتد في الضفة الغربية من قبالة أبو حمد إلى مروي، حيث اغتيل غدراً العقيد استيوارت في ١٨٨٤ عندما كان مسافراً برسائل من غردون.

في أثناء اتخاذه طريقه جنوباً إلى الخرطوم بحثاً عن سبل العيش التي لم يجدها في منطقة ميلاده القاحلة، قابل الشيخ بابكر بدري المهدي في قرية أبو سياد. وعلى الفور أصبح أحد أنصار المهدي. وبالحماس الذي كان ملمحاً قوياً في شخصيته التحق بجيش ود النجومي الذي كان يريد غزو مصر.

في ١٨٨٩ أسره البريطانيون في (معركة توشكي) مع سجناء آخرين وسلموه للمصريين. وعندما قام العقيد ود هاوس بتفتيش السجناء أصيب بصدمة لوجبة الذرة غير المطبوخة والماء التي كان يقدمها المصريون إلى السجناء، وأمر بأن يقدم إليهم طعامٌ جيدٌ. وبدلاً من تنفيذ أوامر العقيد ود هاوس، ولتوفير المزيد من النفقات قام المصريون بتشغيل السجناء الذكور لدى المزارعين المحليين، وأرسلوا النساء اللائي كن مع جيش الدراويش إلى القاهرة طالبين من الزبير باشا العمل على رعايتهن.

أخبرني الشيخ بابكر أنه ظل يعمل لأكثر من سنتين عبداً للمصريين. وقال إن خلاصه جاء بصورة غير متوقعة. قال إنه كان يقرأ في يوم من الأيام سورة من القرآن الكريم كعادته حينما لفت صوته الجميل انتباه العمدة الذي طلب منه على الفور أن يقيم معه في منزله. وهناك تعلم دباغة الجلود وأشغال الجلد. وبعد البقاء مع العمدة الكريم لمدة سنتين، رجع بابكر بدري إلى السودان.

مات المهدي بعد فتح الخرطوم بفترة قصيرة، وأصبح الخليفة عبد الله هو قائد الدراويش. وأما بابكر فرغم أنه ما زال مهدياً بقلبه، إلا إنه بدأ في فقد الثقة في الخليفة. وبالرغم من أنه كان حاضراً معركة أم درمان، إلا أنه انسحب من ميدان القتال بأسرع ما يمكن. ومع ذلك فإن السيد عبد الرحمن المهدي (ابن المهدي) لم يكن لديه نصير أكثر ولاء من الشيخ المسن.

ولبعض الوقت بعد رجوعه عاش بابكر عيشة ضيقة كسمسار إلى أن عرض الشخص الذي يعمل له (مهدي أحمد) أن يعطيه أربعين قرشاً حتى يعمل في التجارة على حسابه الخاص. رفض بابكر ما سماه الصدقة، وبدلاً من ذلك طلب من مهدي أحمد أن يضمنه لدى تاجر يهودي يسمى ناثان. وتم ذلك واشترى بابكر بضعة ياردات من القماش واقتسمها مع أخيه وبدأ يتاجر بين رفاعة وكركوج. وسرعان ما اكتسب سمعة بأنه رجل محترم. وعندما بدأت مدرسة في رفاعة تقدم إلى وظيفة مدير المدرسة، فتم توظيفه بمرتب مبدئي هو اثنان من الجنيهات. وبعد ذلك بوقت قليل غير بعيد طلبت منه سلطات المديرية أن يقبل بجنيه واحد بدلاً من جنيهين بسبب عدم وجود أموال فقبل بذلك. ومن ناحية أخرى في سنة ١٩٠٣ زار حاكم المديرية العقيد دكنسون المدرسة ووجدها مزدهرة للغاية، فأعطى بابكر من جيبه الخاص ثمانية جنيهات لتعويضه عن تخفيض الراتب، فقبلها بابكر ووعده الحاكم براتب ثلاثة جنيهات في الشهر. وسرعان ما أصبحت مدرسة رفاعة معروفة كواحدة من أفضل المدارس في البلاد.

في ١٩٠٧ زار مفتش التعليم رفاعة وطلب بابكر بدري إذناً لفتح مدرسة بنات في بلدته رفاعة. تم الترحيب بهذا المشروع بحماس وأخبروه بأن السلطات ستكون راغبة في دعمه بشرط وجود على الأقل اثنتا عشرة بنتاً في المدرسة المقترحة عند ما يأتي المفتش مرة أخرى. وضمن الشيخ بابكر

وجود اثنتي عشرة بنتاً. وعندما جاء موعد التفتيش التالي كانت هناك اثنتا عشرة بنتاً منهن أربع من بنات بابكر بدري نفســه وخمس من بنات أخواته والبقية بنات أصدقائه الشخصيين. وكانت تلك مغامرة شجاعة لأنه في ذلك الوقت، فإن المسلمين ليس فقط في السودان، بل في معظم العالم الإسلامي لا يتسامحون في أي نوع من تعليم البنات. أما الآن فإن الجيل الجديد من السودانيين يطلبون المرأة المتعلمة لزواجهم. ويتم بناء مدارس البنات بالسرعة التي يتوفر بها المال.

لم ينتج تأثير بابكر بدري فقط في تدريس أساسيات التعليم لبضعة بنات، بل إن بناته وصديقاتهن ألهمن لتكوين جمعية لرفع مكانة المرأة في السودان وكسب مصالح لهن مما تتمتع به الآن أخواتهن في المجتمعات الأوروبية.

في ١٩١٧ تم تعيين الشيخ بابكر بدري مفتشاً للتعليم. وبعد أن تقاعد من خدمة الحكومة بدأ إنشاء مدارس الأحفاد في أم درمان. وبرهنت هذه الخطوة على أنها ناجحة للغاية، بحيث ضمت هذه المدارس في عام ١٩٥٠ أكثر من ٨٠٠ طالب. وعندما سمعت عنه آخر مرة علمت أنه يجوب السودان في محاولة لجمع ٦٠،٠٠٠ جنيه لمدرسته الجديدة. وهو عمل عظيم من رجل تجاوز التسعين من العمر. وقد استحق بجدارة وسام (OBE) ضابط الإمبراطورية البريطانية الذي أنعمت عليه به بريطانيا.

عندما ينظر إلى الماضي يرضى عن حياة متنوعة ومفيدة، فقد ينظر الشيخ بابكر إلى المستقبل بفخر وثقة. أحد أولاده كان أول سوداني يعين وزيراً للصحة، وأعضاء أخرون من عائلته أحرزوا تميزاً في مجالات كثيرة ومن تلاميذه واحد أعرفه جيداً وهو ثابت حسن الذي التحق بجامعة كمبردج لسنة واحدة وحصل على دبلوم في علم الآثار الذي يستغرق نيله عادة سنتين من طالب إنجليزي.

إن السودان مدين بالكثير للشيخ بابكر بدري حامل وسام (OBE) الرائد ذي الرؤى.

١٧ يناير من كل عام يعتبر عطلة عامة في السودان لتخليد ذكرى زيارة الملك جورج والملكة ميري للسودان في ١٩١٢. وتقام الألعاب الرياضية وسباقات الجمخانة في كثير من المدن. وكذلك السباقات والقفز وسباقات الحمير التي يجلس فيها الراكبون مواجهين لذيل الحمار وشد الحبل والعمود المغطى بالشحم في معظم برامج المنافسات التي تختلف لتناسب عادات ورغبات الناس في المديريات المختلفة. ففي مديرية بربر مثلاً كان الحدث الرئيسي في أحد الأوقات سباق الجمال لمسافة خمسين ميلاً. وفي واو بمديرية بحر الغزال كان البرنامج يتضمن منافسة رمي الرمح. يوضع تمثال شخص من القصب على مسافة ستين ياردة ويرميه الأهالي بالحراب.

في ود مدني عادة ما ينفذ برنامج طموح في يوم الملك، ولكن في إحدى السنوات كانت لنا مناسبة لم تكرر مطلقاً. وهو سباق أحذية لخفراء الحراسة الليلية وكانوا أكثر من ثلاثين متنافساً. أخذت أحذيتهم ووضعت أرقام بالطباشير على فرشاة الأحذية ثم وضعت الأحذية في جوالات مختلفة وعلى بعد ٥٠ ياردة. وكان على الخفراء الجري إلى الجوالات المختلفة والحصول على أحذيتهم ولبسها وربط الأربطة والعودة إلى نقطة البداية. لسوء الحظ فإن بعض الحراس (مع براعة أدت إلى قليل من الثقة لاحترام الملكية التي كان يجب أن يتصفوا بها كحماة للسلام العام) أخذوا أحسن زوج من الأحذية وجدوه وهربوا سريعاً. الضرب المتكرر على الكتف خلال الأيام القليلة الماضية دل على أن واحداً من الحراس بعد الآخر استعاد حذاءه المفقود. ولكن كان كل ذلك مزاحاً وقد حضرته أعداد كبيرة من الجمهور. وحتى بعض السجناء كان لهم مكان خاص حجز لهم. بالرغم من أن المتشددين في قواعد السلوك ربما

كانوا مرتبكين بعض الشيء عند رؤية حارس سجن يسلم بندقيته لسجين لحفظها له أثناء اشعال سجارته.

في عام ١٩١٩ نقلت إلى ملكال في مديرية أعالي النيل، وفي أثناء تهليل حرس الشرف من أولاد الكشافة الذين ساعدت في تدريبهم غادرت إلى كوستي في المرحلة الأولى من رحلتي.

منذ طفولتي كنت أعكف على قراءة يوميات لفنجستون واستانلي، وقد أثارني وصف مرض النوم في كتاب

(With Edged Tools)) لكاتبه سيتول ميريمان وكان بي نزوع لأذهب إلى قلب أفريقيا لأرى البحيرات العظمى وإن كان ممكناً أن أزور مناطق مرض النوم. وكان نقلي إلى ملكال قد أخذني خطوة أقرب إلى تحقيق أحلامي. ورغم أنني بعد سبع سنوات قضيت وقتاً قصيراً جداً في منطقة مرض النوم، إلا أنني لم أحدق في بحيرات أفريقيا الوسطى.

كنت اتخيل وأفكر أنه ينبغي الآن مقابلة أناس لم تتغير طريقة حياتهم لقرون، وأن أرى حيوانات جابت البلاد منذ عهود لم يسجلها التاريخ. لا يوجد تلميذ ذاهب إلى إجازته يمكن أن يكون أكثر استثارة مني عندما صعدت إلى القطار في ود مدني.

الباب التاسع

ملكـــــــال



الباب التاسع
ملكال

يا ويلتاه لبلاد مظللة بأجنحة وهي تقع فيما وراء أنهار أثيوبيا
التي ترسل سفراء بالبحر حتى في مراكب قصب البردي
على المياه قائلة اذهبوا أيها الرسل السريعون إلى أمة
مبعثرة وعارية إلى أناس فظيعين منذ بدايتهم وإلى الآن
أمة وزعت وديست بالأرجل والأنهار أتلفت أرضها!

إيسايا الآية ١٨ ‏ ١-٢ النسخة المعتمدة

آه أرض الأجنحة الطنانة
التي تقع فيما وراء أنهار أثيوبيا
التي ترسل سفراء بالنيل،
في مراكب من البردي على المياه!
إذهبوا أيها الرسل السريعون
إلى إمة أفرادها طوال وأجسادهم ناعمة
إلى أناس يُخشون عن قرب وعن بعد
أمة قوية قاهرة، تقســـم الأنهار أرضها

إيسايا الآية ١٨ نسخة منقحة قياسية

ما أجمل وصف البلاد القريبة من ملكال ووصف الشلك الذين لا بد أنهم سكنوا هناك! فقط إن الشخص الذي شاهد بنفسه الطيور وأطواف الطيور والشلك الطوال العراة المولعين بالحرب ومنطقة (السُد) يمكنه أن يلوّن صورة حية مثل هذه. ولكن كيف له أن يصل إلى تلك البلاد البعيدة في تلك الأيام البعيدة؟

ما لن نعطيه اليوم من تفاصيل الرحلة يبقى جزءاً مليئاً بالحيوية والتشويق! إن النيران التي دمرت مكتبة الإسكندرية، لا بد أنها دمرت أكثر من سجلات الحقائق الممتعة والأطروحات الفلسفية ونتائج الدراسات العلمية. ولابد أنه قد بادت في اللهب مساعي شجاعة إنسانية ترتفع إلى مراقي مهيبة كأي مما حققته روح الإنسان منذئذ. إن الخيال لا يمكنه أن يصور إلا المشاق التي عانوها والأخطار التي تغلبوا عليها قبل أن يصل المسافرون بحراً إلى البلاد التي تظللها الأجنحة، البلاد التي أتلفتها الأنهار، حيث يسافر الأهالي في مراكب من نبات البردي والناس عراة وفظيعون. ومن النادر أن يستطيع أي إنسان وصف منطقة في بضع كلمات ويمكن التعرف عليها دون أي شك بعد أكثر من ألفي سنة.

من الذي يعرف البلاد بالقرب من ملكال ويفشل أن يعرف فيها الأرض التي أشار إليها النبي إيسايا؟ حقيقة إنه لم يكن هنالك فكر لآلاف الحيوانات المتوحشة التي ما زالت ترتاد شاطئ النهر. لكن في تلك الأزمان البعيدة هذه الحيوانات كانت كثيرة جداً مما هي عليه الآن وتوجد على بعد مئات الأميال شمالاً. ولن يكون هنالك جديد في وجودها ولن تبهر المسافرين كما تبهره أسراب الطيور الكثيرة التي تملأ الممرات المائية. لمدة طويلة بعد مغادرتي مديرية أعالي النيل أتذكر البلاد، حيث عشرات الآلاف من طيور الماء تتأرجح في طيرانها العاصف وحيث آلاف من عصافير الدوري وعصافير الحبّاك وغيرها من الطيور الصغيرة التي تلقى ظلاً وحفيفاً على المياه.

حيث مالك الحزين.. شوه شوه قاه
يتغذى بين القصب والأسل

الطيور في مديرية أعالي النيل سحر وبهجة دائمة. طيور الغاق على شجيرة بجانب النهر وأجنحتها مشرعة لتجف وأبو سعن مع صدره الأبيض وهو

يمشي ببطء وهو كئيب على شاطئ رملي إلى أن تعثر وطار بعد جهود مضنية. وطيور الحبَّاك تطير مسرعة من غصن إلى آخر وهي ملونة بألوان قوس قزح مئات أكثر بجانبها. وهنالك حيوانات أخرى لم تكن لطيفة مثلها. عندما جاءت زوجتي كعروس إلى ملكال في سنة ١٩٢٢ وقعت عقرب على قبعتها عندما فتحت باب منزلنا. وفي وقت لاحق في المساء عندما كانت تقوم ببعض الاصلاحات في ضوء خافت رأت عقرباً أخرى مع شوكتها مرفوعة فوق ظهرها وهي تزحف على يد الكرسي الذي تجلس عليه، وكذلك ثالثة على علبة أدوات الشغل التابعة لها. وكانت تلك مقدمة محبطة إلى السودان، ولكنها أصبحت أكثر اشمئزازاً عندما ذهبت لحمامها المسائي وهي تحمل شمعة ورأت أفعى طويلة سوداء ترقد على عتبة غرفة الحمام.

لم أكتشف الطريقة التي وجدت بها هذه الأشياء الكريهة طريقها إلى داخل المنزل. حشرت بين طوب جدران منزلنا شريحة من الزنك سمكها حوالى ٣ بوصات وهي تمتد حول المنزل. ورغم أن هذه الحماية تمنع عادة الثعابين من الدخول، غير أنها ليست فعالة ضد العقارب. في أثناء السفر بالطبع ليست لدينا هذه الحماية. إحدى البواخر التي كنت أسافر فيها في مديرية أعالي النيل كانت تسمى (كيولكس) وهو نوع من البعوض، ويفترض أنها سميت كذلك لحجمها الصغير. ومعظم المساحة في الباخرة تأخذها الغلاية وخلفها غرفة صغيرة محصنة من البعوض، وكنت أعيش وأنام فيها وأتصبب عرقاً من حرارة الشمس والغلاية.

هذه الباخرة، مثل غيرها، تسير بوقود الحطب، ومعظمه من السنط. تقطع الأشجار بواسطة العبيد المحررين أو بواسطة العساكر الذين انتهت مدة خدمتهم بالألوية السودانية. ويتم رص الخشب في أكوام من الأمتار المكعبة بجانب النهر. وهذه الأكوام الخشبية غالباً ما تكون مليئة بالثعابين والعقارب.

وعندما نأخذ أخشاباً في الليل في ضوء نيران غير كافية كنت قلقاً دائماً لما قد يحدث لذلك احتفظ ببعض شفرات الحلاقة وبلورات بيرمانجنيت البوتاس قريباً مني لمواجهة المشاكل. وفي الباخرة يتم رص الوقود حول الغلاية. وفي كل وقت يرفع حمل من الخشب إلى ظهر الباخرة ضمنت أي نوع من الآفات الضارة قد تخرج منه. وفي ليلة كان عليَّ معالجة عدد استثنائي من لسعات العقارب. ويبدو أن معظم قاطعي الأخشاب قد تعرضوا للسعات العقارب وكنت قلقاً إلى حد ما، حيث أن غرفتي الصغيرة تبدو أنها ستكون المكان الواضح الذي ستلجأ إليه العقارب إذا كانت الغلاية ساخنة جداً أو كان السلم مزدحماً جداً. لوقت طويل كنت مشغولاً بفتح مكان للسعات بالشفرة، وهو أمر غير سهل في قدم جافة كجلد الحذاء وأضع بلورات بيرمانجنيت البوتاس وأعطي المصاب قليلاً من الويسكي. وأخيراً انتهى الويسكي. ومنذ تلك اللحظة لم تكن لديَّ حالة واحدة للسعة عقرب لأعالجها. وريثما نحصل على بعض الويسكي استسلم قاطعو الأخشاب لفصد أقدامهم وأصابعهم بطريقة قاسية جداً.

كنت شاكراً دائماً عندما نترك محطة تزود بالأخشاب دون حادث مؤسف خطير. في إحدى الليالي في غابة العرب اضطررنا إلى ترك التزود بالخشب كلياً بسبب كثرة الثعابين هناك. وفي الصباح التالي عندما أصبح التزود بالخشب ممكناً خرجت لمحاولة اصطياد فراشة «ورقة». كانت معي شبكة اصطياد الفراش ولمواجهة أية حالة طارئة قد تحدث، أخذت معي بلال حامل بندقيتي وبندقية ثقيلة في حالة مواجهة أسد أو فهد، ومعي أيضاً رجل شرطة ومعه بندقية خرطوش لمواجهة الحيات. وكانت زوجتي تجلس وهي تنظر باهتمام في محاولاتي الفاشلة لاصطياد فراشة، وعندما حدث أن نظرت إلى أعلى ورأت أفعى غليظة سوداء على فرع فوق رأسها على ارتفاع قدم أو

اثنين. نادتني وبمجرد أن ابتعدت أطلقت الرصاص على الأفعى. وبسرعة قام قاطعو الخشب بضربها حتى صارت عجينة قبل أن أتمكن من تحديد نوعها، ولكن من محيط جسمها الغليظ وأنياب سمها عرفت أننا قضينا على إحدى الأفاعي القاتلة. هذه الحوادث، رغم أنها غير سارة في ذلك الوقت، لم تسبب لها الحزن الذي ارتبط دائماً في ذاكرتها بوصولها إلى ملكال.

كنت ألعب التنس عندما وصل شلكاوي عارٍ تماماً إلى ميدان التنس مع سرج عرفته كسرج تابع لي. وبما أنني علمت أن زوجتي خرجت في نزهة بالحصان، فإن قلقي كان بالغاً. وبسرعة قفزت على حمار وتبعت الشلكاوي إلى قرية على بعد ميل ونصف، حيث وجدت زوجتي محاطة بمجموعة من الشلك وهم يحدقون بحزن إلى حصاني الراقد على الأرض، فقد سقط ميتاً عندما كانت في أول ركوب لها في أفريقيا.

كان حصاناً حبشياً رمادي اللون يسمى جبرائيل وكنت اشتريته بأربعة جنيهات قبل أربعة عشر عاماً وكان أفضل قيمة مما دفعته فيه. حصان ركوب رشيق وقد حملني لآلاف الأميال. وحتى الخدم كانوا ينظرون إليه كواحد من العائلة. في كل يوم ما لم أكن ساكناً في كوخ محلي يتبعني إلى منزلي لقطعة سكر ويصهل بانفعال ويقوم بتفتيش كامل للمنزل إلى أن أضربه ضربة خفيفة على كفله، وآمره بقولي اطلع يا أخي لأخبره بأنه قد حان الوقت ليغادر.

كان لديَّ أحصنة أخرى أثناء خدمتي في السودان. ومن هذه أتذكر جيداً الفجر الرمادي (Grey Dawn) وهو حصان سوري صحيح الجسم للعب البولو كان عليَّ أن أدفع في مقابله مائة وعشرين جنيهاً، وهو مبلغ ضخم في تلك الأيام وبعيد عن متناول إمكانياتي. ثم (SCARAMOUCHE) وهو حيوان بري نوعاً، ما أعطى فكرة خاطئة عن اسمه «كشخص جبان» وكسب لزوجتي عدة سباقات في بورتسودان. والحصان العنكبوت

الأحمر (RED SPIDER) وهو حيوان جميل صغير الجسم أنقذه شخص يحب لحم الخيل من سيارة في القاهرة. وبالرغم من حجمه الصغير أصبح حصاناً للعب البولو من الطراز الأول يعرف كثيراً عن لعبة البولو أكثر مما أعرفه. ويدور بطوله عندما أخطئ الكرة مما يثير كدري. كما لا أنسى بروجي (BRUGI) وكان يستعمله ضابط خيالة مشهور وحملني عندما كان عمره أكثر من ٢٤ عاماً متحدياً إعاقة عمره الكبير. وقد عمل على ألا أترك من اللعبة كلياً. وكيف أنهم جميعاً استمتعوا باللعبة! أستطيع أن أتخيلهم جميعاً الآن: العنكبوت الأحمر يمشي على أطراف حوافره مثل راقص الباليه، والفجر الرمادي يثب بمرح، وبروجي يحدق بنوع من التحدي لهياج الأحصنة الأصغر سناً، بينما يربط السايس وشاحاً أحمر بأحزمة السروج والمخطمة لمنعها من دفع رؤوسها إلى أعلى. وهي تعرف أن الوشاح الأحمر يعني بولو وهي مستثارة الاحتمال. ولكن جبرائيل كان يعني الكثير بالنسبة إلي من أي من هؤلاء؟. في أي وقت أفكر في أيامي الأولى في السودان، أفكر في هذا الحصان الأول الذي اقتنيته، وفي كثير من رحلاتنا معاً نزحف خلال الشجيرات ونعدو عبر السهل الرملي ونختار طريقنا بحذر في الأراضي الصخرية والحجارة الكبيرة. ولقد ذكرت بتحية تقدير وإجلال لأربعمائة ألف حصان قتل أو جرح في حرب جنوب أفريقيا مكتوبة على حوض شرب في بلدة بيرستو بمقاطعة سرى!

عظامها ترقد وهي تلمع في المرج المتناثر الأشجار
وحدوات حوافرها صدئت بلون أحمر
لقد ذهبت حيث الرمح والبندقية يرقدان
أحلام جميلة لجميع فيالق الموتى العميان المطيعين!
أحلام جميلة لجميع فيالق الموتى العميان المطيعين!
مرعى جيد في جزر المباركين!

جبرائيل لا بد أنه نال مرعى جيداً.

منزلنا كان من النوع المعتاد من الفلل الإستوائية ببرندة عريضة سقفها من القرميد الأحمر ومحاط بنملية مضادة للبعوض. ولضمان دخول أقل ما يمكن من البعوض، للمنزل مدخل مزدوج محصن ضد البعوض وبين البابين رواق صغير حتى إذا دخل بعض البعوض معنا، فهناك فرصة لحجزها في الخارج بالباب الثاني المزود بنملية. وفي كل يوم يقوم الخدم برش حيطان المنزل بمادة الفليت. ولا أستطيع التوقف عن مقارنة هذه البيوت للموظفين مع بيوت المبشرين في (جبل دوليب) على بعد بضعة أميال في اتجاه منبع نهر السوباط.

كان على المبشرين أن يبنوا بيوتهم بخبرة قليلة عن كيفية فعل ذلك، وبمساعدة قليلة من الناس المرتابين الذين استقر بينهم المبشرون وهم يسخرون من الأعمال الحقيرة التي كثيراً ما يقومون بها. وحتى عندما يقومون بوضع نوع من النملية المضادة للبعوض حول البيوت المصنوعة من الطوب الطيني، فإنهم يضعونها بصورة تنقصها الخبرة حتى إن الثعابين والعقارب تغزو أماكن سكنهم دون صعوبة. ولقد كرهت أن أرى أطفال المبشرين يحبون على الأرضية، حيث إنه في أية لحظة قد تواجههم أفعى أو عقرب. خلال موسم أمطار واحد قام دكتور هيستي، مبشر في جبل دوليب، بقتل ستة وخمسين أفعى كثير منها سام في أقل من ثلاثة أشهر، إما داخل المنزل أو في البرندة، وكذلك أصلة طولها ستة عشر قدماً في فناء داره الخلفي. لا بد أن الحياة في (جبل دوليب) كانت مليئة بالمفاجآت غير السارة. وفي مرة بدأت مبشرة في الخروج من فراشها لتجد أفعى كوبرا متكومة في نفس الموضع الذي كانت ستضع فيه رجلها. وفي مناسبة أخرى مس روجر، ممرضة، رقدت لراحة بعد الظهر ووضعت رجليها على بطانية واستيقظت لتجد أن كوبرا مكورة عليها.

رأيت عدداً كبيراً من المبشرين في (جبل دوليب) – وفي أجزاء أخرى من السودان – وكنت دائماً شديد الإعجاب بشجاعتهم وتحملهم وبالطيبة والايمان الذي يملأ حياتهم. عملهم كثيراً ما يكون بلا مكافأة وارتداد القليلين ممن اعتنقوا المسيحية إلى خرافاتهم القديمة مثبط للهمة بصورة لا تعبر عنها الكلمات لكنهم لم يتركوا الأمل. فقراء للغاية ولا يستطيعون أخذ إجازة إلى طقس أفضل، مما يعتبر مهماً للمحافظة على صحة الناس البيض الآخرين الذين يعملون في السودان. ولا يستطيعون تناول الكثير من الطعام المعلب الذي يعيش عليه بقيتنا إلى حد كبير. وحتى اللبن الطازج يعتبر رفاهية ونادراً ما يتم الحصول عليه. يمضي زمن طويل قبل أن يستطيعوا أن يزرعوا ما يكفي من الخضروات لاحتياجاتهم. عاشوا معظم الوقت على العصيدة وقليل من السمك ورغيف الذرة. وأحياناً إذا كان المبشر محظوظاً يحصل على اللحم من بقر الوحش أو الجاموس الذي استطاع أن يقتله. لم يستطع كثير من المبشرين الرواد في أفريقيا أن يعيشوا في طقسها المهلك على وجبات طعام غير كافية بدرجة مؤسفة. كتب المبشر سبيك (SPEKE) في عام ١٨٦٣ أن من بين عشرين مبشراً نمساوياً ممن سافروا على النيل الأبيض، مات ثلاثة عشر منهم بالملاريا خلال عدد من السنوات، واثنان بالدوسنتاريا، واثنان تقاعدا بصحة معتلة، و لم يتركوا واحداً من المواطنين ممن غيروا دينهم إلى المسيحية.

في ١٩٢٢ عندما كنت ذاهباً في إجازة من ملكال سافرت بالباخرة مع مبشر بادئاً في واحدة من إجازاته النادرة من (جبل دوليب) إلى أمريكا مع زوجته وأولاده الثلاثة، غادر ملكال مليئاً بالفرح لتوقع الإجازة التي تم تأجيلها طويلاً. في ملوط ثمانية وثمانين ميلاً إلى الشمال مرضت طفلتهما فجأة وماتت خلال بضعة ساعات ودفنت في الرنك مكان توقفنا التالي على بعد مائة وخمسين ميلاً.

بعد ستة أشهر سافرت مع نفس المبشرين مرة أخرى. وفي الرنك ذهبت مع الوالدين وابنيهما الاثنين لزيارة قبر ابنتهما. وفي تلك الليلة أصيب الولد الأصغر بالحمى ومات ودفن في ملوط. تلك كانت أياماً حزينة في (جبل دوليب)، حيث هنالك ستة مبشرين أمريكيين يحاولون نشر العقيدة المسيحية. واحد من الأطباء صار أعمى وآخر أعيد للوطن لعجزه بسبب المرض، ومات كل من زوج وزوجته تاركين أربعة أطفال أيتام.

لكن لا شيء ثبط من همتهم أو أوهن عقيدتهم. بعد هذه الأحداث ببضع سنوات، مات مبشر آخر في الناصر ومع ذلك بقيت زوجته لمواصلة عمله. كم هو سهل وكم هو طبيعي بالنسبة لها أن تغادر بلاداً بها مثل هذه الذكريات الفاجعة، وأن تواصل عملها في مكان آخر!.

هنالك مخاطر أخرى كان على المبشرين مواجهتها. في مناسبة جديرة بالذكر، ظل دكتور هيستي وزوجته أيقاظاً طيلة الليل بصراخ ونباح الضباع وزئير وهدير وزمجرة مجموعة من الأسود التي يبدو أنها كانت في حالة قتال معها. وقبيل الفجر أصبحت الجلبة مدمرة وذلك عندما ترددت أصداء زئير مخيف خارج نافذة غرفة النوم، أخذ الدكتور هيستي مصباحه الكهربائي وخرج إلى البرندة المحمية بنملية من البعوض ليتحرى الأمر. سمع وقع خطوات متسللة تقترب وأشكال مبهمة تلوح قريباً جداً بحيث يستطيع الدكتور هيستي أن يضع يده عليها لولا النملية التي تحول دون ذلك. تراجعت الأسود عندما رأت نور المصباح لكن هيستي وزوجته كانا تواقين لطرد الحيوانات بعيداً، لذلك تقدما خارج البرندة آملين بأن إطلاق طلقة ربما أخافت الحيوانات ففرت. وعلى بعد عشرين ياردة حدقت بغضب فيهما ثلاثة أزواج من العيون

ولكن عندما طلب هيستي من زوجته الإمساك بالمصباح فوق رأسه، بينما حاول هو أن يسدد البندقية إلى الأسود، كانت الزوجة مرتابة قليلاً عما

سيحدث في الظلام إذا جرح واحد من الأسود و لم يقتل. غير متأكدين مما سيفعلانه بدأ الدكتور والسيدة هيستي في التراجع داخل الحماية الضعيفة للنملية المانعة للبعوض، وفي الحال تبعتهم الأسود الثلاثة وهي تزأر تحدياً لهما.

مشى الدكتور هيستي خارج البرندة مرة أخرى وكشف بمصباحه عليهم. إثنان من الأسود استدارا بعيداً، ولكن الثالث بدأ المشي ببطء حول المنزل وتبعه الآخران. واندفع هيستي إلى الباب الجانبي على أمل وجود فرصة لإحكام التصويب عليها، وقد حيته الأسود بزئير غاضب، وجاوبتها ستة أسود أخرى كانت قد تجمعت بزئير مماثل. وانتظاراً للفجر بقلق، هيستي وزوجته وهما يستمعان إلى الضجيج الذي يكاد يصم الآذان إلى أن طرد الضوء المنتشر الأسود والضباع بعيداً. وبمجرد ذهابها، خرج هيستي إلى ساحة المنزل حيث كان من السهل اقتفاء آثار الأسود وهي تدور حول المنزل وتدور إلى أن وصل إلى كوخ خال ثم إلى كوخ آخر، حيث تحدث مع بعض الشلك المرعوبين. أحد الأسود حاول دفع باب الكوخ بمؤخرته، بينما انتظر الأهالي بحرابهم وهي مشرعة في اتجاه الأسد منتظرين بقلق ما سيفعله.

الأسود مخلوقات عظيمة لمشاهدتها في محيطها. ولكن رؤيتها في الأقفاص الحديدية أو مجبرة على تأدية ألاعيب مهينة في سرك هي دائماً كريهة بالنسبة لي. أحب أن أراها تمشي مشية ملوكية متشامخة عبر سهل مكشوف أو تأخذ طريقها بين حزام أشجار الصمغ. على العموم فإنها تحدث القليل من التلف. أحياناً تروغ من مراقبة الأهالي الذين يحرسون قطيع البقر فتقتل واحدة من الأبقار ولكن نادراً ما سمعت أنها هاجمت إنساناً. إن حيوانات الصيد كثيرة جداً في معظم الأماكن التي تسكنها، ولذلك ليست لديها صعوبة في إشباع جوعها من آلاف من بقر الوحش وحمير الوحش وغيرها من الحيوانات التي

تكثر فيها. صحيح أن الحيوان غير الناضج يقع فريسة لها، ولكن الأغلب الحيوان العجوز بطئ الحركة هو الذي يقع فريسة لها. وعلى ذلك فالأسود تعمل أكثر بقليل من تخليص القطيع من الضعفاء وترك الأقوياء ليلدوا ويكثروا النوع.

أحياناً تختار أماكن غريبة لتعيش فيها. وكنت مهتماً بقراءة مذكرة موجزة في سجل حكومة السودان الشهي : «ثمانية أسود سكنت في المسكن السابق لحاكم مديرية منقلا «.

مرة عندما كنت مسافراً بالباخرة في نهر الزراف حوالى منتصف النهار مع مفتش مركز قمبيلا، وكنا نراقب العدد الكبير من بقر الوحش وهي ترعى في الحشائش القصيرة ، رأيت، لدهشتنا أسداً يمشي ببطء، فقط على بعد بضعة ياردات من أقرب الحيوانات، و لم يبد أن أحداً منها منزعج بالمرة من وجود الأسد، ولا بد أنها بطريقة ما أو بأخرى قد علمت أنه في ذلك الوقت لا ينوي بها شراً. أوقفنا الباخرة ونزلنا. وكان دوري في إطلاق النار. ولكن لسوء الحظ جرحت الأسد فقط واتخذ طريقه إلى داخل رقعة صغيرة جداً من الحشائش الطويلة. نستطيع سماع تحريك ذيله وزمجرته على بعد بضعة ياردات فقط ولا نستطيع رؤيته وفشلت كل صيحاتنا لطرده إلى الأرض المكشوفة. وكنا نناقش أفضل طريقة لحرق الحشائش ودفع الأسد ليغادر مخبأه عند ما تطاير فوق رؤوسنا الفحم وقطع الحطب وكنت مركزاً التحديق على رقعة الحشائش ومتسائلاً من أين سيندفع الأسد من مخبئه وليس لدي وقت لأنظر خلفي، ولكن عند ما فعلت وجدت لدهشتي أن البحارة من الباخرة قد جمعوا بعض الفحم والحطب وكانوا يقذفونه على الأسد وكانوا غير مسلحين تماماً ودون رمح أو سيف بينهم. على أية حال كانت جهودهم ناجحة فقد غادر الأسد الحشائش الطويلة وأردته طلقة ثانية قتيلاً.

كانت مديرية أعالي النيل مكاناً رائعاً للعالم الطبيعي أو صائد الحيوانات الكبيرة فليس هنالك رحلة يمكن أن تكون كئيبة عند ما تكون هنالك فرصة لرؤية زرافة أو المرور على قطيع أفيال أو جاموس، ومن دون أدنى شك رؤية الكثير من أنواع مختلفة من بقر الوحش.

في يوم من الأيام كنت قد انتهيت للتو من جولتي الصباحية وكنت أتهيأ لإفطار متأخر عند ما رأيت بضع مئات من النوير رجالاً ونساء متجمعين حول بحيرة صغيرة. وعلى البعد أستطيع رؤية لمعان الحراب في ضوء الشمس. وعند ما اقتربت لمحت عشرات من النساء منحنيات فوق الماء. كن يصطدن السمك. وحول أطراف البحيرة الرجال يطعنون بحرابهم في الأسماك التي لا تحصى والتي تركتها المياه المتراجعة عن أطراف البحيرة. وغالباً ما يخرجون إلي الضوء سمكة مطعونة بحرابهم. وفي وسط البحيرة يقذف النسوة سلالاً مخروطية الشكل في الطين على أمل اصطياد بعض السمك الذي يحاول الهرب من الحراب المحيطة به. مئات من الأسماك تم طعنها بالحراب أو قبضها بالشباك. وأدركت أن عليَّ أن أختار بسرعة مكاناً آخر للاستراحة قبل أن تصبح رائحة السمك المتعفن طاغية.

مجموعة أخرى أتذكرها كانت في تونقا في ١٩٢٢ عند ما حدث أن كنت في مجموعة من الشلك الذين صادوا فرس النهر برمح الهاربون (Harpoon). لقد كان مشهداً مثيراً رغم أنني لم استطع مقاومة الشعور بالشفقة على فريستهم. كانت هنالك عشرات المراكب الصغيرة في كل واحدة منها رجل واحد يجدِّف بينما آخر يقف أو يبرك في مقدمة المركب وفي يده حربة هاربون مربوط بها قطعة طرور لكي تطفو الحربة بعد الطعن بها. فكلما طفا فرس النهر إلى السطح لكي يتنفس يقذفونه بحربة هاربون بالرغم من أن الكثير من الحراب قد أخطأته. وفي النهاية أصبح جسمه مليئاً بالحراب. ومثلما

وجدت الحراب أهدافها سحبتها المراكب التي انطلقت منها هنا وهناك إلى أن أنهك فرس النهر وحاول الناس سحبه إلى الشاطئ. وفي هذه المناسبة فإن الصيد الذي تواصل ليومين كاد أن ينتهي وقد راقبت فرس النهر وهو يسحب قريباً جداً من الوصول إلى اليابسة بواسطة مجموعة من خمسين من الشلك يمسكون بالحبال المربوطة بالحراب. ولكن عند ما أوشك أن يكون في اليابسة عندها بدأ في بذل قوة خروج الروح فشتت مجموعة الشلك في جميع الاتجاهات. كنت سعيداً لأن وصولي كان في الوقت المناسب لأخرج الحيوان من تعاسته بطلقة. لكن الصيادين لا يفعلونها دائماً بطريقتهم. كثير من المراكب تغرق في نهر يعج بالتماسيح بصراع أفراس النهر أو إغراقها عمداً بأفراس النهر.

أفراس النهر مثل التماسيح غالباً ما تحمل في اتجاه التيار في موسم الأمطار. في سنة ١٩٢٥ قوبل تمساح في شوارع الخرطوم مما أزعج بعض المارة المتأخرين في الليل عند ما رأوا الشبح الغريب. وتقول القصة أن ذلك حدث في ليلة سنت أندروز. ولم تقال كلمة عن هذه الحادثة لبعض الأيام إلى أن قام شخص لم يحضر عشاء ليلة سنت أندروز بذكر الحادثة في نادي السودان (Sudan Club).

في السنة التالية بعض أفراس النهر أخذت طريقها شمالاً حتى أبو حمد فقط ليرميها الأطفال بالحجارة على الشاطئ. شخصياً أنا لم أر فرس نهر على النيل الرئيسي إلا بالقرب من كدوك وكنت حزيناً لأفكر أن هذه سليلة حيوانات كان الفراعنة يرونها في يوم ما في مصر وأنها سنة بعد أخرى دفعت جنوباً بعيداً عن المياه التي عرفتها لأزمان طويلة. إنه جزء من الثمن الذي ينبغي دفعه لأعداد متزايدة من السكان في عالم لم ينوء بأكثر من طاقته. وبما أن فرس النهر يلحق كثيراً من الضرر بالمحصولات، ليس فقط بسبب الكمية التي يأكلها –

وهي ضخمة – ولكن بسبب مجرد مروره بأقدامه الضخمة خلال المزروعات ولذلك ينبغي أن تقتل.

وفي عام ١٩٠٩ طُلبَ مني إطلاق النار على فرس نهر من سنار وكان يدمر محاصيل القرويين. ولأسفي عند ما فعلت ذلك وجدت أن فرس النهر كان أُنثى ومعها عجل عمره بضعة ساعات فقط. وكان طوله يزيد بقليل عن ثلاثة أقدام ولا يبدي خوفاً من آسريه. ربطناه بحبل إلي دفة الفلوكه (زورق شراعي) وكنا نسحبه معنا في رحلاتنا على أمل أن نأخذه معنا في يوم من الأيام بأمان إلي القاهرة. يتم شراء الضأن والماعز لضمان الكثير من الحليب الطازج وتتم تغذية العجل الصغير على فترات متكررة من زجاجة. سارت الأمور على ما يرام لمدة أسبوع أو اثنين. وكنت أنا ودبوي دائماً حاضرين أثناء وجباته للتأكد من أنه يعطى دائماً حليباً طازجاً. وكنا من وقت لآخر نضطر لاستعمال الزورق لعبور النهر ونترك العجل في الماء مربوطاً إلي وتد في الشاطئ. وكان من المحزن سماع خواره المؤلم عند ما نغادره، لقد تم أخذ العجل في وقت مبكر بعد موت أمه وكانت تتم تغذيته بصورة دائمة من الفلوكه. ولا بد أنه أصبح يطابق الفلوكه بمصدر الحياة ولذلك يصاب بالرعب عند تركه وحيداً.

كثيراً من العناية قد أسبغناها على الصغير وكذلك كثيراً من الحب لذلك يجب أن تنتهي هذه القصة نهاية سعيدة. لكن في يوم من الأيام مات العجل بعد عودتنا من غياب تطاول أكثر من المعتاد. و لم يطل الوقت لنكتشف أن موظفينا الكسالى – بالرغم من الأوامر المشددة – قد أطعموه من زجاجة الليلة السابقة بدلاً من حلب نعجة وإعطاء العجل حليباً طازجاً.

من بين جميع الحيوانات الضخمة التي ما زالت ترتاد هذه الأراضي فرس النهر. وبالرغم من أنه مدمر أحياناً لمحاصيل الناس لكنه الأقل عدوانية نحو

الإنسان إلا إذا كان لديه سبب معقول. وفي الأسر فإنها سرعان ما تصبح أليفة. هناك واحد يسمى « سيد « في حديقة حيوان القاهرة يخرج من الماء عند ما يناديه الحارس ويقوم بألاعيب عديدة لأي شخص يشاهده.

فرس النهر كان دائماً بالنسبة إليّ من أكثر حيوانات أفريقيا الفاتنة. أحببت أن أنظر إلي مجموعة من أفراس النهر وهي تغطس تدريجياً تحت الماء ثم بعد فترة قصيرة تأتي إلي السطح للزفير أو التحديق حولها بعيون صغيرة بصورة مضحكة بالنسبة إلي جسم ضخم. في مجموعة مع فرس النهر والسحلية المراقبة وتنين كمودو فإن فرس النهر هو واحد من الحلقات القليلة الباقية مع الأيام عند ما كان الديناصور يتمرغ في الوحل البدائي والزواحف المجنحة تلقي ظلالاً ضخمة على الأرض.

إن العالم سيكون أفقر إذا انعدمت أفراس النهر من مياهه.

الباب العاشر

هـــرم دنقكـــور

الباب العاشر
هرم دنقكور

من جميع القبائل في السودان التي كان عليَّ أن أتعامل معها ، قليل منها كان فهمها صعباً جداً على الإدارة مثل النوير. إنهم أناس متمردون عنيفون قليلو التحمل لأي نوع من السيطرة مع رغبة عاطفية للاستقلال مما أثار فينا احتراماً معيناً بالرغم من جميع المتاعب التي سببوها لنا. « لا نريد حكومة من أي نوع « قالوا كذلك « لا نريد ما تسمونه أنتم الترك تقدماً. كل ما نريده هو أن نترك وحدنا «. عند ما أفكر في الطريق الذي ساقتنا إليه مدنيتنا التي نفتخر بها، التكتيل أو التجميع غير الطبيعي لمجموعات كبيرة من السكان في مناطق سكن مزدحمة وغير صحية ، المجازر اليومية في الطرقات وفي الأزمنة الأكثر حداثة ، الخوف من القنابل النووية والصواريخ الموجهة، أشعر بكثير من التعاطف مع وجهة نظر النوير. لقد عانوا بصورة مؤلمة في زمن مضى على أيدي تجار الرقيق والدراويش وكرهوا رؤيتنا لأنهم يماثلون جميع الناس الذين لهم سحنة فاتحة مع الأتراك والمصريين والعرب الذين عاملوهم دون رحمة. نحن الإنجليز يشار إلينا دائماً بكلمة «الترك» حتى إلي الوقت الذي تركت فيه السودان. لذلك فإن مشاكلنا في إدارتهم قد ازدادت بصورة كبيرة بسبب هذا الخلط المؤسف. وقد كرهوا حتى هذا الزي الذي نلبسه. ومرة عندما كان الأسقف قوين يتحدث إليهم عن عدائهم للحكومة ، قال له أحد النوير « نحن النوير رجال أحرار ولا نريد أي شيء له صلة بحكومتكم أو أي حكومة أخرى. أنتم أيها الترك عبيد. نحن نمشي عراة ولكنكم أنتم مع ملابسكم لستم إلا خدماً للحكومة. أنظر إلى رجل الشرطة ذلك في زيِّه الرسمي. ذلك علامة على الاستعباد. عليه أن يعمل ما تأمره به الحكومة أن يعمله «.

مما لا يسر أن الاستقلال الذي يطالبون به لأنفسهم فإنهم يرفضون منحه للآخرين. كانت هنالك غارات مستمرة من النوير لأجل النساء والماشية ضد الدينكا الأقل عدوانية الذين يعيشون بالقرب منهم. هذه الغارات جعلت من الضرورة إرسال دوريات شرطة ولهذا على النوير أن يدفعوا.

المجتمعات المتحضرة وغير المتحضرة لديهم على أية حال شيء واحد مشترك. . عدم الرغبة في دفع الضرائب. الضرائب في مديرية أعالي النيل خفيفة جداً. بضعة رؤوس من الماشية مرة في السنة وهذه مفروضة لأسباب سياسية أكثر منها اقتصادية. علينا أن نذهب ونجمع الماشية وإن التكلفة والجهد لجمع عدد قليل من الماشية وبعد رحلة ثلاثمائة ميل كما تشمل الغياب عن مقر الرئاسة لعدة أسابيع تعتبر بنتائجها غير مجزية. لكن دفع هذه الضريبة كان دليلاً مشهوداً ان هنالك حكومة لا تتسامح في سرقة الماشية هذه. وقد حاولنا أن نشرح أسباب جمع الضرائب بالرغم من أن كثيراً من رجال القبائل يجاهرون بأنهم لا يرون فرقاً بين أن تجمع الحكومة بمساعدة بضعة من رجال الشرطة ست رؤوس من الماشية، وبين إغارتهم على الدينكا لعدة مئات من الماشية. كان ينبغي أن نفضل أن تدفع الضريبة نقداً أو شيء آخر بخلاف الماشية ولكن لما كان النوير لا يستخدمون النقد وليست لديهم عملة أخرى، فإنه لم يكن لدينا بديل.

عدم الرغبة في دفع الضرائب عبر عنه زعيم من النوير، كانت الحكومة قد قدمت له «عنقريباً» كمكافأة لعمل مفيد قام به « ماذا « هتف متعجباً بنبرة مصدوم « تعطوني عنقريب ؟ لا عنقريب لي. ماذا أفعل إذا أرادتني الحكومة أن أدفع ضريبة ؟ لا أستطيع أن أهرب إذا كان لديَّ عنقريب لأحمله «.

كل تركيبة الحياة الاجتماعية والاقتصادية للنوير قائمة على الماشية، يدفع بها مهر العروس وهذه كانت في أساس كثير من إغارات الماشية على الدينكا.

فالشبان الشجعان يأملون في الحصول على مهر العروس وليثبتوا رجولتهم في القتال. فأناس بهذه الاستقلالية ليس لديهم احترام كبير لزعمائهم القبليين ويفضلون أوامر العرَّاف الاستبدادية غريبة الأطوار، ويكون العرَّاف أحياناً هو زعيمهم القبلي. يعتقد النوير أن العرَّاف على اتصال بالروح العظيم (The Great Spirit) ويستطيع أن يسبب العقم للنساء والماشية وينسبون له قوة القتل بالسحر لأي شخص ينتهك حقوقه أو لا يطيعه. ولا نستغرب أن هؤلاء العرَّافون كانوا دائماً يشكلون تهديداً للحكومة وهم يدركون أن الحكومة مصممة على الحد من نفوذهم الشرير في المجتمع الذي يخضعونه بالخوف. وكان (قويك ووندنق) مثال لهذا العرَّاف.

في صيف ١٩٢٠ كانت هنالك إشاعات متواصلة في مديرية أعالي النيل أنّ العرَّاف قويك يعتزم تحدي الحكومة. واسمه قويك يعني « ضفدعة « في لغة النوير. وهي بوضوح تسمية الأشياء بحكاية أصواتها وقد أعاد إلي الذاكرة « بريكيكيكس كوكس كوكس « لارستوفانيس في كتابه " Frogs ".

كان للعرَّاف قويك نفوذ عظيم على النوير. وكانت عائلته مصدر إزعاج دائم للحكومة. وفي وقت مبكر كسنة ١٩٠٢ كان لا بد من إرسال دورية للتعامل مع بعض أقاربه. وهذا العرَّاف مصاب بالصرع ولديه شهوة السلطة وقد أعطته الهجمات المتكررة لمرضه فرصة كاملة لإشباعها. بالنسبة للنويراوي البدائي فإن كل نوبة مرضية هي علامة مرئية للوحي الإلهي وعند استعادة وعيه يأتي قويك برسائل من العالم الآخر الذي يدعي أنه زاره. أحياناً هذه الرسائل القصد منها فقط نوع من تحسين نفوذه الشخصي ولكن غالباً ما تكون مقدمة لإغارة على الدينكا أو لإعداد النوير لليوم الذي سوف يطردون فيه « الترك « من بلادهم.

بحلول شهر أغسطس تبلورت هذه الإشاعات الغامضة في شيء أكثر تحديداً.

بعد نوبة الصرع الأخيرة للعرَّاف قويك أخبر النوير بأنه قد عاد بتعليمات من نيا ليتش (إله القبيلة) للإغارة على الدينكا ثم مهاجمة الحكومة. خلال موسم الأمطار كان من المستحيل الوصول إليه حيث أن المنطقة غارقة في المياه. لكنني قد حُذرت في سبتمبر أن عليَّ أن أذهب في الشتاء وأرى ماذا كان قويك يفعل وأن آمره ألا يفعل. ولكن هذا الأمر ليس بالسهل كما يبدو. لشيء واحد، فبالرغم من أن الدوريات العسكرية قد زارت موطنه أكثر من مرة، فقد كانت مشغولة جداً بواجبات أخرى كمسح المنطقة بتفصيل. فالخرائط القليلة الموجودة أظهرت مساحات كبيرة فارغة وبها قيد بين الفينة والأخرى مثل « سهل معشب أو شجرة «. تم التبليغ عن « حفرة بها ماء هنا في أبريل ١٩١٤ وشوك « وهذا الآخير برهن على أنه صحيح حيث أننا وجدنا زيادة التكلفة بعد بعض الشهور وكان علينا أن نمشي بأحذية ذات ساق طويل وأردية قصيرة خلال مساحات كبيرة بها أشواك تصل إلي الركبتين. تقريباً لا شيء معلوم عن أين نجد الماء. والمعلومات الضئيلة التي لدينا تعني أنه نادر وغير مستساغ بدرجة كبيرة وأن النوير سيبذلون جهدهم لمنع الحصول عليه. هذه المعلومة بالرغم من أنها ضئيلة برهنت أيضاً على أنها صحيحة. الناس رفضوا أن يخبرونا أين يوجد الماء. وعند ما وجدناه كان الماء غالباً مثيراً للاشمئزاز ، و كنا في حيرة إلى حد بعيد ما إذا كان من الأفضل تركه والثقة في أن نجد أفضل منه عند ما نتقدم.

قيل لنا إنها ستكون هنالك فرصة ضئيلة للعيش في المنطقة بالرغم من أملنا أن نستطيع أحياناً صيد ظبي أو بعض البط. وبما أن هذا هو الطعام الوحيد الذي نستطيع توقعه ، كان علينا أخذ أكثر قدر من المواد الغذائية التي نستطيع حملها وكذلك احتياطات من الماء في أوعية من الزنك التي غالباً ما تكون غير كافية لاحتياجاتنا وهذه أبرزت مشكلة أخرى. لا نستطيع استعمال

الجمال التي تستطيع نقل حمل من ٣٠٠ رطل أو أكثر وذلك بسبب انتشار ذبابة قاتلة. لذلك كان علينا الاعتماد في النقل على الحمير التي عادة تتطلب ثلاثة أو أربعة أرطال من الذرة في اليوم ولا تحتمل وزناً أكثر من حوالي ٨٠ رطلاً. بما إنه ينبغي أن نقضي على الأقل ٦ أسابيع أو ربما أطول بكثير فمن الواضح أن الحمير لا تستطيع حمل طعام لنفسها إذا كان لا بد من حمل طعام، وكذلك فرشاً لنا ومعدات معسكر. كان كل ذلك لا ريب مغامرة للحيوانات والرجال. قررنا توزيع حصص للحمير من رطل واحد من الذرة مرة في الأسبوع ونتركها لأخذ أفضل ما تستطيع من الأنواع المختلفة من العشب المتاح. إن كانت ستحب النوع المعين من العشب الذي نصادفه وإن كانت تلك الأعشاب ستجعلها في لياقة تامة. كانت تلك أسئلة ليست لدينا إجابة لها. على أية حال ، الحمير كانت تعيش في هذه المنطقة من قبل ويفترض أنها ستكون قادرة على العيش.

المشكلة الرابعة كانت تقرير متى سنزور قويك. إذا ذهبنا في ديسمبر فستكون هناك الكثير من المياه. ولكن لمعادلة هذا فإن النبات سيكون ارتفاعه من ستة إلي عشرة أقدام وسيكون أخضر وغير محروق وسوف يشكل غطاء جيداً من أي فرد معاد من النوير يرغب في قذف رماح على المجموعة، وإذا ذهبنا بعد بدء الحريق السنوي للحشائش فهنالك مخاطر أقل من الرماح ولكن مخاطر أكبر من العطش.

جمعت مثل هذه التقارير عن الطقس والمطر بقدر ما استطعت وقررت البدء حوالي منتصف يناير عند ما يكون هنالك بعض الماء إذا كان يمكن أن يوجد. كثير من الحشائش بحلول ذلك الوقت تكون جاهزة للحرق. وبهبوب ريح شمالية متواصلة خلفنا تستطيع مجموعتي الصغيرة إشعال النار في الحشائش في كل يوم والتحرك في أثرها.

لكن بقيت المشكلة الأخيرة والأصعب – وهي إقناع مترجم الحكومة ، توت دينق ، لمرافقتنا. لم أكن راغباً في إصدار أمر إليه لمرافقة حملة قد يحتمل أن تنتهي إلى قدر معين من الأشياء البغيضة. ولكن بما أنني لا أستطيع الحديث بلغة النوير كنت عديم الحيلة بدونه.

في البداية رفض الذهاب بالمرة. ولكن فيما بعد لان إلى الحد الذي قال فيه إنه سوف يرافقني شريطة أن يكون لدي دعم من لوائين من القوات كاملة مع مدافع ميدان ورشاشات. كان هذا خارج تماماً عن الموضوع ومستحيل. ولم يكن هنالك من شيء لمعالجة الأمر إلا بالتوسل إليه بجشعه وحبه للنساء وبوعده أثناء رجوعنا ببقرتين حلوبتين مما سيمكنه من شراء زوجتين أخريين ليضيفهما إلى أسرته المكدسة سلفاً.

بعد بعض الأسابيع من التشاور وبحث مطوّل لعروسين جذابتين وافق توت دينق ليذهب معنا. وفي ١٧ يناير ١٩٢١ ، دكتور فوتنر الضابط الطبي للصحة وشخصي ركبنا الباخرة في ملكال في المرحلة الأولى من رحلتنا.

يبدو أن هنالك عدداً هائلاً من الرجال والحيوانات والمعدات لحشرها في الصندل الصغير بجانب الباخرة وستة من الشرطة وتسعة خدم وسائقي حمير وصيدلي وثلاثة أحصنة وستة بغال وثمانية عشر حماراً. وبالإضافة إلي ذلك كان لدينا طعام لشهرين وأدوية من أنواع مختلفة وفرش وبنادق ومعدات مخيمات وخرز وغيره من الهدايا للناس، وأوعية من الزنك للماء وبعض سوائل التطعيم التي أرسلت خصيصاً من القاهرة وكانت محمولة في قرب ملآنة بالماء. مغادرتنا أحدثت كثيراً من الاهتمام وجاء أناس كثيرون لوداعنا.

في النهاية كان كل شيء جاهزاً ووسط دعوات بصوت عال ليعيدنا الله سالمين

، تركنا الشاطئ المزدحم خلفنا.

اتخذنا طريقنا إلى أعالي نهر السوباط ، نتوحل على فترات متكررة على مرتفعات رملية في النهر تدفع فيها الباخرة الصغيرة وتسحب بواسطة البحارة الذين يقفزون في نهر يعج بالتماسيح وليس أي شيء أكثر فعالية من صياحهم أو إثارة رشاش الماء لإبعادها عنهم.

قضينا يومين في أبيونق لإجراء ترتيبات لمخزونات من الذرة والمياه على طول طريقنا وفي تقدير ضريبة التجار على بعض الإغريق والباعة المتجولين من الأهالي الذين جعلوا رئاستهم في أبيونق.

كان تقدمنا بعد أن غادرنا أبيونق بطيئاً. ومعظمه كان باختيارنا كضرورة. أردنا أن تتسرب الأخبار إلى العرَّاف قويك بأن بعثتنا سلمية. وكنا مهتمين أيضاً بإقامة علاقات صداقة مع الناس وذلك بعلاجهم من أمراضهم المختلفة. وبجانب هذا فإنه باكتساب أصدقاء على طول طريقنا فإننا نضمن أنه لا يوجد سكان معادون في مؤخرتنا إذا اضطررنا إلى تراجع سريع. كما إنه يوجد الكثير مما يشغل وقتنا في بلاد غير معروفة نسبياً. أخذ عينات من التربة من أعماق مختلفة، وجمع النباتات والأعشاب، و كثير من أعمال الصيد للأكل. وربما كان الأكثر أهمية محاولة عمل نوع من الخرائط للبلاد. وليس بالأمر السهل إجراء رسم تخطيطي بالبوصلة خلال حشائش قد يصل ارتفاعها إلى ١٢ قدماً ومن غير معالم أرضية نأخذ منها الاتجاه. لقد كانت مهمة مملة إذ إن اللقطات الطويلة مستحيلة وإن الاتجاهات الوحيدة التي يمكن أخذها كانت على منديل ملون يحمل على طرف بندقية بيد شرطي على بعد خمسين أو مائة ياردة. لقد كنا محظوظين إذا عملنا ستة عشر ميلاً في نهاية يوم من المشي.

المنطقة التي مررنا خلالها كانت مملة. والحقيقة أن قليلاً منها كان يمكن أن يرى فيما بعد حيث الحشائش المحروقة التي أعطتنا مشهد مجاز ضيق من ميل أو ميلين حولنا. وحتى ذلك فإنه لا يوجد الكثير ليجذب النظر في ذلك الامتداد المسطح الرمادي الذي تكسره هذه الرقع المسودة أو لمحة من لون أخضر غامق في الأفق الذي يدل على مجرى ماء ضحل علينا أن نخوضه في وقت لاحق. كانت هنالك أشجار قليلة : أحياناً شجرة « سجك « أو أجمة من أشجار الصمغ بلحائها الأحمر الذي يلمع في ضوء الشمس. الرحلة كانت ستكون أكثر رتابة لولا قطعان الظباء والحيوانات البرية التي تظهر من حين لآخر. وآثار الأسـد والفهـد والزراف شائعة في بعض الأماكن. وهنالك حفر بعمق قدم أحدثها الفيل وهو يتخبط أثناء الأمطار مما جعل من الصعب المحافظة على أتجاه سيرنا. والذباب الذي يعض عذب الرجال والحيوانات سواء بسواء. وأحد الحمير سرعان ما هلك بعد بدء الرحلة.

في كل ليلة كنا نحرق الأعشاب قبل تحركنا في اليوم التالي. وفي اليوم التالي نمشي على الرماد الذي يثور في الهواء ويملأ عيوننا وآذاننا وأنوفنا قبل ريح الشمال التي تبدو مهتاجة خاصة حوالي أوقات الوجبات عند ما نبتلع تقريبا كمية من الرماد مثل كمية الطعام.

بعد ظهر أحد الأيام كان حريق أعشاب ضخم امتد لبعض الأميال قد اندلع خلفنا وقد أسرعنا إلي الأمام لنهرب منه. هبت الريح الشمالية بشراسة وجاء اللهب بسرعة قريباً منا. وقد بدا أن هنالك فرصة ضيقة للنجاة. وعند ما بقي حوالي ميل أمامنا رأينا بقعة بخضرة داكنة فأملنا أن يكون مستنقعاً. ضربنا حيوانات النقل التابعة لنا لتسرع وأطلقنا دعوات حارة بألا يلقي حيوان بحمولته مما سيجبرنا على تركها. أسرعنا نحو المستنقع. وكان لدينا وقت فقط للوصول إلى بعض الحشائش في الجانب الشمالي من المستنقع لحجز

اللهب بعيداً عنا قبل أن تصلنا النار.

لم يكن مكاناً نختاره للمعسكر الليلي إن كان لنا خيار في الأمر. آلاف مؤلفة من البعوض تستعد لوليمة غير متوقعة. وكانت هنالك رائحة كريهة مقززة من المياه الراكدة. الحيوانات مربوطة لترعى في المساحة الصغيرة الموجودة بجانب المستنقع وهي مهتاجة دون انقطاع من منظر ورائحة الحريق.

بعد يومين كان فوتتر وشخصي جالسين أمامنا منضدة معسكر صغيرة نتناول الإفطار عند ما لفت انتباهنا صياح همجي من ثلاثين إلى أربعين من النوير على بعد مائتي ياردة يلوحون بحرابهم ويندفعون نحونا. ولما أصبحوا على بعد خمسين ياردة رأينا أفعى خضراء طويلة مندفعة نحونا والنوير في مطاردة ساخنة وراءها. ودون مراعاة تامة لشعورنا عمدت الأفعى إلى منضدتنا بسرعة هائلة ورأسها مرتفع عن الأرض وجسمها مستقيم كالرمح. وعند ما أصبحت على بعد ياردة أو اثنتين ترك فوتتر كرسيه وحاول أن يقفز فوق الأفعى التي رفعت جسمها بضعة بوصات فوق الأرض وانزلقت فوق رجليه واختفت. كثيراً ما كانت هنالك مناقشات في مجلة فيلد (Field) وغيرها من المجلات عن السرعة التي تستطيع الأفاعي السفر بها. وهنا دليل أن بعضها على أية حال يستطيع التحرك بسرعة عشرين ميلاً في الساعة. والنوير عداءُون جيدون (يستطيعون اللحاق بالظبي والزرافة) وقد هب جميع النوير وراء الأفعى ولكنها ربما كانت ممبا خضراء قد تغلبت عليهم في السرعة و لم يلحقوا بها.

ما إن جلسنا لمتابعة الإفطار حتى ظهر مزيد من الإثارة التي يبدو أن للشرطة دوراً نشطاً فيها ، فبما أن مهمتنا إلى قويك العرَّاف هي مهمة سلمية فقد كان مما يربك أن ترى الشرطة تندفع والسونكي مشرع في البنادق. على أية حال الوضع لم يكن متجهماً مثل ما بدا. و لم يكن أكثر من محاولة تجريد مجنون من

سلاحه حيث كان يبحث عن شخص ليغرز فيه حربته. قررنا أن ننهي وجبة أصبحت حتى الآن شبه باردة والتعامل مع الرجل فيما بعد.

اليوم التالي أو اليومين مرت أكثر هدوءاً. النوير الذين كان معظمهم مختبئاً في الحشائش الطويلة ورافضاً مقابلتنا، بدأوا في الخروج وجاءوا للعلاج الطبي وقليلاً من الهدايا. فوتنر وشخصي كنا نهنئ أنفسنا لكسبنا في النهاية لثقة الناس عند ما سمعت صيحات صادرة من أحد أكواخهم في الوقت الذي كنا نفتش فيه حظيرة ماشية لشخص مطلوب في سرقة ماشية. كل شيء كان يسير بسلاسة ولا يبدو أن هنالك سبباً لهذا الانفجار غير المتوقع ، ركضت إلى الكوخ ووجدت المرمطون (مساعد الطباخ، ولد عمره ١٢ سنة) يطعن بحربة امرأةً عجوزاً بداخل الكوخ.. لماذا يجري مسعوراً وبرغبة في القتل ما لم يكن ذلك تذكراً للمجنون الذي رآه قبل يوم أو يومين. لا أحد يدري. على أية حال عند ما قبض عليه وبطحوه على الأرض وجلدوه خمسة عشر جلدة فإن النوير قد استقبلوا هذا الأمر بارتياح وسرور لهذا المثال لتطبيق العدالة غير المنحازة.

مجموعتنا الصغيرة بدأت تتخذ بحلول هذا الوقت أبعاداً ملوكية. وبالرجوع إلى يومين يتضح بصورة أو أخرى أن عددنا، تدريجياً، ولكن الآن بصورة ملحوظة، بدأ يزداد، وكثير من الأهالي انضم إلينا من وقت لآخر. أحد النوير يحمل سخلاً. خمسة سجناء إلى السجن في ملكال. وسيكونون قد قضوا معظم محكوميتهم في الوقت الذي نعود فيه. إمرأة من الدينكا بغليون كبير وسلة فارغة وهي تتوقع أن نقوم بملئها لها من الطعام، بول كانق (دليل) بعفش مماثل ولكن بإضافة مثيرة للإعجاب في صورة تابع ليحمل له غليونه. وشخص آخر من النوير كرشه منتفخة جداً بالطائر الذي اصطاده بالأمس بحيث أصبح مستديراً كالقرعة (Gourd). ثلاثة من النوير يدفعون خرافاً

وماعزاً، وتسعة وخمسون آخرون من النوير يبحثون عن ماشية ضائعة أو مسروقة أي شيء بين عشر وخمسين سنة ماضية. إنهم متفائلون بصورة كافية بأنهم سوف يستطيعون التعرف على هذه الحيوانات أو على نسلها وهم يتوقعون أن أعيدها إليهم. الجميع ، مما أعلمه عنهم يتوقعون فوتنر وشخصي أن نقضي معظم وقتنا نصطاد لهم ببنادقنا وسوف يشعرون بالحزن إذا لم نفعل ذلك. بالرغم من أنهم عادة ربما لا يأكلون اللحم أكثر من مرة واحدة كل شهرين أو ثلاثة شهور.

اقتربنا الآن من دنقكور موطن العرَّاف قويك، وقبل أن نبلغ مقصدنا أقمنا علاقات صداقة مع الناس المحليين بحيث استطعنا تطعيم أكثر من ألف وثمانمائة شخص في أقل من يومين. لقد كان أداءاً رائعاً. كان جميع الأطفال تقريباً يصرخون كأنما كانوا يتوقعون أن يقتلوا. وبمجرد أن يبدأ أحدهم في الصراخ يتبعه الآخرون. ظل النوير يصيحون بأوامر متضاربة بأعلى أصواتهم ومما زاد من الاضطراب كل أسرة تقريباً أحضرت كلابها التي تتشاجر دون انقطاع طيلة اليوم. ضوضاؤها لا توصف وتخللها قصف من الضحك كلما اندفعت كلاب هائجة نابحة وأزعجت المشاهدين الغافلين الذين يشاهدون معارك الكلاب التي لا تحصى.

بالرغم من أن الرسل قد أرسلوا في المقدمة لإبلاغ العرَّاف قويك أننا قادمون في مهمة سلام إلا أن الشائعات ظلت تصلنا عن القوة المسلحة التي يقوم بجمعها. توقفنا لليلة حوالي ستة أميال من دنقكور. وبعد أخذ ما نستطيعه من احتياطات بسيطة ضد هجموم مباغت. وفي الصباح التالي وبعد تحذير بقية المجموعة لإعطائي فترة ساعة للتحرك قبلها ثم تلحق بي كالمعتاد بقدر الإمكان وذلك لتفادي إعطاء انطباع بأن عددنا الكبير هو قوة عسكرية. وألا يقتربوا مطلقاً ما لم يكونوا متأكدين أن كل شيء على ما يرام. تحركت

على حصان أبيض ومعي توت دينق وغليوني المعتاد وذلك لمقابلة قويك.

دنقكور مكان ممتع بهرم ضخم من الطين يبلغ حوالي أربعين قدماً في الارتفاع يرتفع من القمة رمح مزخرف ببيضة نعام وريش نعام وقاعدة الهرم محاطة بأنياب أفيال.

في اتجاه الشمال مجموعة من الأكواخ المبنية بالأعشاب بجانب بركة صغيرة. على أية حال لم استطع قضاء وقت طويل في تأمل المنظر ما عدا أنه في السهل العشبي الخالي من الشجر قليل من السواتر إذا هوجمنا.

من جميع الجهات مئات من النوير العراة كانوا يمشون نحو الهرم وجميعهم مسلحون برماح بطول ٦ أقدام ودرع. والبعض يحمل عصا خشبية أو نبوت كذلك. ومعظم الرجال يلبس سواراً وحشياً شائكاً.

إن أجسامهم الطويلة النحيلة بيضاء من رماد نيران روث البقر الذي ينامون بجانبه في حظيرة الأبقار والذي يعطيه مظهر هياكل عظمية حية. جباههم مخططة بستة خطوط من الجروح تمتد من الأذن إلى الأذن وخطوط من الجروح المندملة عبر البطون أو الجزء الأعلى من أذرعتهم وهو ما يعطيهم منظر الموتى. وهذا المنظر غير الحقيقي يزداد بصورة كبيرة كلما اقتربوا. ومثل النوير الذين قابلتهم من قبل يمكن أن يرى أنهم جميعاً بدون الأسنان القواطع الستة السفلى. الشلك والنوير والدينكا وغيرها من القبائل التي تمتلك الماشية فإنها تخلع هذه الأسنان بحربة في الطفولة الباكرة. السبب في هذه العادة الغريبة لم أعرفه إلى أن صرت أعرف هؤلاء الناس بصورة أفضل. اقترح عليَّ أحد النوير مرة أنه ينبغي عليَّ إزالة قواطعي الستة السفلى وعند ما سألته عن السبب تلقيت إجابة ازدرائية بأنه بفعل ذلك سأبدو أقل شبهاً بالضبع. أما السبب الحقيقي وهذا ، قيل لي ، كان مختلفاً بالرغم من أن النوير لا يرغبون في

أبدائه. كل شخص من النوير لديه ثور مفضل ويسمى تبعاً له. وبين الاثنين هناك صلة سحرية. فالنويراوي يلعب مع هذا الثور المفضل ويغني له ومن خلاله يستطيع إقامة صلة مع روح الثور ويحصل على المساعدة منه. وعند ما يموت هذا الثور يمضي النويراوي في الحزن عليه ويخلع سوار ذراعه المنحوت من سن الفيل وغيرها من الحلي ويضع عقداً من خرز حول وسطه. وبما أن الماشية ليس لديها قواطع سفلية في فمها فإن النوير يزيلون قواطعهم السفلية كذلك حتى يكون تطابقهم مع ماشيتهم كاملاً.

إن منظر النوير غير الجذاب يزداد بطرقهم في تصفيف شعرهم، وهذا يصبغ أحياناً أحمر ثعلبي، في محلول من بول البقر، وفيما بعد يتم تجعيده إلي طول من ستة إلى ثماني عشرة بوصة، وذلك إلى أن يصبح كتلة غير مرتبة متداخلة مثل ممسحة بلاط كانت في الخدمة لسنوات طويلة. وآخرون يمسحون شعرهم بروث البقر ويجعلونه في شكل خوذة لها قرن يبرز إلي الأمام أو الخلف.

في زيارتنا للعرّاف قويك فإن الوضع لم يكن يبدو سلمياً كما كنت آمل. ولكن الأكثر شؤماً هو غياب النساء والماشية. فلا توجد امرأة ولا طفل ولا ثور ولا بقرة ولا عجل يرى في أي مكان. وبالرغم من ذلك ربما كان هنالك القليل مما نخشاه ولكن وقعت حادثة لسوء الحظ. أحد أفراد مجموعتنا الذي خلفناه وراءنا أطلق النار على ظبي ولكن بدلاً من قتله جرحه فقط وكان يحاول إنهاء حياته بطلقات سريعة وهكذا كان وصولي إلى دنقكور مصحوباً بعمليات من الطلقات مما جعل النوير يشكون أكثر إن كانت مهمتنا بالفعل سلمية. تم إرسال رسول بسرعة إلى قويك لطمأنته وليخبره بأن مفتشه قد جاء لإجراء حديث ودي معه. الإجابة الوحيدة التي تلقيتها تعني في محتواها أن الرجل الكبير لا يستطيع استقبالي لأنه مريض - تلميح بأنه غير موجود في

البيت لزائر غير مرغوب فيه وأن ذلك ليس أكثر اقناعاً من الابلاغات المشابهة في مجتمع أكثر تقدماً. أرسلت رسالة أخرى أعبر عن أسفي لاعتلاله وقلت بما أن لديَّ وقتاً كبيراً اقترحت بقائي في قريته إلى أن يتم شفاؤه. وأضفت أن وصولي يبدو أنه مناسب جداً حيث أن أفضل طبيب في العالم هو معيَّ الآن وأنه دون شك يستطيع شفاءه. هذا وضع قويك من غير ريب في وضع حرج. فعليه إما إيجاد عذر آخر لعدم استقبالي أو الخضوع لعلاجه بواسطة طبيب منافس.

لمدة نصف ساعة توت دينق وأنا تسكعنا في محاولة غير مجدية لإجراء محادثة مشرقة ومرحة مع جمهور من المتوحشين العابسين ولكن بما أن أجاباتهم تألفت من القليل إلا من أصوات التذمر يتخللها البصق. وعندما أدلوا بملاحظة كانت عن الحرب و لم نقترب من التوصل إلى حل. والمحاربون المسلحون ما زالوا يتدفقون على القرية عند ما وصل بقية مجموعتي. رجال الشرطة الستة وبدون كلمة مني ركبوا السنكي في البنادق ووقفوا حولي في دائرة. وعند ما سئلوا عن السبب في تصرفهم أجابوا بأنه لم تعجبهم نظرات الناس المتجمهرين – وهي ملاحظة وافقت عليها بحرارة – وهم اعتقدوا أن النوير قصدوا المشاكل. أوضحت للشرطة أنني حتى الآن قد قضيت ما يقارب نصف الساعة في القرية وكانت لديَّ فرصة طيبة لأدرك أن الناس ليست لديهم مشاعر ودية نحوي ولكن ليس لدينا شيء نفعله إزاء ذلك. أمرتهم بأن يحتفظوا ببنادقهم قريبة وأن ينصبوا مظلة وأن يعمل الخدم في تجهيز الإفطار وألا يفتحوا النار تحت أي ظرف ما لم أصدر الأوامر بنفسي.

بدا أن العلاقات تتوتر أكثر وأكثر. لذلك أمرت الخدم أن يجهزوا حمامي. وهو حوض ضحل من المشمع من اثنين إلي ثلاثة أقدام و ٩ بوصات في العمق – كعلامة خارجية بثقة داخلية وهو أبعد ما كنت أشعر به. كان

لذلك نتيجة غير متوقعه تماماً. النوير كما يبدو لم يروا من قبل جسماً أبيضاً عارياً في حمام، وبدأوا يتجمعون حولي رغم أن اغتسالي كان سيكون أكثر شمولاً إذا لم يكن المشاهدون يوجهون حرابهم بمزاح وبطريقة مرحة وفيها محبة. إني أتساءل إن كانوا سوف ينخسونني بحرابهم ليروا إن كنت حقيقياً. على أية حال تبسمت بدماثة خلال رغوة الصابون وبدأوا في مجابهة الابتسام. وأخيراً بعض النساء حدقن بخجل خارج الأكواخ حيث كن مختبئآت من قبل، لذلك فكرت في أن من الأفضل أن أفعل شيئاً خاصاً لتسليتهن، دعكت ظهري بالليفة وعملت الرغوة في شعري وقد شكل هذا نجاحاً باهراً. جئن جميعاً متجمهرات حولي وانفجرن ضاحكات. لا فائدة أن تكون خجولاً في هذه البلاد.

ثم ذهبت إلى الإفطار وبعد قليل جاءتني بعض الهدايا من التبغ المحلي - معظمه متعفن ويتكون إلي حد كبير من روث البقر - وقد أرسله إليّ قويك وكذلك سن فيل أكتشفت أنه مسروق. فيما بعد وجد قويك أنه قد شفي بما فيه الكفاية من مرضه ليزورني.

كان مخلوقاً قصيراً مشوهاً وعند ما نظرت إلى ساقيه المقوستين وجسمه البدين - فهو لا يشبه زملاءه النوير - فكرت إلى أي مدى يتناسب هذا مع اسمه قويك « الضفدع ». كان يرتجف بعنف بالرغم من دعمه بعدد كبير من المرافقين. مضى زمن قبل أن تصدر عن الحيوان أصوات قرقرة من فمه السائل اللعاب تشبه الكلام البشري واستطعنا مواصلة الحديث. هدأ تدريجياً وتحدثنا لبعض الساعات بالرغم من أن أغراضنا كانت متعارضة. كنت أرغب في بحث السلام معه. ولكن قويك كان مهووساً بفكرة الحرب وبنوايا الحكومة العدائية والتي اعترف بأنه في حالة خوف منها. على أية حال في النهاية أفلحت في ايجاد شيء يدخل في رأسه الثخين عند ما بينت له

أنني إذا كنت لا أخشى المئات من أتباعه فإنه لا يوجد سبب لأن يخشى هو من رجال شرطتي الستة. وقلت له أنظر إلى شرطتي الستة ثم أنظر إلى جيشك الخاص من المحاربين. بعضهم بجانبك الآن وبعضهم مختبئ خلف الأكواخ وبعضهم كما أعلم أنا وكما تعلم أنت يكمن في أكواخ القرية. هذه الملاحظة الأخيرة راقت للقليل من روح الفكاهة الذي لديه وعند ما لاحت على وجهه ما يشبه البسمة علمت أنني كسبت المعركة. غيَّرت المحادثة من الحرب إلى مشكلة الطعام وبما أننا كنا في حالة نقص في كل شيء للأكل (الظبي ذلك الحيوان المسكين قد هرب) سألت إن كنت أستطيع صيد بعض البط الذي كان يحلق حول بركة القرية. « مستحيل تماماً » قال قويك « أنا توأم ! » هذا يبدو غير مساعد أو حتى معقول ، إلى أن تذكرت أن طوطم التوائم غالباً ما يكون طائراً ولذلك فإن قويك يدعي القرابة مع البط. وفي حالة اصطياد « قريب » لقويك أكون قد وضعت نفسي في مشكلة خطيرة وقد فرحت لتفادي تلك الغلطة.

أقمت يومين في القرية وكانت لي محادثات كثيرة معه محاولاً توضيح أن أمله بالقدرة على تحدي الحكومة من غير جدوى وإبلاغه أن كل ما نرغب فيه هو أن يعيش كل شخص في سلام ولماشية شعبه أن تتكاثر. ليس من السهل إدخال الفهم السليم في رأس مصاب بالصرع ومجنون بالعظمة يعتقد أن أحد أسلافه كان بطة. لكن بالتدرج حاولنا الوصول إلى نوع من التفاهم. على أية حال كان هناك توقف مؤقت في محادثاتنا عند ما رفضت قتل زرافة له لأسباب لا بد أنها بدت مضحكة للغاية ، على وجه التحديد ، أن قتل الزراف ممنوع من قبل الحكومة. آخذين في الاعتبار – بقدر ما يعلم قويك – أنا الحكومة ، لا بد أنه استغرب لماذا أصدرت مثل هذه القوانين الغبية. كان سيفهم بصورة أفضل إذا كنت قد قلت إنني من سلالة زرافة ولذلك لا أستطيع إمكانية قتل زرافة.

في ضوء الأحداث اللاحقة أدركت كم كنت محظوظاً أن وجدت قويك – بالرغم من أنه غير متزن – في إحدى حالاته المزاجية الأقل جنوناً. فقط قبل بضعة أيام ربما كنت أراه في قمة هرمه يصرخ مثل مجنون بينما يخرج الدخان من غليونه الكبير وهو متزين بصورة شاذة بختم من الصّفر وذلك رمز سلطته. جميع التخاطب معه كان سيكون مستحيلاً كما أنه قد يدعي تلقي وحي لحث رجاله لمهاجمة قوتنا الصغيرة.

تدريجياً مئات من الأهالي الذين تجمعوا لدعم قويك بدأوا في التفرق وساد جو أكثر سلاماً. وعند ما حان انصرافي افترقنا بعبارات أخوية من الصداقة والود.

رحلة سبعة أيام عبر نفس منطقة السافنا المسطحة التي اعتدنا على معرفتها بصورة جيدة قد أوصلتنا إلى أكوبو – نقطة عسكرية صغيرة على ضفة نهر أكوبو حيث الحياة بالنسبة للحامية العسكرية المعزولة لا بد أنها غالباً غير محتملة. في الطقس الجاف كانت هنالك دائماً فرصة الخروج في دورية مفاجئة لاعتراض جماعة أثيوبية مغيرة داخل أراضي السودان أو لمنع النوير من مهاجمة الأنواك. ولكن في موسم الأمطار فإنه من المستحيل مغادرة الجبل الصغير الذي يقوم عليه المعسكر. استعراضات قليلة عند ما تجف الأرض لفترة قصيرة أو زيارة نادرة من مدير المديرية أو نائبه على باخرة هي فترات الراحة الوحيدة في حياة يسيطر عليها البعوض. إنهم أناس شجعان هؤلاء الذين يديرون هذه النقاط الخارجية المعزولة.

قضينا يومين في أكوبو مما أعطاني فرصة لإراحة ركبتي التي تسممت بصورة سيئة بواحدة من الأشواك الكثيرة التي طعنتني. ثم بعد تسلم المؤن التي أرسلتها بالباخرة قبل شهور عند ما كان النهر مفتوحاً للملاحة سرنا نحو الناصر وتوقفنا في حظيرة ماشية للنوير بجانب النهر حيث كنت محظوظاً

لرؤية رمح كير الأبيض (White Spear of Kir) أحد مؤسسي أمة النوير.

يا لها من أشياء غريبة يقدسها أناس مختلفون – وحتى أحياناً لأسباب أغرب ! – حسب الرواية التي أخبرني بها حارس الرمح هي أن كير ولد في قرعة (Gourd) فوق كوخ من أكواخ الدينكا. وعند ولادته وقع رمح من السماء. هذا هو الرمح الذي تمت حراسته خلال القرون وهو الذي أراه الآن – رمح تذبح له الثيران قرباناً عند ما يخرج النوير للحرب وفي مناسبات أخرى. وأنا أيضاً كان عليَّ أن أقدم قرباناً (معزة) قبل سحب الحصيرة من الكوخ الصغير الذي أودع فيه الرمح. وعند ما كشف عن الرمح للعيان صلى جميع النوير الموجودون للرمح ورفعوا أيديهم إلى أعلى بارتفاع المرفق وهزوا رؤوسهم برفق إلى أعلى وأسفل وهم يقولون « أيها الرمح الذي يتنفس ناراً بالشفير الأبيض. رمح الدينكا ».

لقد اندهشت أن أسمع رمحاً يقدسه النوير يخاطب بكلمة « رمح الدينكا » وقد أحببت أن أقوم بمزيد من التحقيقات عنه. لسوء الحظ أستطيع أن أتكلم بضعة كلمات فقط من لغة النوير وعليَّ أن أضع أسئلتي باللغة العربية إلى أحد الدينكا الذي يعرف لغة النوير. وبما أنني الرجل الأبيض الوحيد الذي منح امتياز رؤية الرمح لم أرد أن أقول أي شيء يمر من خلال ثلاث لغات مختلفة ربما يترجم ترجمة خاطئة ويسبب إساءة.

لقد سمح لي الاقتراب من الرمح وتصويره (لسوء الحظ بدون نجاح بسبب ظلام الكوخ الذي يقف فيه الرمح على قاعدة خشبية صغيرة) ولكن دون لمس الرمح.

كان رمح كير ليس مثل أي رمح رأيته في السودان وله مقبض سميك من

الحديد مغطى بالودع الأصفر والخرز وقطع غريبة من الحديد منحتها له النساء اللائي صلّين لتسهيل وضوعهن أو لمنحهن أسرة كبيرة من الأطفال.

فوتنر وشخصي واصلنا رحلتنا، وبعد ثلاثة أيام من مغادرتنا لاستراحة الرمح الأبيض استيقظت في إحدى الليالي على صوت أنين على بعد بضعة ياردات. نهضت من السرير لاستقصاء الأمر فوجدت سجيناً من النوير كنت آخذه إلى ملكال وهو مربوط على أوتاد على الأرض ويداه ورجلاه على شكل (X) وهو ممدد مثل فراشة على لوح تثبيت. الشرطة اختارت هذه الطريقة لمنع هروبه. وواضح ما قاساه الرجل التعيس من العذاب من لسع البعوض وغيره من المخلوقات المؤذية. إن شرطتنا في الجنوب كانوا شجعاناً وموالون ولكن يبدو أنه ليس لديهم إحساس بالمرة بالمعاناة التي لا بد أنهم أوقعوها ولذلك يحتاجون إلى مراقبة دائمة. وفي مناسبة أخرى حدث أن نزلت في منتصف الليل في تونقا (محطة حكومية صغيرة على النيل الأبيض) وقمت بزيارة مفاجئة للسجن حيث وجدت أحد الشلك تم التخلص منه بنفس الطريقة خارج السجن بالرغم من وجود موظف مسئول بالمحطة ! كثير من سكان الجنوب يصعب التعامل معهم ولكن مصاعبنا لا بد أنها ازدادت بصورة كبيرة من قبل بعض موظفينا المحليين الذين من الواضح أنهم يتصرفون بموجب أوامر حكومية ولكنهم يتصرفون أحياناً بوحشية الجهل عندما تعطيهم المسئولية.

عند ما أفكر ما حدث لسجيننا غير المحظوظ بالرغم من وجودنا أنا وفوتنر قريبين. ماذا ترى ما يحدث للآخرين عند ما لا يكون هنالك شخص إنجليزي.

في السنة التالية كررت زيارتي للعرَّاف قويك. ولكن هذه المرة لاختبار مدى إخلاص توكيد حسن النية. وقفت على بعد ثمانية أميال من دنقكور وأرسلت رسالة فحواها إنني أريد منه أن يأتي لمقابلتي. أتى في الحال ومعه

بندقية ليس لديه رخصة لها، وثور كهدية ، سُرق كالذي أهداني أياه قبل سنة. تغاضيت عن هذه الغلطات الصغيرة. وكان لدينا حديث طويل وودي قبل أن نفترق مرة أخرى ورجع قويك مع الهدايا التي قدمتها له. ولسبب غريب أحببت الرجل نوعاً ما بالرغم من كل المتاعب التي سببها لنا وبالرغم من شعره المخلوط ببول البقر وجسمه الممسوح برماد روث البقر. كما إنني لا أحمل له أي ضغينة لعلامة التعظيم العالي التي أبداها آخر مرة عند ما رفع كفي إلى فمه وبصق فيه !

في ذلك الوقت تفاجأت للغاية بهذه التحية غير المتوقعة بحيث إنني لم أرد البصقة بمثلها كما كان ينبغي أن أفعل. وبعد فترة طويلة فيما بعد أدركت المعنى الكامل لسلوك قويك.

في معظم أنحاء العالم يعتقد أن أي شخص يمتلك جزءاً من أي شخص آخر تكون لديه سيطرة على ذلك الشخص. يسجل فريزر في كتابه «الفرع الذهبي» The Golden Bough : « الاستعمال السحري الذي قد يوضع فيه البصاق يحدده مثل الدم أو قلامة الأظافر كأساس مناسب لميثاق لذلك بالمشاركة في لعابهما تعطي الأطراف المتوافقة أو المتعاهدة كل منهما للآخر ضماناً بحسن النية. وإذا حنث أي منهما بقسمه فيما بعد، عندئذ يستطيع الطرف الآخر عقابه على نكثه بالعهد، وذلك بمعالجة سحرية للبصاق الذي في عهدته للحانث بالعهد».

قويك بمفارقته لبصاقه قد وضع نفسه في سلطتي. كان ينبغي أن اختم ميثاق الصداقة بعمل نفس الشيء له. لكن كيف لي أن أستطيع بدون تدريب في الانثروبولوجي معرفة ما ينبغي أن أفعله ؟

لبعض الوقت بعد هذا تسبب قويك في القليل من المتاعب الخطيرة. في سنة ١٩٢٧ على أية حال كان مرة أخرى في طريق الحرب أثار النوير للثورة ضد الحكومة وقد اقتضى ذلك إرسال دورية ضده.

جمع قويك حوله قليلاً من العرَّافين الآخرين. وكان واحد من هؤلاء هو بوك كراجوك الذي شاركه في امتياز ذكره في مجلة بنش الإنجليزية :

أخشى أن السيدين بوك وقويك
سوف يصيبان قريبا في العنق
وأن صدمة شاملة. . تنسب للسيدين قويك وبوك

عندئذ دعنا نحزن على الخراب الأليم
المخبأ للسيدين بوك وقويك
عند ما توجه الضربة. ... إلى السيد قويك والسيد بوك

لسوء الحظ فإن الحملة الانتقامية قد فشلت حيث إن النوير قد تشتتوا دون قتال وفشل البحث للقبض على قويك. ومحاولة لنسف هرم دنقكور كانت نتيجته تلف بسيط جداً. فشل قوات الحكومة في إنجاز عمل وربما فشلها في تدمير الهرم يبدو أنه شجع قويك لتحدي الحكومة مرة أخرى. فخلال موسم الأمطار حرض النوير لمهاجمة الدينكا. وقد قاموا بذلك وقد قتلوا خمسين من الدينكا وقبضوا على بضعة مئات من النساء والأطفال وأخذوا قريباً من ألف من الماشية ولوضع اللمسة النهائية لعملهم هاجموا نقطة الشرطة الصغيرة في دوك فيول حيث تم دحرهم بخسائر فادحة من قبل العدد القليل من الشرطة.

لقد تقرر التعامل مع قويك مرة وعلى نحو حاسم. صدرت الأوامر بتاريخ

محدد أن على جميع النوير أن يجتمعوا في مناطق معينة وأن أي أحد يوجد خارج هذه المناطق سوف تهاجمه قوات الحكومة. معظم القبيلة التزمت بهذه التعليمات ولكن البعض عزم على البقاء مع قويك والاستجابة لنبوءة ظهرت قبل عدة سنوات تقول « في سنة معينة سوف يموت اثنان من النوير المعروفين جداً ثم في ظل هرم دنقكور فإن ابن وندنق سوف يهاجم « الترك « ويدمرهم وراياتهم سوف تقطر من دمائهم «.

بمجرد أن وصل النوير غير المعادين للحكومة إلى مناطق تجمعهم قامت دورية راكبة من مائة من الرجال على خيل مولدة محلياً وقليل من الشرطة على بغال أثيوبية وتوجهوا إلى هرم دنقكور. توقفوا على بعد ٣٠ ميلا لتناول وجبة طعام وراحة قبل مغيب الشمس ثم قاموا بسير سريع في الظلام ليصلوا في الفجر الباكر. وعند ما اقتربوا من الهرم سمعوا ضرب الطبول وصوت الرقص وكان أملهم أن يصمد قويك وأتباعه ويقاتلوا. وعند الفجر رأوا حوالي ثلاثمائة رجل منتظرين للقتال رماحهم تلمع في ضوء الصباح المنتشر ثم خلف الهرم رأوا لمحة من ثور قويك المنقط المقدس الذي يسمى بيمرول وهو الذي يحدد إن كان النوير سوف يقاتلون أم لا. إذا ولى الثور الدبر فإن النوير سوف يتبعونه. ولفرحة قوات الحكومة العارمة جاء بيمرول بثبات إلى الأمام يتبعه النوير وهم مسلحون بالبنادق والرماح وينحنون ويقتربون بمشي بطئ. قاد قويك الهجوم حاملاً في يده اليسرى غليونه السحري وفي يده اليمنى رمح رقيق لصيد السمك له قوة تقليدية غامضة.

على بعد مائتي ياردة من موقع نزول القوات الحكومية وتكوينها مربعاً وهم يتصارعون مع البغال المقاومة والخيل المذعورة. قتل بيمرول. ولكن ما زال قويك مع قليل من الاتباع المخلصين جاء بشجاعة إلي الأمام وبنفس

السرعة البطيئة وغير وجل لموت الكثير من الأصدقاء الذين سقطوا حوله إلي أن حدث انفجار مفاجئ للرصاص وانكسر الهجوم. سقط قويك في النهاية وتشتت النوير الذين أصبحوا بدون قائد وهربوا. لم يبق إلا القتلى في السهل الحار. وضربت الشمس على جثة قويك المطروحة وما زال يقبض على غليونه ورمحه السحري ويحيط به خمسة عرّافين أقل مرتبة منه. الحملة انتهت. فمن الآن يستطيع الدينكا والنوير العيش بسلام.



الباب الحادي عشر

مع الشـــــــلك



الباب الحادي عشر
مع الشلك

زيارة إلى الشلك كانت دائماً بهجة حيث إنهم سكنوا أجمل البقاع على النيل الأبيض بين الخرطوم وغندكرو. كما إنها أيضاً تغيير سار من التعامل مع النوير العنيدين لتقابل عنصراً يدين بالولاء لرئيس واحد تطاع أوامره دون تردد.

إن أكبر العوائق التي كانت تعمل في ظلها حكومة السودان قبل خمسين سنة عدم وجود قادة مسئولين يمكن أن تثق فيهم. فتحت سوء حكم المصريين والدراويش فإن الترابط القبلي قد تحطم. وهذا جزئياً بسبب وفاة كثير من الزعماء في الحروب. وجزئياً نتيجة سياسة الخليفة بإحضار أي شخص إلى أم درمان ممن قد يصبح قوياً بصورة كافية لتحديه. والنفي إلى الرجاف وغيرها من الأماكن البعيدة لأي منافس محتمل لسلطته. وما هذا إلا استمرار لسياسة الحكومة التركية المصرية القديمة التي كانت قائمة على خوف وليس محبة الرعية ولا تستطيع السماح لأي منهم الارتفاع إلى مواقع النفوذ.

على أية حال يوجد عنصر واحد وهو الشلك الذين احتفظوا بوحدتهم طيلة فترة الاضطراب العام رغم أن أعداد القبيلة قد انخفضت من أكثر من مائة ألف فرد إلى أقل من أربعين ألفاً. وهم يعيشون على طول النيل ولا يتوغلون إلي الداخل بعيداً عن النيل وكانوا يتعرضون باستمرار لغارات الأتراك والدراويش. وقد تم تهديدهم مرة بغزو من الأثيوبيين. وهكذا اشتركوا مع النوير والدينكا وآخرين في كراهية شديدة لجميع الأجانب. وفقط من خلال اللباقة والتعاطف من قبل قليل من الموظفين البريطانيين والمبشرين الذين استقروا بينهم استطعنا في النهاية كسب صداقتهم.

كون أن الشلك نجوا من الدمار الذي وقع على كثير من الناس في الجنوب كان بسبب تنظيمهم العالي الفعالية وولائهم لملك قوي. بلاد الشلك مقسمة إلى سبعين مركزاً وكل مركز مسئول عنه زعيم قبلي يعتبر ملكاً على المركز أو « رث « RET كما يسمى. وهو يكاد يكون مقدساً بسبب انحداره من ملك الشلك الأول نيا كانق NYAKANG.

من هو نيا كانق ؟ نحن لا ندري. بالرغم من أن هنالك سبباً للاعتقاد بأنه كان شخصاً حقيقياً بالرغم من الأساطير التي تحيط بذكراه.

طبقاً لقصص الشلك : في « البداية « كان جو أوك (Jo – Uk) الخالق الأعظم الذي خلق بقرة كبيرة بيضاء التي أتت خارجة من النيل وكانت تسمى « دونق أدوك « "Deung Adok" والبقرة البيضاء وضعت ولداً وكان حفيده يسمى أوكوا "Ukwa". في يوم من الأيام رأى أوكوا أختين جميلتين تجلسان بجانب النيل. شعرهما الطويل يصل إلى النصف الأسفل من جسميهما اللذين يشبهان أجسام التماسيح. أوكوا أغرم بهما ولكنهما رفضتا كل غزله وتودده. يذهب أوكوا إلى النهر يوماً بعد يوم إلى أن نجح في مفاجأتهما والقبض عليهما. تزوج الأختين. ولدت الكبرى منهما التي تسمى نيكيا Nikaiya ولداً يسمى نياكانق Nyakang وكان جزء منه إنسان وجزء منه تمساح. ونظراً لشجار مع أقاربه قرر نياكانق مغادرة المكان الذي كان يعيش فيه. قامت له أجنحة وطار إلى الأرض الواقعة جنوبي نهر سوباط حيث خلق من التماسيح وأفراس البهر والماشية رجالاً ونساء لتعمير الأرض. أما والدته نيكيا فيقال إنها أصبحت خالدة وتظهر أحياناً للشلك في هيئة تمساح.

شاهدت كثيراً الرث فافيتي يور عند ما كنت في ملكال. وسوف أذكر دائماً رحلة سعيدة قمت بها معه وكان يركب حماراً أبيضاً كبيراً خلال المنطقة

لتي كان يحكمها بكثير من العطف والعدل والتفهم. كان الرث طويلاً ومهيباً وذو مقام يليق بمنصبه. وكان مما يسر ملاحظة بأي نوع من البهجة يأتي أتباعه لتقديم احترامهم له وعيونهم منكسرة وأيديهم تغطي أفواههم. قبل زمن ليس ببعيد كانت مثل هذه الرحلة مستحيلة للملك الذي كان ينام طيلة النهار ليكون مستيقظاً ليلاً للدفاع عن لقبه ضد أي أحد من العائلة المالكة الذي يطمح لتاجه ويجئ لقتله. خلال النهار يكون ملك الشلك محاطاً بحرسه الخاص ولكن في الليل عند ما ينام مع واحدة من زوجاته وعدم وجود أحد بقربه ليحميه فعليه أن يكون جاهزاً على الدوام ليقاتل دفاعاً عن نفسه. لكن ليس على فافيتي يور أن يخشى الموت الذي أصاب الكثير من أسلافه في الماضي. إنه من المعتاد بين الشلك قتل الملك شعائرياً عند ما يصبح مسناً أو مريضاً وإلا حسب رأيهم فإن كارثة سوف تحل بالناس والماشية والمحاصيل. فعند ما تبلِّغ زوجاته أنه نظراً لتقدم شيخوخته أن الملك لم يعد يشبعهن جنسياً يحكم عليه بالموت. وعندئذ يوضع في كوخ مع اثنتين أو أكثر من بنات عذراوات بالغات سن الزواج ثُم يغلق الكوخ إغلاقاً محكماً فيموت الملك ورفيقاته موتاً بطيئاً بالإختناق والجوع.

في معظم رحلتنا سافرنا بضعة مئات من الياردات إلى الداخل بعيداً من النيل على أرض مرتفعة يبني عليها الشلك أكواخهم للهرب من البعوض وفيضان النهر السنوي. أحياناً نترك ظل الدوم وشجر الدليب والتمر هندي وشجر السنط ونتحول إلى نبات البردي وطين الخيران الصغيرة حيث طيور أبو منجل اللامعة وطيور أبو ملعقة والغرنوق تفتش عن الطعام. وأحياناً تأخذنا رحلتنا إلى حافة النهر حيث آلاف البط والأوز تفزع لمجيئنا وتطير في احتجاج صاخب فوق رؤوسنا. أفواج من فرس النهر تتخبط في المياه الضحلة أو تأتي للحظات إلى السطح للتنفس وتنفخ بمنخريها تحدياً

لباخـرة قادمة. وإنه لما يسر مشاهـدة أطواف النباتات الصغـيرة مفـصولة من استحكامها في السد أثناء مرورها عائمة وأن نحـدق في الطيور التي سافرت على تلك الأطواف وهي جاهـزة للانقـضاض على سمكة في الماء بجـانبها.

بالقــرب من القــرى ديست الحشائش بالأبقـار ذات الســنام والقرون الملتوية التي يزينها «مزين القرون» بأشكال غـريبة. وقد دفعت إلى داخل الأراضي للرعي حيث عدد الذباب المزعج للأبقـار أقـل. وفي كل ليلة توقـفنا في إحدى القـرى بجانب النيل وغادرنا بمجرد طلوع الشمس. أما القـرويون فإنهم على أية حال يستيقظون قبلنا. النساء يبدأن في واحدة من رحلاتهن الكثيرة إلى النهـر حاملات القرع والجرار لإحضار الماء للعـوائل. أما الأغنام والخراف فيتم إطلاقها من حـظائرها المشيدة بالشوك والقصب لحمايتها ضد هجمات الضباع وأما الصبية فمشغولون بنظافة الحـظائر وتجهيز الروث للوقود وجميع المهام المتكـررة المتعلقة بالعـناية بالماشية.

لقد اتخذنا طريقنا بمراحل سهلة تحت ظل الأشجار وعبر السهـول المكشوفة وبجانب حافة الماء – سفـر ممتع وسعيد – ووصلنا في النهاية إلى أكوروا ، قرية صغـيرة بها قـليل من الأكواخ قائمة بجانب أقدس مزار في أرض الشلك. المزار مكون من كوخين كبيرين مستديرين مسقـوفين بقـش جميل وفوقهما بيضة نعام مخترقة برمح. وهنالك سياج من قصب الذرة يحرس قداسة المزار من تطفـل الزوار. وفي المزار – كما حدثوني – تمثال شخـص من الخشب تدخـل فيه كما يقال روح نيا كانق من وقت لآخر كما تدخل في الرث نفسه. أخذني الرث إلى المزار ولكن لم يسمح لي بدخـوله حيث إن ذلك امتياز محفوظ للمرافـقين القـليلين والكهنة المسئولين عن صيانته. قضينا الليل ليس بعيداً. الليلة باردة وساكنة وليس هنالك ريح لتحريك الدخان الذي

ارتفع هادئاً في شكل لولبي من نيران روث البقر بجانب كل كوخ وحظيرة. وبمجرد حلول الظلام عند ما أتت مجموعة من النساء للغناء بجانب المزار – أنغام مكررة ترنيمة مليئة بالعاطفة. لحن يتغير قليلاً من بيت لآخر وربما بدا مملاً قليلاً في أوقات أخرى أو في وضع مختلف. ولكنه الآن يبدو منسجماً مع هدوء الليل الإستوائي. وهنالك قمر تجاوز كبد السماء أضاء الأشكال المبهمة التي تتحرك في إيقاع مع الغناء. رقدت مستيقظاً كل الليل مستمعاً إلى الجمال الوحشي لفعل العبادة الوثنية هذه. وللأسف رأيت الفجر الكاذب يأتي والأشكال تغادر بهدوء.

رحلتنا في اليوم التالي بدأت عادية جداً بعد سحر الليلة السابقة ومن الصعب إعطاء كثير من الاهتمام لمناقشة العديد من المشاكل التي تؤثر على حياة الشلك: استعادة زوجة هاربة ، نزاع حول كمية مهر الزوجة أو التعويض الذي يدفع إلى شخص ضربوه على رأسه بعصا أو نبوت.

ثقافياً الشلك متقدمون كثيراً على القبائل النيلية الأخرى. أناقة أكواخهم المسقوفة بالقش واتقان رماحهم المطروقة وضفر سلال جذابة من مواد غير كافية تشهد بحرفية لا يتفوق عليها في أي مكان في السودان. وجسدياً فإنهم عنصر ممتاز ومنهم محاربون رائعون مع ولاء قوي لقادتهم القبليين ولغيرهم ممن يكونوا مرتبطين بهم.

ولاء الشلك لملكهم (الرث) الذي كان حريصاً على شعبه ليعيش في سلام لم يمنع دائماً الصراع الداخلي. وهذا غالباً لا يكون له أهمية خاصة وقد ينشأ فجأة من مشاجرة صغيرة في رقص عند ما يلقي زوار من قرية مجاورة نظرات غرامية على نساء مضيفيهم. عادة هذه الاضطرابات (التي تقدم فيها كميات كبيرة من البيرة – المريسة – مجاناً تثير الراقصين) ويتم تسويتها دون صعوبة. رغم أنه ، أحياناً، يكون الحسد بين الزعماء المتنافسين له أثر

بعيد ويقود إلى كثير من العدوان من جانب أتباعهم.

في ١٩١٩ ثار شجار حول حقوق إقليمية وأصبح متعلقاً بمثلث الشلك الداخلي، المكون من رجل وزوجته وبقرة، سبب كثيراً من القلاقل ونتج عنه الكثير من القتال فأرسلت لإرساء السلام بين الزعماء المتنافسين. القسمان من القبيلة المختصان بالنزاع (الفيلو والمينام) كانا في الحقيقة قد تعبا من القتال المستمر وكانا حريصين على السلام ولكن لا أحد من الطرفين كان راغباً في فتح المفاوضات حتى لا يفسر فعله كعلامة على الضعف. ونظراً فقط لوساطة المبشرين وافق الطرفان على الاجتماع وتسوية خلافاتهما على أرض محايدة في محطة البعثة بجبل دوليب.

يومان قبل عقد التجمع ، ذهب الرث إلى جبل دوليب لبحث الترتيبات مع الزعماء التابعين له. وبما أن الرغبة كانت مخلصة في السلام فقد انتهت مهمته بسرعة.

« كيف تسير المحادثات ؟» سأل الرث.

« لقد انتهت « أجاب الزعيم « نحن نريد سلاماً « .

ثم جاء أكول إلى الأمام – وهو الرئيس الشرعي للمركز – وقال إنه يرغب أن يحكم بعدل ورحمة ولا يسئ معاملة أحد وأن لا يترك شخصاً جائعاً وأن يطيع الرث في كل شيء. ولكنه لا يستطيع أن يقبل الزعامة بدون موافقة الرث وسلطة الحكومة لدعمه. .

غادرت ملكال على باخرة المديرية ليلاً حتى أصل دوليب في الصباح. وعند ما اقتربنا كسر صمت الليل النفخ في قرن الكودو (KUDU) لاستدعاء رجال القبائل إلى الاجتماع. كان أكول مستثاراً للغاية عند ما مرت الباخرة بقريته حيث جرى إلى محطة البعثة للتأكد من أن ما رآه هو باخرة المديرية حقيقة.

عند الفجر نزلت من الباخرة لتحية الرث كان متألقاً في كسوة شرف قرمزية اللون خلعتها عليه الحكومة علامة على وظيفته والمبشرين الذين عملوا الكثير لجعل الاجتماع ممكناً. معرفتي بلغة الشلك لم تكن أكثر من بضعة كلمات للتحية مثل (MITHI JOUK) حفظك الإله سالماً! و (KWOMI OMUL YI THWOL) « فوق ظهرك يزحف ثعبان « وتعني دون أن يعضك. كنت سأكون عاجزاً إذا لم يعرض دكتور أويلر OYLER ، أحد المبشرين ، القيام بالترجمة.

اتخذنا طريقنا من النهر إلى منطقة أعلى ومررنا بقطعة أرض صغيرة مزروعة بالخضراوات وتابعة للمبشرين كما مررنا بدوليب بالمز التي أعطت المكان اسمها إلى أن وصلنا إلى هضبة واسعة معشوشبة أتاحت مكاناً واسعاً لأكثر مشهد مؤثر. مئات من المحاربين من الطوائف المتنافسة قد تم ترتيبهم في دائرة واسعة مع رجال فيلو في جانب ورجال مينام في جانب آخر. مئات من الرجال والنساء من القرى المجاورة جذبتهم أهمية المناسبة وقفوا بجانبهم. جميع هؤلاء الرجال والنساء كانوا طوالاً وبنيتهم جيدة. وأولئك الذين كانوا حتى وقت قريب مشتبكين في حرب يبدون كأنهم مشتاقون للغاية لاستئناف القتال. رؤوس النساء محلوقة حديثاً بشفرات بدائية وهن يلبسن جلابيب مفردة من قطن أو جلد. تلك المصنوعة من الجلد كانت كل واحدة مصنوعة من جلد حيوان كامل - معزة أو خروف أو غزال - مدبوغ ويكون الشعر من الخارج ويلبس مربوطاً في أحد الكتفين بالرجل الأمامية أو الخلفية. الخرز والصدف (الودع) وختم الحديد والصفر أو أحياناً حاشية من الأجراس تزين الذنب والرجلين الأخريين التي تتدلى مثل فوطة تحت وسط النساء. الزينة كثيرة ومتقنة بقدر ما يستطيعون تلبس من جميع الشلك. الرجال والنساء يزينون أنفسهم بالعقود والبعض بدوائر

منحوته من قشر بيض النعام والبعض بعقود من الخرز. أسورة الذراع من الصفر أو الحديد تلبسها بعض النساء وهي ثقيلة جداً وهي ملتصقة بشدة بأذرعهن بحيث أنها تأكل في لحم الذراع. بنية أجسام النساء رغم أنها جميلة إلا أنهن أقل طولاً من الرجال. متوسط طول الرجل من الشلك يقل ببوصتين عن ٦ أقدام ويحمل ترساً من الخيزران أو من جلد الجاموس ويبلغ طوله من ثلاثة إلى خمسة أقدام. الجميع لديهم حراب بعضها قريباً من ثمانية أقدام في الطول وتصنع بخبرة من قرن بقر الوحش أو من عظم قصبة رجل الزراف أو من حديد مصقول مع خصلة من ريش النعام قرب مقبض الرمح. بعض المحاربين مسلحين أكثر بحراب تقذف والبعض يحمل نبابيت بالإضافة إلى رماحهم الطويلة. هؤلاء المحاربون الرائعون وتروسهم موضوعة على الأرض أمامهم ورماحهم تلمع في ضوء شمس الصباح صنعت صورة لا تنسى. عادة رجال هذه القبيلة عراة. ولكن اليوم ربما توقعاً للقيام بالرقص بعد الاحتفال فقد اعتنوا عناية فائقة بمظهرهم الشخصي. هنالك قماش بلون أحمر طوبي يغطي الكتف الشمال وينزل إلى ما تحت الخصر مع ترك الذراع اليمنى حرة. فرو فهد أو قط بري وخلخال من جلد الماعز أو الضأن غالباً يكمل اللبس. خاتم ثقيل من سن الفيل (ثلاث إلى خمس بوصات عرضاً) وفوق ذلك عشر إلى اثنتي عشرة لفة من قصب الطرور مع بعضها تغطي أعلى الذراع من مفصل المرفق إلى الكتف تقريباً ، يلبسها بالإضافة إلى الأسورة والعقود الحديدية المعتادة. جباههم ذات الندوب – عمل الندوب القبلية لاختبار رجولتهم – يجرى عليها المزيد من التزيين بخطوط من الهلب الأحمر والأبيض وقليلون مثل النساء يلبسون ختماً من الصفر أو الحديد في أعلى آذانهم.

مظهر أجسامهم كان دائماً لا يسر كثيراً. بالنسبة للكثيرين رمادي كالأشباح

ممسوح برماد من نيران روث البقر وآخرون ملطخون بألوان يعوزها الذوق في خطوط بلون طين المغرة الأحمر. أفضل أن أنظر إلى الأشخاص المتأنقين الذين يمسحون جلودهم بالزبد والزيت إلى أن تلمع أجسادهم السوداء وتموُّج عضلاتهم يتضح في ضوء الشمس القوي.

تنوع لبسات الرأس اللافتة للنظر ربما هي أكثر لمحة هامة في مكياجهم. بعضها يتألف من ريشة نعام واحدة تضطرب مع الريح. ورؤوس البعض مزينة بالصدف (الودع). الشعر نفسه إما أن يضفر في شكل حلقات أو يصبغ ببول البقر أو الرماد أو يلوى في أشكال غريبة. كثير من الشلك يجعدون شعرهم إلى أن يقف في فوضى وحشية ومخيفة. وآخرون يلبسونه في نوع من القرون مثل جيرانهم النوير. والأكثر شعبية على أية حال الشعر المتلبد باتقانٍ وهو ثخين كاللباد وهو يقف على جانبي الرأس مثل طبقي عشاء أو يُشَكل في هالة في مؤخرة الرأس.

عند ما نظرت إلي المحاربين وهم في طلائهم للحرب والنساء مصفوفات بصورة خيالية قلت في نفسي إلى أي حد كانت مناسبة الخلفية التي سوف تمثل فيها الدراما القادمة. الحشائش المصفرة تمتد لأميال لا يقطعها إلا القليل من أشجار جوز الهند ، أو دليب أو أشجار سنط معزولة في الأفق البعيد وقد ذكرني ذلك بمنظر في رواية هياوثه (HIAWATHA).

وقفوا هناك في المرج
مع أسلحتهم وعدتهم للحرب
ملونون مثل أوراق الخريف
يحدقون في بعضهم بعضاً بوحشية

في وجوههم تحدٍ صارم
في قلوبهم ثارات عصور

الكراهية الوراثية
عطش الأسلاف للانتقام

سوف أندم دائماً إذ أن احترام جلال المناسبة منعني من أخذ كمرتي لتسجيل منظر لم يره أوروبي من قبل وإنه لا أحد ربما سوف يراه مرة أخرى. الرث والدكتور أويلر وشخصي اتخذنا طريقنا إلى وسط حلقة المحاربين والنظارة. والرث أمر أكول أن يأتي إلى الأمام. أكول فعل كما أُمِر وألقى بعض الغبار في الهواء ليعني ذلك أنه كرئيس للمركز يملك الأرض. ثم مع الدكتور أويلر مترجماً خطبت في المحاربين قائلاً لهم إن الحرب خطأ وإن الحكومة لن تسمح بالقتال مرة أخرى في المركز (كان هذا مصادفة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى التي لم يسمع بها الشلك لحسن الحظ).

ثم خطب الرث خطبة طويلة جياشة بالعاطفة وقال في سياقها: «يا رجال فيلو وأنتم يا رجال مينام تم جمعكم اليوم معاً في حفل خطير ومقدس له أهمية كبيرة لمستقبل شعب الشلك. رجالكم قتلوا ونساؤكم بغير أزواج وأطفالكم تيتموا. يجب أن يتوقف القتال. جئت اليوم إلى هنا مع ممثل الحكومة ومع المبشرين الذين تعرفونهم. يجب أن ينجز السلام ويجب عليكم تعميد السلام بدم ضحية مقدسة. لقد أحضرت معي بقرة سوداء بعلامات حمراء. هذه رمز. اللون الأحمر يرمز للدم الذي سيسفح إذا خرق أحد الميثاق. وأما اللون الأسود فيعني القلب الأسود لأي شخص يفعل ذلك. وأكثر من ذلك، بما أن الأحمر والأسود يختلطان في البقرة، لذلك يجب على الحمر (البريطانيون) أن يختلطوا مع الناس السود ويكونوا كواحد. هذه البقرة هي بقرة مقدسة. إنها بقرة نياكانق وهي سليلة بقرة كانت مملوكة لنياكانق وأسلافها يتبعون للمدعو دوك ابن نياكانق.

« قضيت بأن يكون كول زعيمكم وآمر بأن تقسموا بالولاء له وتعدوا بإطاعته وأن تلتزموا بقسم مقدس «.

« لقد قلت إن هذه البقرة مقدسة ، بقرة نياكانق. هذه البقرة الآن سيضحى بها وعليكم جميعاً أن تأخذوا نصيباً من لحمها « ثم أضاف بكثير من الخشوع « لحم هذا الحيوان مثل لحمي ودمه مثل نفس دمي. كارثة عظيمة ستحل بكم إذا خرقتم هذا الميثاق لأنكم سوف تلعنون بالدم. لقد تكلمت. »

صمت مؤثر حيا خطبة الرث إلى أن ارتفعت الصيحات من آلاف الحناجر ودوَّت الدروع بضربها على الأرض ولمعت الرماح المرفوعة في ضوء الشمس معلنة أن الناس يريدون السلام وأنهم سوف يطيعون أوامر الرث. وفي نفس الوقت تأملت في خدمة القداس الغريب الذي أشتركت فيه وفكرت كم لأديان العالم المختلفة من أشياء مشتركة. الشلك عبدوا إلهاً (JOUK) وهو الذات الأسمى الموجودة في الأعلى. إنهم يقدمون القرابين له ويصلون لنياكانق وهو وسيط مع JOUK ومعه رثهم المقدس لديه نفوذ خاص. ولا أستطيع أن أنسى أن نيكيا NIKAIYA ، والدة نياكانق ونياكانق نفسه خالدان وأن نياكانق « اختفى « في السماء في ريح عاتية.

أكول وزعيم مينام عندئذ وعدا بالحفاظ على السلام وأخذ الرث رمحاً من أحد تابعيه وأبلغ أكول أن يتسلمه. والرمح قد رُفِعَ عالياً والناس قد تم تحذيرهم أن أي شخص يحنث بقسمه سوف يدخل الرمح في جسده مثلما أنه مؤكد دخول الرمح في الضحية القربانية.

الآن كل شيء أعد للمرحلة النهائية للدراما.

البقرة المقدسة قد تم اقتيادها إلى وسط الحلقة والرمح جاهز. . والرث قد نطق بتحذيره المقدس. .

الخطوة التالية كانت أداء القسم الملزم. .

من الغريب كيف يختلف القسم في المجتمعات المختلفة.

في السودان. . المسلمون يؤدون القسم على القرآن الكريم. أما ما يسمون بالوثنيين فقد يلعقون الرمح أو يقسمون على ريش الذيل الأحمر لطائر يسمى الكونغو. وفي هذه المناسبة فإن « جذب ذيل البقرة « هو لتقديس الإجراءات ولإحلال السلام الدائم. اختار أكول أن يجذب الذيل عن فريق مينام ولكن الرجل الأول الذي اختير ليجذب الذيل عن فريق فيلو رفض لصغر سنه واختاروا بدلاً منه رجلاً أكبر سنا. « جذب الذيل « ليس واجباً يود الكثيرون القيام به. لأنه إذا اندلع القتال مرة أخرى فإن الكارثة سوف تقع على عائلة الشخص الذي قام بجذب ذيل البقرة. هو وعائلته سوف يعتبرون مسئولين عن خرق السلام إذا حدث ذلك من فريقه.

على أية حال فإن الذيل قد جذب وإن أكول بعد مسح الرمح على ظهر البقرة نودي على أي شخص للقيام بالطعنة الأولى. وحسب ما أعرف أن من يقوم بذلك ينبغي أن يكون ابن عبد، وساد صمت حرج و لم يجدوا ابن عبد. لكن جذب الذيل كان فقط جزءاً من المراسم. وكان من المهم بنفس القدر إراقة دم البقرة. وحتى بعد جذب الذيل يستطيع الناس رفض التصديق على الاتفاق. ويقولون « إذا كنتم لا تريدون السلام فلا تتركوا الدم يراق ».

وفي النهاية وجدوا ابن عبد ووافقوا على أنه يستحق أن يقوم بالطعنة الأولى. وبالفعل قام بطعنها في الرقبة. وكل شيء بعد ذلك يعتمد على ما ستفعله البقرة. هل اعتمد السلام قبل ذلك أو منذ ذلك اليوم على اتجاه تحركات البقرة ؟ يفترض أن تحدد المسئولية عن القتال القريب بالمشي نحو

الفريق المذنب. هل هو فريق مينام أو فريق فيلو ؟ يبدو لا أحد منهما حيث أن الحيوان التعيس وفي ظهره رمح مغروس قد بدأ يشق طريقه وهو يتعثر نحو الرث ودكتور أويلر وشخصي.

بدا ذلك صعباً علينا حيث من المؤكد ألا أحد من ثلاثتنا له أية علاقة بإراقة الدم السابق. انتظرنا لثوان قليلة بدت كأنها سنوات طويلة. وحل صمت متوقع بالحشود المتجمعة. على أية حال عندما أصبحت البقرة على بعد ياردات قليلة استدارت وبدأت في الجري نحو فريق فيلو. صدر عواء همجي من الجماهير وكل من استطاع أن يقترب غرز رمحه في البقرة. وتبع ذلك منظر دموي بينما توزعوا القربان بسرعة وأخذ الكبار الأحشاء ومسحوا بها أجسام المحاربين الشباب كرمز لحقيقة أن كل شيء تأكله البقرة يختلط في بطنها ويكون كتلة واحدة وعلى ذلك فإن على فريق فيلو وفريق مينام أن يكونوا شيئاً واحداً.

ثم تقام رقصة حرب مشتركة. ويقوم الفريقان بمسيرة مشتركة جنباً إلى جنب ويغنون ويلوحون برماحهم ويهزون دروعهم.

أعطيت العديد من لفات التبغ ليتم تدخينها فيما بعد. وتم تقسيم اللحم وعلى ذلك فإنه بالأكل والتدخين من نفس المصدر دلّ الناس على وحدتهم.

وهكذا صنع السلام. لا وثائق طويلة قد كتبت ووقعها رؤساء الوزارات وغيرهم من أصحاب المقامات الرفيعة مع أختام متقنة على شروط السلام ولكنه سلام بالاتفاق. وقد تم الحفاظ على السلام.

أعيدت سلطة الرث وتحسن نفوذه. ولكن متاعبه لم تنته. وبعد بضعة شهور جاءني وهو في حالة قلق عظيم لأن منافساً لعرشه كان يحاول قتله بالسحر.

مثل هـذه المحاولة تمت قبل سنة أو سنتين عند ما حفـر قبر على بعـد حوالي مائة ياردة من منزل الرث وهو أكثر من قدمين في الطول وثمانية بوصات في العـرض وبداخله مومياء من القـش وفي رأس القـبـر دائرة من العـصي وقـرعة للبيرة المحلية (المريسـة) وسـلطانية ماء وجرة من السمن. وحـول القبر جرى الساحر مع مصباحين TORCH مشعـلين ليحدث وفاة الرث.

في المناسبة الحالية شكا الرث بأن جثمان طفل قد وضع بالقـرب من منزله وأن علامة يد مضرجة بالدم قد وجدت على عتبة بابه. إن للرث أساس لمخاوفه لا يمكن إنكارها. أحد أسلافه قـد مات حقيقة بعـد سحر من هـذا النوع عـمل ضده.

من الغريب أن نتذكر في أزمان حديثة جداً وضع أهالي دارتمور أشكالاً من الطين لشخص كـرهـوه في النار أو غرزوا دبابيس في تمثال لتسبيب تلف ذلك الجزء. لحسن الحظ اعتقل الساحر وحكم عليه بفترة سجن طويلة.

بوقت قـصير بعـد مراسم السلام انتدبت لأسلم الرث « مذكـرة في رسالة رسمية « مطبوعة كـرمز لخدماته المخلصة أثناء الحرب العالمية الأولى وعـليها توقيع ونستون تشيرشل وزير الحرب وشكر الرث « لخدماته الشجاعة والمتميزة « في الحرب. التقديم سمح بفرصة لعرض مراسمي صغير في كدوك. مقـر الرث (كدوك كانت تسمى فشـودا لكن الاسم تم تغييره تقديراً للفرنسيين الذين لديهم ذكريات غير سعيدة لما يسمى « بحادثة فشـودا «).

لقد جمعـنا كل شرطة المديرية الذين أمكن جمعهم وكذلك بعض التابعـين الملكيين كحرس شخـصي. هـؤلاء قد جمعـوا في مربع فارغ وفي وسطه الرث وشخـصي ومترجم. بعد خـطبة عامة للترحيب والشكر قدمت كما

ينبغي البطاقة الصغيرة قائلاً إنها رمز للشكر من جلالة الملك. «أي ملك؟» سأل الرث. «ملك إنجلترا» أجبته. « لم أسمع عنه مطلقاً « قال الرث، لا شك حقيقة ولكن ربما تعوزه اللباقة قليلاً « لكل ما فعلته « واصلت غير مرتبك، «في الحرب» « أي حرب ؟ « قال الرث.

على أي حال أحضرت معي سرج حمار مطرز كهدية ، وهكذا مضى الحفل بخير. وفي النهاية بالرغم من أن معظمنا ، أتخيل ، كان يفضل « ذكر ذلك في الرسائل الرسمية « بدلاً من سرج حمار مطرز بعناية.



الباب الثاني عشر

في المستنقع



الباب الثاني عشر
في المستنقع

« المستنقع « هو الاسم الذي أطلقناه على مديرية بحر الغزال في جنوب السودان. بينما اتخذنا طريقنا خلال مستنقعات السَّد SUDD التي تفصلها من النيل الأبيض شعرنا أن الاسم مناسب. والسفر في نهر الجور في اتجاه المنبع أثناء موسم الأمطار عندما كان النهر مفتوحاً للملاحة من ثلاثة إلى أربعة أشهر. اعتبرنا أنفسنا محظوظين إذ استغرقنا أقل من أسبوع ونحن نحدق فيما يبدو أنه مستنقع غير محدود. فأينما ننظر فلا يوجد شيء يرى سوى بحر مسطح من نبات البردي والقصب والحشائش التي غالباً ما تزحزحها عاصفة وتنجرف مع تيار النهر وتحاصر مركباً ماراً. وفي كثير من الأوقات حاصرت النباتات مراكب هكذا وكثير من ركابها ماتوا جوعاً قبل أن تصلهم النجدة.

عند ما وصلنا إلى واو - عاصمة المديرية - سرعان ما نسينا رحلتنا التي استغرقت ثلاثة أسابيع من الخرطوم. وبدأ « المستنقع « يلقي بسحره على جميع من نقلوا إليه. معظمنا ممن يتقرر نقلهم من مديرية إلى مديرية أخرى بسبب المرض أو لأي سبب آخر يترقبون الوقت الذي يعودون فيه إليها.

من مناجم النحاس الصغيرة في حفرة النحاس في الغرب حيث يصهر الجور خام الحديد في أفران طينية صغيرة يدفعون الهواء إليها بالكير البسيط لتسخين الخام ، إلى أراضي الرعي الخاصة بالدينكا والنوير في الشرق ، من بحر العرب الذي يحد المديرية من الشمال ، إلى الأدغال على حدود الكونغو هنالك دائماً شيء له أهمية لكي يُرى وكثير من الأهمية لكي يعمل. بالنسبة للمغامرين هناك دائماً احتمال قتال مع بعض القبائل التي لم تتم بعد السيطرة

عليها. وبالنسبة لأي شخص فرصة دراسة الإنسان البدائي في بيئته الطبيعية. هنالك قبائل لا حصر لها تسكن مديرية في حجم إيطاليا. بالرغم من أن بعض القبائل قد أبيدت تقريباً من تجار الرقيق. وقد كان هنالك حوالي مليون شخص في « المستنقع « قبل خمسين سنة ولو أن كثيرين منهم قد اضطرهم تجار الرقيق إلى الاختباء في الغابات. إن ذكرى هذه الغارات المتواصلة التي بدأت في أيام أجدادهم واستمرت إلى وقت مجئ البريطانيين جعلت رجال القبائل الجنوبية خائفين أو عدائيين ومرتابين في الإنجليز ذوي البشرة الفاتحة الذين اعتبروهم كأحفاد لتجار الرقيق.

لإدارة البلاد والحفاظ على النظام وكسب ثقة الناس كان هنالك في البداية ثمانية موظفين بريطانيين – مدير المديرية ، مفتش أعلى ، مفتش أدنى وطبيب في مقر رئاسة المديرية في واو وضابط بريطاني وحيد مسئول في كل محطة خارجية مثل رومبيك ومريدي وطمبره وراجا. المسافات شاسعة. . مريدي على بعد ثلاثمائة وثلاثة وسبعين ميلاً من واو. من واو إلى حفرة النحاس حيث توجد محطة صغيرة لمنع الناس من ساحل أفريقيا الغربي من جلب الرقيق إلى السودان وهي مسافة أربعمائة ميل وهي تقتضي رحلة على الأقدام من سبعة إلى ثمانية أسابيع وسباحة كثير من الأنهار. فإذا بدأت اضطرابات أو صار مسئول مريضاً للغاية كما يحدث غالباً في الطقس غير الصحي فإن أحتمالات وصول المساعدة في الوقت المناسب بعيدة جيداً.

في حزام ذبابة مرض النوم لا توجد وسائل للتحرك من مكان إلى آخر إلا بالمشي خلال الحشائش العالية التي تبلل المسافر حتى جسده.

وبمرور الزمن والقرويون يتم حفزهم للعمل تم توسيع الدروب خلال الغابة في موسم الجفاف. لكن الأمطار بعد بضعة شهور تمحو كل آثار عمل الشتاء. والأنهار والنهيرات التي لا يمكن إحصاؤها لا يمكن عبورها إلا بقطع

الأشجار الكبيرة في أماكن مناسبة إلى أن أنشأ الضباط البريطانيون بمساعدة العمال غير المدربين وغير الراغبين جسوراً بدائية من كتل خشبية وحجارة تجرفها باستمرار الأمطار.

الطعام والأدوية والمؤن ومعدات المعسكر لا بد من نقلها على رؤوس الحمَّالين الذين يقتنصون كل فرصة للإختفاء بما يحملون في الغابة ويتركون المسئول في حيرة. والحيوانات البرية قابلة لخلق المتاعب. وفرس النهر قد يقوم بعمل طائش أو يهجم على قافلة من الحمَّالين فيخل تماماً بنظام مسيرة اليوم. الأهالي الذين يحملون حقائب البريد كثيراً ما تضطرهم الأسود إلى تسلق الأشجار ويقضون ليالي تعيسة فوقها قبل أن يصبح الوضع آمناً لمواصلة رحلتهم. مسئول كان ذاهباً في إجازة من واو إلى مشرع الرق ، وجد أن الطريق مغلق بقطيع كبير من بقر الجاموس وقد رفض القطيع مغادرة الطريق و لم يتحرك إلا بعد طرق كل إناء حديدي متاح مما أزعج القطيع وجعله يتحرك ويفتح الطريق للقافلة في قلق معذور من خلال ممر تقف على جانبيه حيوانات تحدق فيهم.

بعد وصولي إلى « المستنقع « سرعان ما سافرت من واو إلى طمبره ومريدي ومفولو. وقد فكرت في المشاق التي واجهها من سبقوني والمخاطر التي واجهوها. الآن جزء ، على أي حال ، من دروب الأدغال قد تم تنظيفه من الحشائش. كنت مزوداً بصورة جيدة بحمَّالين يعتمد عليهم وبالرغم من أنني كنت أمشي معظم الطريق ، أستطيع أحياناً ركوب الدراجة مع بندقية خرطوش على ظهري وبندقية معلقة في ميزان الدراجة. فوق كل نهير يوجد نوع ما من الكباري. وعلى ذلك فليس هنالك ما أخشاه من السباحة في مياه تأوي أفاعي سامة. والناس لم يعودوا معادين.

في خريف ١٩٢٦ بدأت رحلة من واو مع الرائد ووربيرتن التابع لـ (

RAMC) لمستوطنة مرض النوم في سورس يوبو. هذه هي المرحلة الأولى لرحلة ثمانمائة ميل تأخذني إلى حدود الكونغو ذهاباً وإياباً خلال أرض الزاندي والدينكا وغيرها من القبائل الأخرى. سوف نسافر لجزء من الوقت خلال حزام ذبابة مرض النوم (TSETSE) حيث لا تستطيع الحمير والبغال أن تعيش ولذلك علينا أن نعتمد على الحمَّالين لنقلنا. ويعني ذلك المشي لحوالي أربعمائة ميل إلا لفترات قصيرة عند ما يستطيع ووربيرتن وشخصي ركوب الدراجات.

لقد جمعنا الحمَّالين التابعين لنا في وقت مناسب ولكن في صباح يوم مغادرتنا تم تأخيرنا بمحاولة استرجاع بعض الحمَّالين من آخر حفلة سكر في مكان السوق. واحد بعد الآخر تم سحبه من المواخير سيئة السمعة في واو، وبوصول الساعة إلى الحادية عشرة كنا جاهزين لأول مسيرة قصيرة. الطرود المكونة كل منها من ستين رطلاً قد رصت في صفوف والحمَّالون مصفوفون خلفها. وعند ما أعطى الرئيس الأمر لكل حمَّال أن يرفع طرده الموجود أمامه بدأ التدافع والهرج. فكل منهم اندفع إلى ما يعتقد أنه الحمل الأخف. وقد سعدت لأرى أحد أقوى المجموعة يدفع منافسيه إلى الجوانب ويستولي على أصغر طرد. كنت أعلم أنه سيندم قبل مضي وقت طويل إذ أن هذا الطرد يحتوي على الذخيرة وسوف يكون هو الأثقل والأكثر تعباً.

قضينا الليلة في أول استراحة حكومية (حيث كنا متوقعين) ووجدنا صفاً طويلاً من القرع والجرار الفخارية مليئة بالعصيدة أو خلطة فتة عدس للخدامين والحمَّالين. أما بالنسبة للرائد ووربيرتن وشخصي فإن رئيس الطباخين المسئول عن الاستراحة الحكومية قدم لنا دجاجة ضعيفة وبعض البيض الذي اختبره بعناية قبل استخدامه. الوجبة لم تكن مكلفة. شلن واحد غطى جميع تكاليف الطعام لنا جميعاً. أضفت مرآة صغيرة وقطعة قماش

كهدية لرئيس الطباخين.

بعد هذه المرحلة القصيرة بدأنا مسيرتنا اليومية في كل صباح بمجرد شروق الشمس لأننا أردنا الوصول إلى الاستراحة التالية قبل هطول أمطار ما بعد الظهر. المسافات بين الاستراحات خمسة عشر ميلاً – وهو مسيرة ست ساعات بالنسبة للحمَّالين – وهي مريحة. والاستراحات عموماً من خمسة عشر إلى ثلاثين قدماً في الطول ونصف ذلك في العرض وهي مسقوفة سقفاً جيداً بالحشائش أو القصب وتقوم على دعائم من الخشب أو جدران من الطين وارتفاعها حوالي أربعة أقدام. ولكن لها على أية حال مضار. . إيواء بعض الحشرات غير المرغوب فيها. فنزول ما يشبه الغبار على ناموسيتنا يذكرنا بأن الأرضة والخنافس الثقابة تعمل باجتهاد في الدعامات الخشبية فوقنا. وأملنا ألا يؤدي عملها الكدود إلى انهيار السقف فوق رؤوسنا. . السحالي تطارد فرائسها دون انقطاع في سقف القش ويلاحقها كما يبدو بدوره بعض الثعابين التي تختبئ في السقف. بينما كنت مستيقظاً وأنا في سرير المعسكر أفكر كيف أن في أفريقيا يبدو دائماً أنه إما أن تكون آكلاً أو مأكولاً. كان من أكثر ما يسر النظر نحو نيران حمَّالينا المتوهجة التي أضاءت الأدغال والموسيقى التي تتألف من طنين حشرات لا حصر لها وزنِ أجنحة دقيقة – أصوات مهدئة لم تكسر هدوء ليلة ساكنة الهواء.

لوقت قصير بعد مغادرة واو قابلنا قليلين من رجال ونساء قبيلة بونقو ذاهبين إلى السوق. من ناحية أخرى فقد كان فقط مظهر زعيم وأتباعه في استراحة يشهد على حقيقة أن بعض الناس عاشوا وقاموا بمهامهم اليومية في مساحة منظفة من الحشائش والشجيرات ليس بعيداً من معسكرنا. على البونقو أن يمشوا كثيراً من الأميال لبيع القليل من إنتاج أعمالهم مقابل ٦/١ (سدس) شلن أو يبيعوا قليلاً من الذرة أو السمسم أو قليلاً من الخضراوات، أو لحم

بعض الحيوانات التي اصطادوها بالشراك أو قتلوها بسهم مسموم، أو، كثيراً، مقعد بأربعة أرجل أو أداة خشبية صاغتها أيديهم البارعة. وحتى هذا الحمل الخفيف الذي تحمله المرأة على رأسها لا بد أنه يبدو ثقيلاً على إمرأة مع طفل مربوط بقوة على ظهرها قبل وصول السوق بمدة طويلة. لا بد أنها كانت مسرورة لتجلس القرفصاء في الظل وتتحدث مع صديقاتها في السوق بينما تبيع بضاعتها القليلة قبل أن تبدأ المسيرة الطويلة للعودة إلى البيت مرة أخرى مع قليل من الملح أو أي شيء استحوذ على إعجابها. قصيرة وفي بعض الأحيان سمينة لدرجة مفرطة – علامة الجمال في بلادها – المرأة في قبيلة البونقو تعيش حياة سعيدة. حياة بسيطة بدون أي من التعقيدات التي لا بد أن تقدمها لها الحضارة في يوم من الأيام. مثل أخواتها الأوروبيات فهي مولعة بالملابس المبهرجة ، تطوق عنقها بسلاسل وخرز وتحمِّل رسغيها ومعصميها بحلقات من الحديد أو النحاس وتثبت أجراساً أو أزراراً أو حلقاً في الآذان والشفاه. ومثلهن أيضاً تنتف شعر حواجبها وتعجب بالثوب الجديد. وهي أكثر حظاً منهن، على أية حال ، فهي تستطيع الحصول على ثوب جديد في كل يوم وذلك فقط بالذهاب إلى الغابة وقطف حزمة من الأوراق وتلبسها من أمام ومن خلف. وفي مناسبات خاصة عند ما ترغب في الاشتراك في حفل رقص فإن ملابس الرقص لا تشتمل على متاعب أكثر من استبدال ملبوسها العادي بورق ملون.

الحياة لم تكن دائماً خالية من الاهتمام مثلما ما هي اليوم بالنسبة لقبيلة البونقو. مجتهدون سهل تعليمهم ، منظرهم جميل ومخلصون وهم محسودون من الخرطوميين. ولا حتى الدينكا عانوا أكثر من تجار الرقيق مما عانته قبيلة البونقو. ثم بعد أن راح العرب ، هاجمهم الزاندي من الجنوب وشتتوا القبيلة إلى مستوطنات معزولة. وقد تناقصت أعدادهم من حوالي ثلاثمائة

ألف شخص عند ما عرفهم شفاينفورث في عام ١٨٧٠ إلى بضعة آلاف فقط بحيث انتهوا كقبيلة وهم يفقدون كثيراً من عاداتهم ومميزاتهم القبلية. أول نساء قابلتهن من البونقو لديهن عصيّ قصيرة بطول ٤ بوصات تبرز من الشفة السفلى. ولكن شفاينفورث وصف كيف تلبس النساء سدادة خشبية سمكها أكثر من بوصة تتمدد بها الشفة السفلى أفقياً حتى تبرز أكثر من الشفة العليا. بالنسبة للأوروبي فإن هذا تشويه شنيع. ولست أدري إلى أي مدى صحيح ، التفسير أن ذلك كان يعمل لجعل النساء أقل جاذبية لتجار الرقيق. وهنالك عادات أخرى تركوها.

والذيل المصنوع من ألياف النبات الذي كان يعلق على الحزام من الخلف سيكون قريباً من الماضي ، مثل ضفيرة شعر الصيني التي تتدلى من مؤخرة الرأس.

أوقات الصباح كانت مبهجة البرودة واعتدنا أن نتوقف للإفطار بعد المشي لمدة ساعتين. وبانتعاشنا بهذه الاستراحة القصيرة يزيد الحمَّالون من سرعتهم وقد قضينا وقتاً جميلاً. موسم الأمطار لم ينته بعد تماماً لذلك أجزاء من الدرب لم تنظف تماماً وسرعان ما ابتلت ملابسنا من النباتات التي يبلغ ارتفاعها قريباً من ثمانية أقدام. أنا عادة ما أتأخر عن المجموعة لجمع الفراش ثم أركب الدراجة لحوالي ميلين لأسبق القافلة. كل بركة صغيرة من الماء وكل مساحة صغيرة من الأرض المبتلة زاهية بعشرات الفراشات اللطيفة وكل حركة من الشبكة تصطاد عشرين منها.

هنالك سحر غريب في السير بالدراجة وحيداً في طرقات الغابة الصامتة - صمت لا يقطعه إلا صوت بعض الطيور من شجرة قريبة أو خشخشة حيوان داخل الحشائش العالية - وهنالك شيء مهدئ جداً في السفر البطئ الراضي والهدوء في الأماكن غير المأهولة. أثناء سفري في الدروب الضيقة يكون

لديَّ وقت لملاحظة الكثير مما يفقده أولئك الذين يسافرون الآن بالسيارة على طريق مطروق. الريف هنا يعج بالصيد. وبالرغم من أن الحشائش تتيح غطاءاً جيداً ، أستطيع بين فينة وأخرى لمح تيتل أو زرافة أو التوقف لبرهة لمشاهدة الطيور المدارية الغريبة وهي تقفز من شجرة إلى أخرى.

يوم واحد من رحلتنا مشابه تماماً ليوم آخر باستثناء الإثارة الوقتية عند ما يشير الحمَّالون إلى آثار أقدام أسد حديثة، الذي يمكن أن يكون غير بعيد في الطريق أمامنا. وبعد منتصف النهار بقليل يتوقف مسيرنا ونكون مستعدين لقضاء الثمانية عشرة ساعة التالية في استراحة. ألقى الحمَّالون أحمالهم وهم يتذكرون ربما الأيام التي يظلون فيها جياعاً ويخشون أن يسلبهم أحد طعامهم فاندفعوا إلى وجبة منتصف النهار والتهموها قبل أن أصل إلى مدخل الاستراحة. ثم كمساعدة للهضم وغير مرهقين بما بذلوه في الصباح قضوا الساعة أو الساعتين التاليتين في الرقص. غالباً ما أذهب لمشاهدتهم وهم مرتبون في حلقة يصفقون بأيديهم ويحركون أرجلهم بتثاقل بينما يغنون ويضحكون بدون انقطاع. وبينما يجري إعداد وجبتنا وضعت بعض قطع اللحم المتعفنة في الطريق داخل الغابة لكي أغري الفراشات النادرة للنزول من الأشجار العالية. انتهى الغداء. ذهبت لأرى ما هي الكنوز التي ينبغي أن أجدها. توجد دائماً كثير من الفراشات وهي في حالة سكر شديد من العصائر الناتجة من اللحم المتعفن بحيث أنني أستطيع التقاطها بين السبابة والإبهام دون إتلاف أجنحتها الرقيقة. من الغريب أن مثل هذه المخلوقات اللطيفة تبحث عن مثل هذا الطعام غير اللطيف.

سرعان ما مضى وقت العصر بينما أنا أجمع الفراش أو أكتب مذكرات قصيرة عما رأيته أثناء المسيرة. وعندما أتى الشفق المداري القصير بنهاية اليوم ابتلعنا جرعتنا المسائية من دواء الكينيا وكمية قليلة من الويسكي والماء وكنا جاهزين

لوجبتنا المسائية والنوم.

أول التماعات فجر ضبابي ، أيقظت الخدامين والحمّالين لعمل غير مرحب به. سراير المعسكر تم تعطيفها والمراتب وضعت في حقائب مشمع وكراسي القماش تم تفكيكها ليس بدون صعوبة ويطلق الموظفون الذين لم يتعلموا تفكيكها اللعنات. هذا وتم تفقد الأحمال. بسكويت وكوب من الشاي أعد لنا لمسيرتنا التالية وقد بدأنا السير.

كنا محظوظين بالنسبة للطقس. لأن السحب الراعدة التي تتجمع في السماء في كل يوم بعد الظهر انفجرت مرة واحدة بغضب علينا في طوفان غمر الأرض بحيث بدأنا العمل في الصباح التالي متأخرين. بعض الناس يقولون إنهم « يستمتعون بعاصفة رعدية قديمة جيدة «. أنا لست منهم ولكن فإن العاصفة الرعدية السودانية مختلفة تماماً عن الإنجليزية.

يبدو أن دوي الرعد وهطول المطر المدرار يشل الإنسان بطنينه وأن البرق يحيط الإنسان بملاءة من اللهب. الوفيات من الصواعق ليست بغير الشائعة. وأن الصاعقة تضرب بنزوة غير متوقعة. أذكر كاتباً محلياً في واو كان ينتظر الباخرة لتأخذه في إجازته عند ما ضربت الصاعقة الكوخ الذي كان يجلس فيه فقتل مع أن صديقيه اللذين جاءا لوداعه لم يصابا بأذى. كان الكاتب جالساً في كرسي قماش ورجلاه على الأرض بينما صديقاه كانا يجلسان على عنقريب وأرجلهم متدلية. وربما كان ذلك مما أدى إلى نجاتهما. رجل يحمل طفلاً صغيراً هاجمته عاصفة رعدية على مسافة من المنزل نزل من حماره وانحنى تحت شجيرة صغيرة ليجد بعض الحماية من المطر. وبينما هو راقد هناك ضربته صاعقة فمات بينما الطفل الذي بين يديه نجا من الكارثة.

طبيعي ، أن الناس يخشون هذه العواصف ويحاولون مصالحة الأرواح

الشريرة التي يعتقدون أنها تثير هذه العواصف. الزاندي يأخذ ملء الفم من الماء وينفثه على الأرض مع دعاء يقول فيه « إذا قصرت في أي شيء هناك انتهى. إنني أنفث هذا الماء على الأرض كعلامة على حسن النية «. أحد الشلك فإنه يبرك في كوخه إذا مرت العاصفة عليه وهو داخل الكوخ وإذا كان في العراء فإنه يلوث الأساور والعقود وغيرها من أنواع الزينة حتى لا تجلب قيمتها الظاهرة حسد الآلهة.

العاصفة في هذه المناسبة كانت، كما هو معتاد في هذا الوقت من السنة ، قصيرة المدة. بمجرد توقف قصف الرعد أعلنتنا الطيور المغردة والضوضاء الغريبة والحفيف في الأشجار أن الغابة قد عادت إلي الحياة مرة أخرى.

في اليوم التالي انتظرنا قليلاً لتبدد الشمس الضباب وتجفف الأرض حتى لا نصل إلى الاستراحة التالية بعد منتصف النهار بوقت طويل. مرت الأيام البطيئة وعند ما اقتربنا من سورس يوبو وجدنا أن الطرق قد تم تنظيفها من الحشائش لعرض عشرة إلي عشرين قدماً وزرع الموز الهندي (Plantain) على جانبي الطريق. بدأنا نشاهد لمحات من أكواخ – كثير منها مغطي بنباتات متسلقة من النوع الذي يمد الناس بالقرع (Calabash) الذي يستعمل كأواني في أفريقيا. خرج أصحاب الأكواخ ليحيونا بصرخاتهم الحادة (Sennenei) ورددنا عليهم بنفس التحية. سرعان ما ازدحم طريقنا بالناس للترحيب بأول زوار رأوهم للعديد من الشهور. هناك جوقة مغنين صغار على البعد هيأتنا لما هو حفل استقبال باهر. وعند ما استدرنا حول ركن الشارع وجدنا حرس شرف في انتظارنا – ثلاثون من أبناء الزاندي الصغار ، سيقانهم مغطاة بالطباشير وكأنها ملفوفة بالقلشين وهم يحملون بنادق خشبية صغيرة (كاملة مع حامي الزناد المنسوج من الحشائش) ويلبسون على صدورهم جراب البندقية المصنوع من القصب.

كانوا يركضون بجانب دراجاتنا ويضحكون ويغنون ورافقونا إلى الاستراحة في مستوطنة مرض النوم بسورس يوبو الذي سيكون الكثير لقوله عنه في الباب التالي من الكتاب.

في الأصل كنت قد نويت الإقامة لبضعة أيام فقط ولكن اتضح فيما بعد أن زيارتنا استغرقت أسبوعين أو ثلاثة. أولاً ووربيرتن رقد مريضاً بالملاريا وبمجرد أن أبلّ سقطت أنا مريضاً. وقد كنت شاكراً فيما بعد لهذا التأخير إذ أعطاني فرصة لقراءة التقارير الحكومية عن مرض النوم ومناقشتها مع بعض هؤلاء الذين كافحوا المرض ببسالة.

بمجرد أن استعدنا لياقتنا للسفر بدأنا مرة أخرى في السير وذلك في بطء إذ كنت أرغب في رؤية كيف تعمل محاكم زعماء القبائل. وعلى ووربيرتن أن يفحص الناس فيما يتعلق بمرض النوم. استمعت لمدة أربع ساعات في المحاكم إلى مجادلات لا تنتهي حول مهر العروس الذي لم يدفع كاملاً. وغرامة مستحقة من شخص جرح غريماً له في مشاجرة أو نزاعات عن زوجات هاربات من أزواجهن. وقد أدخل لون قليل في أحد الأماكن حيث هنالك محتال كبير السن يترأس محكمة ويلبس قبعة خضراء وصديري نسائي وأحذية رمال وبنطلون عسكري كاكي إحدى رجليه مقطوعة من فوق الركبة. معظم وقتنا انقضى في فحص معتاد لعلامات مرض النوم. أخبار مجيئنا سبقتنا وفي كل مكان توقعنا فيه مائة شخص أو أكثر تجمعوا تحت شجرة ظليلة ووقفوا صفاً أمام ووربيرتن الذي يتلمس خلف آذانهم بحثاً عن حبة صغيرة كحبة الفول قد تدل على مرض النوم. أحياناً يجري وضع قليل من الناس في صف للمزيد من الفحص. ويجري فحص قليل من الدم تحت المجهر فإذا وجدت أي علامات على وجود طفيل (trypanosomes) فإن المشتبه يرسل إلى مستوطنة مرض النوم في سورس يوبو.

وهكذا وعلى مراحل سهلة وصلنا إلى مريدي في الوقت المناسب لعيد الكرسماس حيث ذهبنا إلى صلاة قادها قسيس من الزاندي.

بعد إقامة قصيرة في مريدي استأنفنا مسيرنا إلى الشمال. مسيراتنا القليلة التالية كانت غير سارة. اضطررت لترك بلال المخلص خلفي حيث كان مريضاً جداً بالملاريا ولا يستطيع السفر. تمنيت أن يأخذه لوري فيما بعد ليلتحق بنا. باقينا جميعاً كان يعاني من الملاريا أو الدسنتاريا. وجبات مملة من لحم البقر المعلب أو الساردين أو السجك أو سمك الهرنق وغيرها من الأطعمة المعلبة بدأت تؤثر على صحتنا. وأرى من دفتر يومياتي أننا خلال تسعة وخمسين يوماً أكلنا مرتين لحم ماعز ومرتين دجاجة عجفاء. كان ذلك هو اللحم الطازج الوحيد بالرغم من أننا استطعنا الحصول على بعض الفواكه الطازجة وقليلاً من الخضراوات في سورس يوبو ومريدي. لقد ملأنا الأمل أن يأخذنا لوري قريباً في المرحلة التالية من رحلتنا ولكن خاب أملنا حيث أن كلاً من كابتن كد (Kidd) والإنجليزي الآخر في مفولو (Mvolo) مريضين بالملاريا و لم يستطيعا مقابلتنا واضطررنا إلى مواصلة المشي. حمَّالونا كانوا مرضى أيضاً وبدلاً من مسيرة صباحية طويلة واحدة اضطررنا إلى تقسيم مسيرتنا اليومية إلى ثلاث رحلات قصيرة. وفي أحد الأيام لم نستطع أن نسير إلى مدى أبعد فتوقفنا بالقرب من بعض الأشجار الصغيرة التي لها ظل قليل وأمرت بفرش بساطي الأرضي وكنت على وشك الجلوس عند ما انهالت الرماح على الأرض بجانب قدمي محذرة لي من أن موضع استراحتي كان سيء الاختيار (حقيقة أنني حُذرت هو عذري الوحيد لبلاهة كادت أن تكلفني كثيراً). .تكاد تكون مخفية بين الأوراق الساقطة بلونها البرتقالي وجسمها الأصفر - البني منسجمة مع لون الأوراق ، كانت هنالك الأفعى النافخة. لديَّ دائماً خوف من الأفاعي بحركاتها

السرية المتعرجة وبعيونها التي لا تغطيها جفون. من جميع الزواحف المقيتة على هذه الأرض والأكثر كراهية القصيرة البدينة ذات الرأس المسطح الأفعى النافخة. وكجائزة لما فعلوه أعطيت الحمَّالين الأربعة الذين طعنوا الأفعى علب ساردين فارغة. وفرحاً بهذه الهدية الرائعة ثبَّت الحمَّالون هذه العلب في آذانهم ورقصوا لأكثر من ساعة.

بعد يوم أو أكثر وصلنا إلي مفولو (Mvolo) وانتهت متاعبنا حيث سافرنا آخر أربعمائة ميل في لوري.

تأخري الإجباري في سورس يوبو أعطاني فرصة لتعلم الكثير عن الناس في هذه المنطقة أكثر من أي منطقة أخرى وسوف أختم هذا الباب عن ملاحظة قصيرة عنهم.

تم حكم قبيلة الزاندي بواسطة عنصر أجنبي ، الأفونغارا (Avungara) الذين غزوا بلادهم في الماضي البعيد، ويحكم زعماؤهم الآن رعاياهم بأقسى أنواع الوحشية ، بعض من أكثر ما يقزز النفس من القسوة التي يمارسها الأفونغارا ، لا أود أن أسجلها. بالنسبة لآخرين أشعر بأنه من الأصح الإشارة إليها إذا كان ذلك فقط بسبب أنه ما زال هنالك منتقدون للإدارة البريطانية يعترفون أنهم لا يرون فيها إلا استغلالاً جشعاً لأناس متخلفين عاشوا حياة بسيطة سعيدة إلى أن جاء تدخل الرجل الأبيض فعكر صفوها.

عندما وصلت طمبره لم أستطع مقاومة ملاحظة كم من الرجال تم تشويههم وسرعان ما اكتشفت أنهم كانوا ضحايا زعماء قبيلة الأفونغارا الذين قبضوا على كل إمرأة أعجبت عيونهم الشهوانية. سلطان طمبره مثلاً احتفظ بمئات النساء لاستعماله الخاص محروسات بعناية في قرية خاصة. وكل من يتدخل في زوجات هؤلاء الزعماء يواجه مصيراً لا رحمة فيه. تقطع أذناه وأنفه وشفتاه

وكفاه وغيرها من التشويهات المروعة. ويكون الضحية مثالاً حياً إذا لم يمت من الصدمة أو فقدان الدم. وهذا ما يحدث لأي شخص يتحرش بالزوجات الملكيات. كثير من المخلوقات البائسة بعد غمر أعضائهم الجريحة في الزيت المغلي ما زالوا يعيشون كأشياء بشعة تذكر بتلك الأيام الحزينة. القبض على هذا العدد الكبير من النساء طبيعياً أحدث اضطراباً في الحياة الجنسية لكل القبيلة. الرجال، عادة متعددو الزوجات، قد دُفعوا بنقص النساء إلى الاتصال الجنسي غير المشروع، والنساء المحتجزات إلى رذيلة غير طبيعية.

إذا كان البغاء عند ما كان الزعيم حياً غير سار فغالباً ما يكون أسوأ بموته. في أحد الأيام مفتش مصلحة الغابات (اعتقد أن اسمه يبدأ بحرف R) كان يبحث عن نبتة مطاط في مركز طمبره عند ما سمع صراخاً من داخل الغابة. مشى في درب ضيق نحو مصدر الصوت إلى أن وصل فجأة إلى منطقة من الحشائش وعشرات من الرجال والنساء متجمعين بجانب مجموعة من الفتيات الصغيرات. بعض الرجال رؤوسهم حليقة تماماً والبعض شعره مشقوق بعناية في منتصف الرأس والبعض بضفائر فيها ريشة وهم يلبسون التنورة المعتادة من لحاء الشجر. كانوا سكارى ببيرة الموز مجانين من الإثارة. النساء عاريات فيما عدا حزمة من ورق الشجر من أمام ومن خلف معلقة على حبل من لحاء الشجر حول الخصر. وهن مثل الرجال أصابتهن عدوى انفعال عميق. ولكن كان الخوف والفزع ما ارتسم على وجوههن وليس شهوة الدم الشرسة التي غيرت الرجال إلى مخلوقات معتوهة بذيئة. وحده ولكن هنالك بضعة حمَّالين مرعوبين ، مشى المفتش دون تردد إلى وسط الحشد بالرغم من الاحتجاجات الغاضبة ورأى حفرة كبيرة مفتوحة قطرها حوالي أربعة أقدام وفي قاعها جثمان السلطان الميت ملفوفاً بحزام ومحاطاً بقرع به طعام وشراب ورأى المفتش بجانب الحفرة فتيات صغيرات وكانت صرخاتهن قد

لفتت انتباهه. سأل المفتش ابن السلطان – وهو همجي متوحش – ما سبب هذه الصرخات. شرح الشاب أنه عند ما يموت زعيم عظيم فإن على الفتيات الصغيرات مرافقته إلي عالم ما بعد القبر لتخدم احتياجاته. وقال هذه هي عادة شعبي وسوف أنفذ ذلك مهما تقول أو تهدد أنت وحكومتك. أرجل هؤلاء الفتيات سوف يتم تكسيرها وسوف يقذفن في القبر ويدفن أحياء مع والدي «. المفتش ولو أنه وحيداً ويواجه غوغاء نصف مجانين بتعظيم مهووس أمر بأن تتوقف المراسم. رغى ابن السلطان وأزبد ولكن المفتش وقف هادئاً وحازماً. وهكذا الاحترام الذي يجده الرجل الأبيض وهكذا الشجاعة التي لا تقهر التي قابل بها المفتش الحشد المجنون. وتدريجياً مع كثير من اللعنات والتهديدات بما سيفعلونه له فيما بعد تفرق الدهماء القساة إلى مساكنهم وتم إنقاذ الفتيات.

سكان الإقليم الأصليون جبناء ويؤمنون بالخرافات ويخشون الأعمال الوحشية البدنية التي قد يرتكبها زعماؤهم ضد أجسادهم ومرعوبون من قوى خارقة للطبيعة يعتقد كل شخص أن قبيلة الأفونغارا تمتلكها. ولسوء الحظ هنالك مصادفات أحياناً عززت الخوف من زعمائهم والتي يبدو أنها تبرهن على امتلاكهم قوى سحرية يدعونها. بعد سنة أو سنتين من مغادرة البمباشي مود (Maude) (أصبح فيما بعد لورد هوارد) طمبره إلى مركز آخر التقى شرطياً حكى له عن مصادفة غير سارة. قال سلطان طمبره مرارا إنه عند موته فإن روحه سوف تتحول إلى أسد يتجول في القرية ويقتل « أناساً معينين « كانوا أعداءً له في حياته. مات سلطان طمبره، وبالرغم من أنه حتى وقت وفاته لم يسمع أحد أسداً في المنطقة ، جاء في الليلة التي مات فيها أسد يزأر خلال القرية وقام بقتل « الأناس المعينين «.

الطرق غير التقليدية هي غالباً الوسائل الوحيدة التي يمكن بها إقامة العدالة

خاصة في قضايا السحر. ليس سهلاً علينا – نحن الذين نسكن في بيوت مضاءة وبها تلفون قريب المنال وشرطي سهل الاتصال به وعدم وجود أسود أو فهود أو أفاعي سامة مختبئة خارج منازلنا – إدراك ما تعنيه الحياة لهؤلاء الناس البدائيين في غاباتهم المظلمة. الظلام والخوف غالباً ما يعيشان معاً. فالخوف هو الرفيق الدائم لأيامهم ولياليهم. الخوف مما سوف تفعله أرواح أسلافهم بهم. الخوف من الموت المفاجئ من أحد المخلوقات التي تتحرك في الغابة بسرية ، الخوف من القوى الغامضة للعرّافين – مخاوف ترجع إلى أجيال لا تحصى وأصبحت الآن جزءاً من حياتهم العادية. إن الخوف من هؤلاء العرّافين هو حقيقي للغاية. فليس هنالك زاندي يعتقد أن أي شخص قد مات من أسباب طبيعية، بل يعتقد أن جميع الوفيات بسبب السحر الأسود. وعلى هذا يتاجر العرّاف وتصبح قوة الإيحاء عظيمة فإن كل من يعتقد أن لعنة الموت قد وجهت إليه فإنه عموماً يترك أي أمل ويموت.

من الصعب محاكمة عرّاف بالرغم من أن قواه الشريرة ظاهرة للجميع، والذي دون شك له معرفة كبيرة بالسموم التي يستعملها سراً لأغراضه السيئة. لا يجرؤ أحد أن يشهد ضد رجل عاش وسط هؤلاء الذين أرعبهم. المفتش البريطاني نادراً ما رؤي ، قواه ينبغي إثباتها ، و لو بأساليب غير تقليدية نوعاً ما.

مود (Maude) واحد من هؤلاء الذين كانوا يلجأون إلى مثل هذه الأساليب ومع نتائج مرضية للغاية. في إحدى المناسبات اعتقل عرّافاً مشتبهاً بأنه وضع لعنة الموت على بعض الناس التعساء وفي حضور هؤلاء الضحايا سأل المتهم إن كان بالفعل لديه قوى الحياة والموت التي يدعيها. اعترف المتهم أن لديه ذلك ، وبالفعل ما كان يستطيع أن يفعل أي شيء آخر وإلا فقد سلطته.

« حسناً « قال مود (Maude) « إذن ألق سحرك عليّ « لقد كان تحدياً فيه مغامرة لأنه إذا أصبح مود مريضاً فيما بعد فإن العرّاف سوف يفخر بما

فعله وأن مكانته سوف ترتفع. « ليس لدي قوى على الرجل الأبيض « رد المتهم. وتابع مود بقول « وليس لديك قوى على الرجل الأسود كذلك. وإثباتاً لذلك فإنني سوف أجلدك اثنتي عشرة جلدة الآن. وسوف تنال اثنتي عشرة جلدة أخرى في كل يوم إلى أن يشفى مخدوعوك التعساء «.

وقائع الحياة القليلة في « المستنقع « حتى رؤيتها حدثت منذ أقل من أربعين سنة مضت. و لم تتوقف مثل هذه الحوادث من أن تكون جزءاً من الحياة العادية لعشرات الآلاف ممن يعيشون على طول حدود السودان مع الكونغو. إذا كان أبناء وبنات هؤلاء الناس يستطيعون الآن أن يذهبوا إلى مدرسة مسيحية دون التعرض لهم بسوء وأن يعيشوا حياة هادئة وخالية من الهموم. وأن يسافروا بسيارة أو لوري وأن يستمتعوا بأطايب لم يحلم بها أباؤهم، إذا كان الرجال يستطيعون الزواج والنساء لا يغتصبهن الزعماء الطغاة، إذا كان كثير من رجال الجنوب أصبحوا مرتاحين من مخاوف الشياطين التي أزعجتهم نهاراً وترددت عليهم ليلاً، وهم يتذكرون بمزيد من الشكر شجاعة أولئك الإنجليز القليلين الوحيدين. . رجال واجهوا الموت بالسحر أو بحربة مفاجئة. . تحدوا وانهوا سلطات العرَّافين ومروجي الأدوية المحلية وقد فتحوا الآن أمام الشباب مجالات غير متخيلة من السعادة والرخاء.



الباب الثالث عشر

مرض النـــــــوم



الباب الثالث عشر
مرض النوم

الجزء الجنوبي من مديرية بحر الغزال ، خاصة على حدود الكونغو ، جميل جداً. الأمطار المبكرة تعيد الأرض الجافة إلى الحياة وتكسوها ببساط من الأزهار. .. وتوجد دائماً أنهار صغيرة جارية وفي أماكن كثيرة أشجار مهوقني عملاقة وأشجار أخرى في مثل جمال المهوقني إن لم تكن في ضخامتها تسر النظر. طيور وفراشات ومخلوقات برية غريبة تضيف اللون والسحر إلى المناظر. لسوء الحظ أن هذا المحيط الخلاب كان موطناً لعدة قرون لأكثر الأمراض التي تصيب البشرية بغضا. . فرامبوزيا (YAWS) ، القرح الإستوائية ، داء الفيل والجذام والتي كانت لا مفر منها وغير قابلة للعلاج إلي أن جاء الرجل الأبيض إلى أفريقيا. والأكثر إخافة من كل هذه الأمراض هو مرض النوم – مرض بطئ تتأخر فيه النهاية بالنسبة لضحاياه التعساء.

إن الاسم الخادع يأتي من الأعراض الأولى التي تظهر – نعاس وفتور في الهمة يمنع المريض من عزق أرضه الصغيرة أو الصيد لجلب الطعام. هذا الفتور يعقبه أشد أنواع الصداع تعذيباً وارتعاشات في جميع أعضاء الجسم وتدهور عام إلى أن (في المراحل الأخيرة من المرض) يصبح الضحية التعيس لا يشبه الإنسان بالمرة. يفقد جميع السيطرة على أعضائه ويتبع ذلك الجنون وبعدم وجود من يعتني به يموت جوعاً وعطشاً وألماً. قرية بعد أخرى قد اختفت بسبب هذا المرض الفظيع. وظهوره في مجتمع يلقي ظلاً من الخوف واليأس على الناس.

أم ذهبت إلى النهر لجلب الماء للأسرة قد تكون الضحية الأولى أو أب قد

عاد من الصيد في الغابة وذهب ليطفئ عطشه في نفس المياه القاتلة حيث تكثر ذبابة التسي تسي (Tsetse) وهو لا يعرف أن ذلك يعني الموت. يوماً بعد يوم يصبح الوالدان أضعف. وتدريجياً يتلاشى المخزون القليل من الطعام ، يجوع الأطفال. تموت نيران المعسكر إذ لا يوجد شخص يعتني بذلك. أما أولئك التعساء الذين يعيشون لفترة أطول فإنهم يرقدون بالقرب من أكواخهم دون قدرة على الحراك فقط مع أنين المحتضرين وعواء الضباع. والأسود الآكلة للبشر تجدهم ضحية سهلة إلى أن يتم إلتهام آخر شقي يعاني وتغمر الغابة الزاحفة الأكواخ.

وجود مرض النوم كان معروفاً لما يقارب ستمائة سنة وإن كان لقرون عديدة يبدو أنه كان محصوراً في مناطق قليلة بغرب أفريقيا. هنا ربما كان سيبقى ولكن بسبب تمرد غريب للطبيعة الذي قضى بأن السلام قد يبرهن على أنه نقمة عظيمة على شعوب أفريقيا أو النهب الذي تم على يد تجار الرقيق.

حتى منتصف القرن الماضي كانت الرحلة عبر أفريقيا الوسطى صعبة وخطرة للغاية بحيث تكاد تكون مستحيلة. لا أحد يستطيع السفر بدون مساعدة حمّالين. وبما أن أهالي منطقة ما لا يجرؤون على دخول مناطق جيرانهم فإن هؤلاء الحمّالون يستبدلون عند حدود كل منطقة قبلية. لذلك فإن سلسلة الاتصالات بين الغرب والشرق كانت تقطع كل بضعة أميال. ولكن حيث أن السفر صار أقل خطراً واستطاع التجار أخذ طريقهم من منطقة إلى أخرى بدون الخوف الحاضر دائماً من مهاجمتهم برجال قبائل معادين ، أصبح هؤلاء الحمّالون يذهبون إلى داخل القارة. وفي دماء هؤلاء الحمّالين والتجار جاء مرض النوم من ساحل أفريقيا الغربي عبر جميع الحزام الإستوائي. حملة ستانلي لاكتشاف قلب أفريقيا ، بالرغم من أنه مشروع عظيم في ذاته ، ربما ساعد في انتشار المرض على طول كل مرحلة من مراحل رحلته.

كثيرة جداً الأمراض غير المعروفة التي عانى منها الأفريقيون وقليل جداً من الأوروبيين ممن عاشـوا بينهم، لذلك فإن التقدم المخادع لمرض النوم لم يتم إدراكه حتى سـنوات الختام للقرن الأخير. أفريقيا الإستوائية الفرنسية والكونغو البلجيكي كانتا من أوائل المناطق التي لفتت الانتباه لهذا الخطر الجديد. لكن بحلول عام ١٩٠٨ استسلم لهذا المرض ما بين مائتين وثلاثمائة شخص في إحدى مديريات يوغندا. وجميع سكان جزيرتي بافوما وسيسي كانوا سيهلكون لولا أن الحكومة رحلت الناجين من المرض إلى منطقة صحية على الأرض الرئيسية. وبالرغم من فداحة هذه الخسائر إلا أنها تبدو غير ذات بال بالمقارنة مع تلك التي وقعت في أفريقيا الإستوائية الفرنسية. هنا في فترة عشر سنوات بين ١٩١١ و ١٩٢١ تناقص عدد السكان من تسعة ملايين شخص إلى أقل من ثلاثة ملايين حسب مقالة رئيسية في الصحيفة الفرنسية JOURNAL DES DEBATS بتاريخ ٢٣ يوليو ١٩٢٣. وقد مات أكثر من ستة ملايين شخص خلال عشر سنوات وهذا أكثر بكثير ممن قتلوا في الحرب العالمية الأولى. وهذه الكارثة المروعة كانت ترجع كلياً تقريباً لمرض النوم. ولسنوات عديدة لم يعرف أي شيء عن المرض بخلاف أن مئات الآلاف من الأهالي كانوا يموتون كل سنة من ألم شديد من مرض غريب وأما السبب فغير معروف ولم يكتشف بعد علاج لهذا المرض.

كانت هنالك كثير من التخمينات عن السبب. البعض يعزو ذلك إلى ضربة الشمس أو البري بري BERI – BERI (حمى من نقص الفيتامينات) أو الملاريا. والبعض يعزوه إلى السم أو أكل حبوب بها مرض أو بعض طعام مثل الكسافا المرة. وبعض أنواع الكسافا سامة ما لم تغسل وتجهز بطريقة خاصة. وتستعملها قبائل معينة لتسميم الغرباء الغافلين. وهنالك أنواع أخرى غير مؤذية. ماري كنقزلي (التي زارت لأول مرة ساحل أفريقيا الغربي في ١٨٩٣

) تكتب أن الأهالي غالباً يعزون المرض للكسافا. ولاحظت أن مرض النوم كان منتشراً في كاكونقو حيث الماء نادر نسبياً وأن جذور الكسافا المجهزة تصدر منها رائحة كريهة جداً وأن أي شخص يستطيع أن يهتدي إلى منزله في الظلام فقط بتتبع أنفه للرائحة. والحقيقة هنا مفتاح المشكلة إذا عرفت أهميتها لأن البرك الصغيرة التي تعالج فيها جذور الكسافا كانت مكاناً مثالياً لتوالد ذبابة تسي تسي Tsetse ولكن مضت سنوات عديدة قبل أن يثبت الإخلاص المدهش والبحث الذي لا يني لبضعة أطباء أن مرض النوم يحمله نوع خاص من ذبابة النوم (Glossina Palpalis) بعد عض شخص مصاب فهذه الذبابة تصيب أولئك الذين تعضهم فيما بعد بالدم الملوث من ضحيتها السابقة.

السودان بالرغم من أن مرض النوم انتشر قرب حدوده الجنوبية ظل لقليل من السنوات خالياً من المرض. تدريجياً ولكن دون هوادة أصبح الخطر يقترب. إنها فقط مسألة وقت قبل أن يجد المرض طريقه إلي داخل بلاد بها نفس الأدغال والغابات والأنهار التي آوت ذبابة النوم في أقاليم مجاورة. بحلول عام ١٩٠٩ نصف سكان بعض القرى على الجانب الفرنسي من الحدود ماتوا. التجار وصيادو الحيوانات الضخمة عادوا بقصص مروعة عما كان يحدث. لا يوجد حمَّالون حيث كانوا يتوقعون وجودهم ولا يوجد أحد لفلاحة الأرض وتبعاً لذلك لا يوجد طعام.

إذا كان يمكن ترحيل جميع الناس في الجانب السوداني من الحدود من المناطق المهددة ،

إذا كان يمكن إقناع الجميع بعدم الدخول إلى المناطق الموبوءة بالمرض ،

إذا كان يمكن منع جميع الناس من الكونغو وأفريقيا الوسطى الفرنسية

من دخول السودان ،

إذا لم يكن الأهالي معادون ومرتابون ،

ربما ما كان لمرض النوم أن يجد له موطئ قدم في السودان.

المرض على أية حال قد أدخل وانتشر. وبدأت الحكومة في محاولة لترحيل الناس من مناطق الخطر. الموظفون البريطانيون القليلون والأطباء البريطانيون والسوريون أبلغوا الناس بالخطر وكيف يمكن تفاديه ولكن رجال القبائل طبيعياً يكرهون بعنف تمزيق حياتهم العادية. لا أحد منهم يستطيع أن يصدق أن الموت المصحوب بعذاب شديد الذي أصبح شائعاً يمكن أن تسببه عضة ذبابة خاصة تعيش في بيئة خاصة. هل نستطيع أن نستغرب على مقاومة نصيحة الحكومة عند ما نفكر في كم من الناس في هذه البلاد يرفضون تطعيمهم إلى أن يدفع تفشي الجدري في المناطق المجاورة إلى السعي بالمئات إلى مركز تطعيم ؟ لقد كانت مهمة صعبة للغاية للتغلب على تقاليد قرون والجمود القدري لأناس بدائيين. كم هو أبسط أن يفضل الزاندي استشارة عرّاف والامتثال لنبوءاته على دجاجة مسمومة من القيام بتغيير تام لنظامهم الاجتماعي الذي تأمر به الآن الحكومة !

ومع ذلك باللباقة والصبر والتعاطف والشجاعة غير المحدودة وبدون استخدام القوة المسلحة تم اقناع أكثر من مائة ألف شخص بترك منازلهم القديمة وبدء حياة جديدة في مناطق غريبة. وهنا كان عليهم بناء منازل جديدة وإعداد الأرض للزراعة وإعداد الطرق من منزل إلى آخر، هذه الطرق من الشجيرات والحشائش في كل سنة. كل هذا العمل كان بطبيعته مكروهاً لدى القبائل التي عاشت في سهولة نسبية في بلد حيث الطبيعة قد وفرت ما فيه الكفاية لجميع احتياجاتهم البسيطة تقريباً. وبجانب ما كان يسمى

(Villageisation) أي تحويلهم إلى السكن في قرى. وكان ذلك بغيضاً لأناس عاشوا دائماً في خصوصية واستقلال في منازل مكتفية ذاتياً داخل الغابة وتخشى من السحر الذي يكمن في أرض غير معروفة لهم. كل من هذه المنازل الصغيرة لديها أرضها المزروعة وأرضها البور ومخزونها الخاص من الكسافا واللوبيا. والنباتات الزيتية وغيرها من الخضراوات. وكل رب أسـرة لديه تلال أرضة خاصة به وفطر صالح للأكل وأعشاب برية.

قبل إمكان بناء هذه البيوت الجديدة كان لا بد من عمل خرط لآلاف الأميال المربعة من الغابات الكثيفة في مناطق غير معروفة بواسطة طبيب لم يكن لديه تدريب في أعمال المسح. ولم تكن هنالك معالم أرضية أو منارة أو خطوط قاعدية أو خطوط أساس. يُنفخ في بوق أو يُضرب على طبل في أعماق الغابة ويؤخذ الاتجاه على الصوت ويشق نوع من الممرات نحو الصوت. يعمل هذا بعد كل خمسة أميال إلي أن يتم رسم خريطة لمسافة خمسة آلاف ميل من الغابة. وفي الحقيقة أنها مرسومة بدقة كبيرة وإلى سنة ١٩٣١ عند ما غادرت السودان لم تبرز حاجة إلى تغييرات جذرية.

وبالإضافة إلى عمل خرائط للبلاد كان على الطبيب أن يشق طرقاً خلال الغابات بمساعدة العمال (غالباً ما يتم جمعهم من أماكن بعيدة) وهم غير معتادين على استخدام أية أدوات إلا أكثرها بدائية. كل معابر الأنهار (وهذه تحدث كل ميلين أو ثلاثة أميال) وجميع أماكن جلب المياه للقرى يجب تنظيف الأشجار الكبيرة والصغيرة منها في دائرة نصف قطرها ستمائة ياردة وتزرع جميع المنطقة بحشائش سري سري (Seri – Seri) لمنع الغابة من التعدي مرة أخرى. في مكان واحد حيث تم شق طريق ، أربعة عمال من فريق العمل قتلتهم أفاعي الماء – وهي زواحف نحيلة سوداء طولها حوالي أربعة أقدام وبطونها فضية وتسبح بسرعة فائقة ولا تظهر فوق سطح الماء إلا

رؤوسها. وهذا الطريق بالذات تم تركه وجميع ما أنفق فيه من عمل ضاع سدى.

مئات الأشجار تم قطعها بفؤوس الأهالي غير الحادة وغير الفعالة لعمل جسور خشبية فوق الممرات المائية. الزاندي يخشون الأنهار ومعظمهم لا يستطيع السباحة. وكذلك لا يستطيع بعض الأهالي من موظفي مكافحة مرض النوم السباحة. وعند ما يصلون إلى نهر فائض يقطعون الأشجار لعمل جسر متأرجح أو تربط النباتات المتسلقة إلى الأشجار لعمل نوع من الحبل يمكن سحب الناس به للعبور. وفي حالة ارتخاء النباتات المتسلقة تحت حمل الشخص ينتظر الأهالي ليروا إن كانوا سوف يتحملون لمدة أطول ليصل الشخص إلى الشاطئ الآخر أو أن التيار سيجرفه ويدمره. في أماكن قليلة هذه الأنهار مجسَّرة بجسور أهلية تتألف من أعمدة مربوطة مع بعضها أو مستندة على شعب أشجار نامية قرب النهر على كلتا جانبيه وهي عالية في المنتصف أكثر من الجانبين لأنه كما لاحظ الزاندي بحكمة « الماء أعمق هناك «.

عند ما تم وضع خرط للبلاد وشقت الطرق كان لا بد من حث الناس من المناطق المصابة بمرض النوم لبناء قراهم الجديدة في المناطق الخالية من المرض وهذه « الطرق « هي ممرات بسيطة خلال الأدغال منظفة بصورة تامة لجعلها مفتوحة للمرور خلال موسم الجفاف. ولحث الناس للبقاء في هذه الطرق الخالية من الذبابة. فتحت دكاكين صغيرة على مسافات من هذه الطرق كما بنيت استراحات تبعد عن بعضها خمسة عشر ميلاً لتؤوي المسافرين. أحياناً تضرب الصواعق هذه الاستراحات وتحرقها وأحياناً يدمرها رجال القبائل المعادية. وعلى أية حال فإنها مبنية فقط من الحشائش والخشب وهي دائماً معرضة للإتلاف من قبل الأرضة أو النمل الأبيض. وهي تحتاج إلى عناية وإصلاح دائمين. القرويون الذين يستخدمون في هذا العمل الخاص

بالمحافظة على الطرق مفتوحة غالباً ما تبلل ملابسهم وأجسامهم بالنباتات التي يبلغ ارتفاعها اثنا عشر قدماً أو يصابون بجروح من القصب الحاد الأطراف كما تعذبهم عضات الحشرات وتشتتهم قطعان الجاموس الهائجة وهم في خطر من الأسود والفهود والأفاعي. إن الزاندي السهل القياد وجد أن مثل هذا العمل الصعب والمستمر منهك للغاية وكان الهروب من العمل كثيراً ولا مناص منه. لم يكن بُدٌّ من ينجز الموظف الطبي الوحيد المهمة المستحيلة وهو نفسه يعاني من الملاريا ، وعلى ما يبدو أنه قد نجح في ذلك بوجوده في ستة أماكن مختلفة في نفس الوقت. توقف العمل في قطاعات واسعة من الطريق فارتدت مرة أخرى إلى أدغال بدائية. شق الطرق أثناء الأمطار كان مرهقاً خاصة أن الوقود مبتل للغاية لإشعال النار وإلى أن يتم بناء الاستراحات فليس هنالك وقاية من العواصف الإستوائية.

بالإضافة إلى الإشراف والمساعدة مراراً في بناء الجسور والطرق على الطبيب أن ينفذ الجزء الطبي الصرف من واجباته ، معالجة المرضى وفحص المشتبه فيهم وعزل المصابين بمرض النوم. ليس من النادر للطبيب أو الموظف أن يمشي أو يركب دراجة لقطع عشرين أو ثلاثين ميلاً في اليوم في جو حار للغاية ويؤدي واجباته العادية كذلك. ولا عجب أن بعضهم رقد بحمى البول الأسود وأن آخرين لزم إبعادهم من البلاد بسبب المرض ولكن المدهش أن كلاًّ من هؤلاء قد عاش بعد ذلك.

بالرغم من كل الصعاب كان كل شيء يسير بصورة حسنة معقولة إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى عند ما استدعي بعض الأطباء البريطانيون في السودان إلى جبهات القتال المختلفة. وأما عملهم في منطقة مرض النوم فقد أسند إلى بضعة أطباء سوريين. وبالرغم من أنهم كانوا يعانون من المرض وزيادة العمل وعدم الإجازات إلا أنهم استجابوا بنبل كبير وتحملوا المسئولية

للسيطرة على منطقة تساوي أربعة أضعاف حجم مقاطعة ويلز.

بنجاح متفاوت استمروا في نضال غير متكافئ، إلى أن، في ربيع ١٩١٦، غادرت دورية طمبره للتعاون مع الفرنسيين في إخماد اضطرابات أفريقيا الإستوائية الفرنسية. ثمانمائة من الحمَّالين الذين رافقوا القوة الصغيرة من السودان دخلوا منطقة ينتشر فيها مرض النوم. وعند عودتهم توزعوا إلى مواطنهم ونشروا المرض في مناطق عديدة. وبالإضافة إلى ذلك فإن مئات من الأهالي من أفريقيا الإستوائية الفرنسية سمعوا بالأحوال السعيدة في السودان فتدفقوا عبر الحدود لتفادي دفع ضريبة المطاط البغيضة التي فرضها الفرنسيون عليهم. وبما أن المطاط ينبت في قطر يعج بذبابة النوم فالأهالي الذين يرسلون لجمع المطاط أصبحوا مصابين بمرض النوم وهم حملوه عبر الحدود إلى السودان. وبعض هؤلاء اللاجئين وصلوا حتى واو على بعد مائة وثمانين ميلاً.

السفر في تلك الأيام كان دائماً بطيئاً ومملاً ولكن عند ما تم شق الطرق وظلت مفتوحة لسنة أو سنتين بعد نهاية الحرب اشترى بعض الموظفين دراجات نارية مما مكنهم من قطع مسافة كانت فيما ماضى تأخذ منهم سبعة أوعشرة أضعاف الوقت.

مستوطنة مرض النوم في سورس يوبو قريبة من الحدود الفرنسية والبلجيكية على طول خط تقسيم المياه بين النيل والكونغو. لقد فُتنْتُ عند ما مشيت على بعض الأرض المرتفعة خلف المستوطنة لأرى نهر يوبو الصغير يخرج من صخرة ويسير في رحلته الطويلة إلى البحر الأبيض المتوسط. وعلى بعد بضعة ياردات أستطيع رؤية النهر الصغير سوني الذي يندمج بعد برهة مع نهر ويلي ثم يتعرج خلال الكونغو إلى المحيط الأطلنطي. الجدولان الصغيران اللذان يبدأن الحياة معاً في قلب أفريقيا يفترقان في خط تقسيم مياه النيل - الكونغو،

يجيشان كنهرين عظيمين ويصلان إلى البحر مفترقين حوالي ثلاثة آلاف ميل.

في وقت زيارتي لمستوطنة سورس يوبو كانت المستوطنة قد أسست قبل حوالي ست سنوات. وبالمقارنة مع السنوات الأولى التي سادها الجوع والارتياب بدأ التغيير يكاد يكون معجزة بالنسبة لأولئك الذين قاموا بالمشروع. المجتمع يكاد يعول نفسه حيث كان هنالك أكثر من ألف فدان مزروعة بالسمسم والبقول والفول السوداني والدخن والكسافا واليام. وكانت هنالك أيضاً حدائق خضراوات ممتازة وبساتين من الباباي وأشجار التوت والمانجو وكذلك ثلاثة أفدنة من الأناناس ومائة شجرة موز وموز الهند.

وتم تقسيم المنطقة إلى سبعة مناطق قبلية تحت إشراف زعمائهم الذين كانوا مسئولين للتأكد من أن كل فرد يؤدي نصيبه من العمل الرجال والأولاد يتعلمون النجارة والحدادة وصنع الطوب بحيث يقوم المجتمع الصغير بتقديم احتياجاته من مواد البناء. ويبدو من جوانب كثيرة أنه مجتمع مثالي – توحيد سعيد بين العمل الخاص والخدمة العامة. كل أسرة لديها قطعة أرضها الصغيرة الخاصة ولكن كل رجل أو إمرأة قوي/قوية البنية عليه أن يعطي نصف يوم عمل في المزرعة الجماعية حيث ينتج الطعام للقادمين أو أولئك المرضى لدرجة لا يستطيعون معها العمل لأنفسهم. لديهم عناية طبية وحرية من الخوف من العرَّافين وحرية من الحاجة. وتتم تغذيتهم بسخاء أكثر مما حلموا به كما أنهم لا يدفعون ضرائب!

بالرغم من المناظر المحزنة الكثيرة التي رأيتها – رجال ونساء أطرافهم مشوهة يتلوون من صداعات غير محتملة ويصلون من أجل الموت ليخلصهم من عذاباتهم. خفراء بدون أيد أو آذان، ضحايا وحشية أفونقارا – لقد دهشت للسعادة العامة في مثل هذه الظروف غير السعيدة. في كل يوم سبت يستعرض جميع أولئك المشتبه بأنهم مرضى أمام الأطباء للفحص.

ويتم تنظيم المجموعات بواسطة رؤسائهم وعند نداء كل اسم يوجه المريض إلى الجانب وبابتسامة تشجيع من الطبيب يتلقى المريض حقنة أتوكسيل (Atoxyl) أو شيء آخر يحتاج إليه ويتم إعطاء كل فرد حفنة ملح فيمصها كالسكر. وأما بقية اليوم فيقضونه في الراحة والترفيه فيما عدا الأطباء الذين لا ينتهي عملهم.

مرض النوم ليس هو المرض الوحيد الذي على الأطباء معالجته لأن المرضى من بعيد أو قريب يأتون إلى المستوطنة لمعالجتهم من مختلف الأمراض. كانت رغبة الناس شـديدة في العلاج. فعند ما كنت في سورس يوبو ، بنت صغيرة لا يزيد عمرها عن عشر سنوات اتخذت طريقها ليلاً إلى معسكرنا بالرغم من أن الغابة كانت تعج بالأفاعي والحيوانات المفترسة. حقيقة في نفس الليلة التي وصلت فيها المستوطنة ، أن الديك الرومي المعد لعيد الميلاد أخذه فهد – وهي كارثة جسيمة بعد رحلة ثلاثة أسابيع من الخرطوم خلال منطقة السَّد SUDD ومائتي ميل أخرى على رأس حمَّال.

كانت القرح الإستوائية لعنة. وكان من المستحيل تقريباً في البداية إقناع الناس أن العلاج المبكر يمكن أن يشفى منها. إنهم ينتظرون إلى أن تصبح أجسامهم كتلة من القرح السائلة ذات الرائحة النتنة مما يجعل المرء يشعر بأنه مريض جسدياً عند البقاء بالقرب من هؤلاء المصابين وإن عادة مضغ التبغ وتداول السفة من فم إلي فم أدى إلي إنتشار المصع YAWS (داء معد شبيه بالسفلس). على الأطباء أن يقوموا بجولات على فترات في مراكزهم للبحث عن حالات مرض النوم وإقناع المرضى بالذهاب إلى المستوطنة. ولسوء الحظ عند ما يكون هنالك طبيب واحد فإنه لا يستطيع مغادرة المستوطنة. وتكون النتيجة أن كثيراً من الناس المصابين يظلون ينشرون المرض ولا يمكن علاجهم لفوات الأوان.

العناية بمرضى النوم وعلاجهم من أمراض أخرى لا يشتمل على جميع عمل الطبيب. يبدأ عمله بمجرد طلوع الشمس وعند ما تغيب الشمس بعد يوم عمل طويل وشاق يبدأ في كتابة التقارير الرسمية وجمع الإحصاءات.

ليس هذا كل شيء ففي الوقت الذي حل فيه على نطاق العالم الإنتاج الصناعي الكبير محل الصناعات اليدوية الفردية الجميلة أود أن أقول إن الأطباء وجدوا وقتاً لتربية وتنمية إحساس فني لدى الزاندي الذين تم تشجيعهم على نحت الخشب وعمل السلال. وعلموهم صنع أدوات عديدة وجدت سوقاً جاهزة في الخرطوم وأماكن أخرى. الزاندي بطبيعتهم أهل صناعات يدوية. لقد نحتوا من جذوع أشجار ضخمة تماثيل إحياء لذكرى أطباء عملوا في المستوطنة.

وقد نصبت هذه التماثيل في المستوطنة وعلى طول الطرق الرئيسية. ولكن أشك في أن يتم التعرف عليها دون وجود اسم الطبيب على كل منها.

في جميع تاريخنا الإمبريالي الطويل لم يكن هنالك شيء فعلناه أجمل قط من إنقاذ حياة عشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال من الموت المؤلم الذي يسببه مرض النوم. نقَّاد الإمبراطورية البريطانية – كثيرون منهم لم يكونوا قط شرق مارقيت أو غرب بلاكبول – قد يتوقفون للتأمل في شجاعة وإخلاص هذه القلة من الأطباء البريطانيين والسوريين. إننا قد ارتكبنا أخطاءاً في إدارتنا لأناس متخلفين ، ينبغي أن أكون أول المعترفين بذلك. ومع ذلك كيف كانت ستكون بخلاف ذلك عند ما كانت مسئولياتنا عظيمة للغاية. وأن الناس الذين تحت سيطرتنا كثيرون للغاية وأن أولئك المسئولين من رفاهيتهم قليلون للغاية ؟

المعركة ضد مرض النوم لم تكسب بسهولة أو بدون ثمن كبير. الرائد

سبنس (فيما بعد سير باسل نيفين - سبنس ، عضو البرلمان) معلقاً على تقرير حكومي موجز بأن كثيراً من المشاكل في التعامل مع مرض النوم كانت بسبب « التغيير المستمر في الأطباء « . . شعر بأن هذه الملاحظة كان يجب أن تعدل بعبارة تقول « إن أول كبير أطباء غادر المنطقة مرهق البدن والعقل وغير صالح لأن يعود مرة أخرى. والثاني مات بعد ثلاثة أيام من وصوله طمبره والثالث أتلفت صحته بصورة دائمة بعد أصابته بحمى البول الأسود والرابع غادر المركز وهو يعاني من إصابات الملاريا المتكررة في فترات متقاربة « .

المرض الدائم والموت وحيداً لم تكن المخاطر الوحيدة التي يواجهها الأطباء وهنالك العداوة التي لا تنتهي بين الناس. فعند ما اتخذت خطوات لأول مرة لاستئصال مرض النوم في مركز طمبره كان الأهالي عديمي الثقة ومعادون. وقد قال سبنس في تقديمه لتقرير عن الوضع إنه في إحدى المناسبات حذروه أنه إذا ذهب إلى قرية معينة فسوف يقابلون بوابل السهام السمومة من داخل الحشائش العالية. « هكذا. بالطبع « . علق باختصار « ركبت دراجتي وفي الحال ذهبت إلى القرية. « أحب بالطبع هذه « .



الباب الرابع عشر

وادي حلفـــــــا



الباب الرابع عشر
وادي حلفا

من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال. بعد بضعة شهور في مديرية بحر الغزال نقلت إلى وادي حلفا على الحدود المصرية حيث أمضيت أربع سنوات سعيدة للغاية بين أفقر وربما أكرم الناس في السودان.

وادي حلفا هي عاصمة مديرية حلفا. منطقة مساحتها أكثر من مائة وخمسة عشر ألف ميل مربع. ولكن معظم هذه المساحة صحراء، وبها بالكاد خمسين ألفاً من السكان يناضلون لكسب عيش ضنك من قطع قليلة مزروعة قرب النهر. وهنالك جزء من المديرية قاحل للغاية يسمى بطن الحجر. هنا لا شيء يمكن زراعته على الإطلاق مما دفع السكان إلى الهجرة إلى مصر وإلى أجزاء مختلفة من السودان حيث يحاولون جمع ما يكفي من المال للتقاعد وزراعة قليل من النخيل – ويكاد النخل يكون هو الأصول الاقتصادية الوحيدة في المديرية – بالإضافة إلى مدخراتهم. كثير من هؤلاء المنفيين يعملون كعمال في السكك الحديدية، وهم أفضل الملاحين وعملياً جميع أفضل خدم المنازل ومربي الخيل يأتون من هنا ومن المنطقة المشابهة إلى إسوان. لا يفكر الناس كثيراً في مديرية حلفا ويشيرون إليها بازدراء باسم نصف مديرية (HALF A APROVINCE). وفي الحقيقة أنه بعد قليل من مغادرتي حلفا توقف اعتبارها مديرية وأدمجت ومديريتا بربر ودنقلا في مديرية واحدة سميت المديرية الشمالية.

بالرغم من أن مديرية حلفا قاحلة إلا أنها لطيفة بسحرها. الرمال الذهبية تنساب في موجات صغيرة إلى النيل أو تهب في كثبان عظيمة منحدرة إلى النهر وتحفها أشجار النخيل وأشجار السنط ذات الأزهار الفوّاحة والجزر

الصخرية الصغيرة بحشائشها الناعمة وقصبها ، جميع ذلك كوّن صورة لا تنسى. لقد كان ذلك جميلاً فوق وصف الكلمات عند ما تلوّن الشمس الغاربة كثبان الرمال أو المرتفعات الصخرية بجانب النيل بلون الأوبال أو باللون الوردي أو البنفسجي. وما زال الأكثر جمالاً تحت أشعة القمر الفضية عند ما تهدأ حركة الحياة اليومية وتلقي الجبال الصامتة ظلالاً غريبة على الرمال.

وعند التحديق في جمال الحاضر لا يمكنني أن أنسى جلال الماضي ، فخلال تعاقب القرون حفر النيل لنفسه مجرى أعمق وعلى شاطئيه كثير من آثار حضارات اندثرت منذ زمن بعيد. في تلك الحقب البعيدة فإن النهر فاض وغمر مساحات واسعة من الأرض هي الآن صحراء. جالبة الرخاء لأناس حتى في مثل أيام قريبة نسبياً مثل أيام هيرودوتس.

كانت مديرية حلفا فسيفساء حضارات ملونة. فعلى مدى قرون رأت مسيرات عسكرية ومسيرات عسكرية مضادة لأمم متنافسة. لقد رأت قدماء المصريين بشعائرهم الغامضة والسكان البدائيين الذين حاربوا بالأقواس والسهام ضد خصومهم الأفضل تسليحاً الفيالق الرومانية وهي مزودة بالخوذات والدروع وقد رأت المسيحية تأتي وتذهب فيما بعد قبل الرمح والسيف للمدمرين العرب. لقد رأت الأتراك والبوسنيين والشركس يكتسحون خلال الأرض. والمهديون والرجال الذين فشلوا في انقاذ غردون. وفي العهد الأحدث رأت جيش لورد كتشنر المنتصر في طريقه إلى انتصار أم درمان.

يبدو أن التاريخ يتدفق في نهر مستمر من مقاطعات قدماء المصريين التي اندثرت ضمن الآثار القديمة وتجاوز القلاع التي يمكن أن تكون قد بنيت في القرون الوسطى ونزولاً إلى المشاهد حيث القوات البريطانية خيمت وقاتلت (في فركة وصرص وأمبكول وكثير من الأماكن الأخرى) فقط قبل بضعة

سنوات. حجارة الصوّان من عصر ما قبل التاريخ قد توجد بالعين الفاحصة بالقرب من حذاء رماه أحد خيالة كتشنر.

يكاد يكون في كل مكان هناك شيء يلفت النظر أو يثير الخيال. هنا مكان شجرة مقدسة نام في ظلها ولي مسلم قبل أربعمائة سنة. هناك مدفن رجل مقدس محاط بهدايا نذور من البفتة على أغصان شوك مع عفش متروك لحفظه ببركة الشيخ الميت إلى أن يعود صاحبه بذلك الطريق مرة أخرى. كثيرة الآثار التي تدل على إخلاص المرء لمثله الروحية وللرجال المقدسين الذين تتجلى فيهم تلك المثل. قبة شيخ إدريس محجوب، قبر الشيخ عكاشة أو أطلال كنيسة قديمة. الصخور نفسها لم تتغير ولكنها أعلنت التغييرات التي شهدتها. في كثير من الصخور كان من الممكن نحت الـ « عنخ » الرمز المصري للحياة وصليب مسيحي وبعض الحروف العربية وحتى رسومات تقريبية للزرافة وغيرها من المخلوقات التي تجولت في هذه البلاد في أزمان بعيدة.

لفترة ألف عام كان سكان هذا الجزء من العالم مسيحيين. وكثير من الممارسات المسيحية القديمة قد بقيت رغم أربعمائة سنة من الإسلام الذي حل محل العقيدة المسيحية. وعادات أخرى ما زالت أقدم استعادت الأيام عندما برز الرقم الغامض ٧ بشكل كبير في حياة المصريين والشعوب القديمة الأخرى. ويمكنك أن ترى اليوم قطعاً من الفخار والصيني أو حتى صحون كاملة مطمورة في جدران المنازل الطينية لاتقاء العين النجيئة وترتب أحيانا في شكل صليب – وهي علامة يضعها المسلمون حتى الآن على كتلة جديدة من العجين. والأغرب هو عادة أخذ الطفل النوبي في اليوم السابع بعد ميلاده إلى النيل حيث يتم رشه بالماء ويقول قريب له بالعربية أو النوبية « إنني أغطسك باسم يوحنا المعمدان ». ولمدة أربعين يوماً تظل الأم في حالة عزل وعندئذ يؤخذ الطفل مرة أخرى إلى النيل وتعاد تلك المراسم.

وفي المناسبتين تجهز طاسة من العجين ويصنع جزء منه في شكل سبع كيكات صغيرة وتلقى في مياه النيل. وعند ما يحدث نزاع حول الاسم الذي يطلق على الطفل توضع حناء على صحن مع سبع شمعات على أطراف الصحن (ربما تذكاراً للشمعات السبع لسفر الرؤيا) وكل منها تحمل اسماً. ويراقب الأصدقاء والأقارب وهم في حالة توقع الشمعات وهي تحترق إلى النهاية. فالشمعة الأخيرة التي تحترق فإن الاسم الذي بها هو الاسم الذي يطلق على المولود.

اليوم عند ما تدوس المخترعات بسرعة فوق بعضها البعض بحيث يكون المخترع الجديد قديماً قبل أن نصبح متعودين عليه وأنه من المريح التأمل في بعض هذه العادات التي قد تكون قديمة قبل حصار طروادة. من الذي لا يستثار عند رؤية مركب « القرقل « لأول مرة عند ما يفكر في أن هذه التجربة يمكن مشاطرة كتائب يوليوس قيصر فيها ؟ وكذلك أنا لم أتعب قط من مشاهدة الناس يسبحون على قِرب منفوخة، مثلما كانوا يفعلون لعصور عديدة، إلى الجزر المبعثرة في النيل بالرغم من أن لديَّ ارتياباً غير مريح بأنهم ذاهبون فقط للعناية بقطعة أرض صغيرة من التبغ والحشيش الممنوع.

يا لها من ثروة من كنز غير مكتشف يرقد مدفوناً في مديرية حلفا لعالم آثار ليكشفه، وكم هناك للمؤرخ ليجده؟ ! بُعيْد مغادرتي السودان ، قام دي كونت مجري الجنسية برحلة بدراجة نارية إلى مصر وحدث أن سمع أناساً يتحدثون من وادي حلفا فأدرك أنهم يتحدثون بلهجة مجرية، من خلال مترجم سأل من أين جاء هؤلاء. وقد اندهش عند ما علم أنهم يعيشون في ماقيار – نارتي، بوادي حلفا وذلك يعني أنهم من جزيرة المجر.

أما عن تاريخهم فليس هنالك شيء معلوم باستثناء أنه عندما غزا السلطان سليم مصر في ١٥١٧ يبدو أنه أقام نقطة خارجية من المجريين تحت قيادة

حسن كوشي على جزيرة بالقرب من وادي حلفا. ولمدة أربعة قرون ونصف مقطوعين من أرض ميلادهم احتفظوا بلغتهم صافية بدرجة أمكنت مجرياً من معرفتها عند ما سمعها وسط محيط غير متوقع. وليست لغتهم هي كل ما احتفظوا به. فالعيون الخضر والشعر المحمر الذي يقابله المرء أحياناً في وادي حلفا دليل أن هؤلاء الناس مختلفون عن العرب والنوبيين الذين يسكنون بينهم. ومع ذلك بالرغم من أن الكثير قد تمت المحافظة عليه لكن كم فقد لسوء الحظ ! عند ما سافر كلود خلال شمال السودان في سنة ١٨٢٠ فقد لفت نظره عدد من القرى تسمى « ماروق « و لم يدرك أن ماروق لم تكن اسم قرية ولكن أكوام التربة من المنازل القديمة التي يستخدمها الناس كسماد لمحصولاتهم.

عند ما سافرت خلال المديرية كان من المستحيل التفكير دون تأثر بأن غردون قد سار مرة بهذا الطريق. ما زال هنالك أناس عائشون يتذكرونه أو عملوا معه كأدلاء أو خدامين أو قاموا بالترفيه عنه. لكن ذاكرتهم التي أضعفها الكبر لم تستطع تذكر الكثير عنه باستثناء أنه عاش معتدلاً في طعامه وشرابه وكان يحب القهوة السوداء القوية ويركب الجمال ويسوقها بسرعة كبيرة. ربما إنني توقعت الكثير جداً عند سألت أسئلة كثيرة عن فرد انعزالي مهما كان مشهوراً وعن أناس هوجموا لقرون وكل ما يهمهم هو اعتصار ما يكفي من الطعام من أرضهم الشحيحة لاحتياجاتهم المباشرة. وعند ما قمت بتحريات عن معركة فركه في ٧ يونيو ١٨٩٦ حيث تغلب جيش كتشنر على جيش الدراويش آسراً خمسمائة سجين وقاتلاً أو جارحاً أكثر من ألف. فكل ما تذكره الموجودون في ذلك الوقت هو أن القتال وقع فوق أرضهم التي زرعت حديثاً بالشعير. يا له من ضوء نافذ ، طاف بذهني ، قد ألقى على حياة هؤلاء الناس الذين نسوا وحشية القتال ، الهجوم المتجمع من قبل البريطانيين

والقوات الأخرى ، وقصف ثكنات الدراويش. ذبح كثير من الدراويش الذين أنهكوهم بهجمات متكررة لسنوات وجميع حوادث معركة كبيرة يتذكرون فقط دوس محاصيلهم المزروعة حديثاً.

لحسن الحظ فإن ذاكرتهم لم تكن دائماً غير واضحة. داؤود كوكي شيخ الشلالات الذي عمل كثيراً لتسهيل مرور القوارب المسلحة والقوارب الأخرى أثناء الحملات المختلفة ما زال حياً ليقص ما رأه وما فعله وكيف أنه اقتضى سحب القارب المسلح « ناصف خير « على مياه الشلال الفوَّارة ، استخدام ثلاثة آلاف رجل. بعض الرجال الأكبر سناً استطاعوا أن يحددوا لي الأماكن التي دفن فيها البريطانيون الأموات – في سارك ماتو وغيرها – قبل أن يصعب التعرف عليهم وحفظ المواقع. ولتفادي تدنيس القتلى من قبل السكان المتعصبين دينياً لم توضع علامات فوق القتلى أو تحدد أماكن دفنهم – وهو احتياط حكيم حيث علمت من حوادث في مديرية بربر حيث كانت لي مشاكل كثيرة قبل سنة أو سنتين مع العرب الرَّحل الذين شوهوا الصلبان المنصوبة فوق أولئك الذين قتلوا في معركة عطبره. وفي الحقيقة لمنع مثل هذا التدنيس كان عليَّ مرة أن اتخذ طريقي إلى مناجم الذهب المهجورة في أم ناردي واستخراج جثث أولئك الذين ماتوا هناك لإعادة دفنهم فيً المقبرة بوادي حلفا.

عند البحث في مقبرة في عكاشه (حيث دفن كثير من القوات البريطانية وغيرها بدون أي شيء يدل على مكان دفنهم) اكتشفت زوجتي فرشاة شعر بظهر من العاج محروقة جزئياً مع بعض الشعيرات ما زالت ملتصقة بالفرشاة مع حروف E.R.O على الفرشاة. وهذا موجب لمزيد من الاهتمام إذ إن زوجتي جاءت من شلتنهام وسمعت بشخص آخر من شلتنهام – الجوكي الهاوي المعروف رودي أوين الذي مات في وباء الكوليرا في عكاشة في

صيف ١٨٩٦. عكاشة بعيدة جداً عن شلتنهام ، لكن بصورة ما فإن هذه الصلة بينهما يبدو أنها تقرب هذه الأماكن البعيدة من بعضها. غطينا بالتراب هذا الأثر لضابط شجاع وعجبنا بأي صدفة غريبة تركت لشخص من بلدته ليجد هذا التذكار لرجل مات قبل أن تولد زوجتي.

وصول حاكم جديد في مديريته أو مفتش في مركزه يحتفل به عادة بسيل من العرائض تطلب نقض قرار في قضية حسمت نهائيا قبل سنوات عديدة. يبدو أن الناس لا يتعلمون أن سجلات الأحكام الماضية تحفظ بعناية في الملفات بمكاتب الحكومة. أو ربما أنهم أمَّلوا أنهم في يوم من الأيام سيكونون محظوظين وأن يجدوا بعض الموظفين عديمي الخبرة لتغيير قرارات أسلافهم بالرغم من كل ما يقف ضد ذلك. وفي معظم الحالات فإن الطلب يكون لإعادة السماع في بعض قضايا الأرض. لكن في مديرية حلفا فإن أول عريضة دائماً هي لإنشاء خط حديدي بين وادي حلفا ومديرية دنقلا من أجل نقل محصول البلح. فإن الوسائل الوحيدة التي يستطيع بها محصول البلح من النصف الجنوبي من المديرية أن يجد سوقاً الآن. فإما النقل بالجمال وهو بطئ ومكلف أو بنقل رخيص ولكنه أكثر خطورة وهو بطريق النهر حيث كثير من الشلالات تسبب مصاعب وأخطاراً. ففي بعض السنوات ليس أقل من ربع السفن التي أقلعت قد تحطمت أثناء الرحلة فشحناتها ضاعت والبحارة غرقوا. معظم الإصابات حدثت في ثلاثة أماكن حيث بدا كأن صخوراً عالية قد حجبت الريح وفقدت المراكب الشراعية طريقة التوجيه. وقد طار بي الطيران الملكي (R.A.F.) فوق الشلالات من أجل عمل مسح فوتوغرافي وقد أشار فحص الصور أنه إذا تم تفجير ثلاث صخور فإن الممر المائي ربما كان أسهل وأكثر سلامة. وقد نفذ ذلك بواسطة مفرزة مهندسين من قوة دفاع السودان (S.D.F.) بتكلفة صافية أقل من مائة جنيه.

في السنة التي أعقبت إزالة هذه العقبات ووصول أسطول المراكب سليماً اقتضى خطاب شكر من واحد من أولئك الذين قاموا بالرحلة.

إن وصول أسطول من المراكب الشراعية دون وقوع كارثة لا يعني أن النهر قد أصبح الآن آمناً للملاحة. ربما أن الحظ قد لعب دوراً كبيراً أو أن تحولاً بسيطاً في اتجاه الريح في لحظة حرجة قد ساعد المراكب الشراعية للمرور بسلام. لقد قررت الاستمرار في إجراء تفجيرات في أماكن أخرى.

لكن تحسين المواصلات بالنهر لم يكن مهماً مثل تطوير طريق بري. لقد بدا لي ، عند ما تسلمت مقاليد المديرية ، أن أفيد مهمة أستطيع القيام بها هي تحسين المواصلات البرية.

في أيام إسماعيل باشا بدأ إنشاء سكك حديدية بين وادي حلفا وصرص ٣٣،٥ ميل إلى الجنوب وكانت التحضيرات قد أوشكت على الإكتمال لمواصلة الخط ٢١ ميلاً أخرى عند ما أوقف غردون كحاكم عام للسودان جميع الأعمال الخاصة بالخط بسبب الأموال المهدرة في الإنفاق عليه. لكن غردون قليلاً ما تنبأ بنتائج هذا العمل. حملة الإنقاذ التي وصلت متأخرة يومين لإنقاذ غردون كان يمكن أن تصل في الوقت المناسب لإنقاذه لو أن خط السكك الحديدية كان موجوداً. من غير المجدي تخمين أي نوع من الحكومة كان يمكن إقامتها في السودان ولكن يمكن المجادلة بصورة معقولة أنه لولا الفوضى التي أعقبت قتله فإن من الصعب على الفرنسيين متابعة حلمهم بإمبراطورية تمتد من الشرق إلى الغرب عبر أفريقيا. المنافسة بين البريطانيين والفرنسيين ربما كانت قد خمدت بدون حادثة فشوده التي أوصلتهما إلى حافة الحرب وسممت علاقاتهما لفترة طويلة، ولما هبط تعداد سكان السودان من ثمانية ملايين إلى أقل من مليونين في ثلاثة عشر عاماً. بقراره بالتخلي عن إكمال الخط الحديدي وقّع غردون بنفسه قرار إعدامه

وأنهى حياة الملايين من السودانيين. وليس هنالك قرار آخر كان يمكن اتخاذه في تلك الظروف لا يقبل الجدل. ولكنه غير مجرى التاريخ لأهل السودان.

سرعان ما تدمرت السكة الحديدية عند ما توقف العمل فيها ولكن أعاد بناءها كتشنر في حملة ١٨٩٦ وامتد إلى كرمة وهكذا ممهدة الطريق إلى الانتصار النهائي في معركة أم درمان.

وبانتهاء الحرب وقع هذا الخط بدوره في الإهمال بعدم الاستعمال. واختفى جزء كبير منه عند ما أزال السكان المحليون القضبان لدعم سواقيهم أو لدعم سقوف منازلهم. ولكن لم ينس الناس الأيام السالفة عند ما كانوا يستطيعون السفر بسرعة من مكان إلى آخر، وعند ما كانت هنالك فرص عمل بالقرب من سكنهم. لقد حلموا بالزمن عندما سوف يرتبطون مرة أخرى بالعالم الخارجي عندما تصبح الحياة أسهل وتزداد الرفاهية.

إن مزايا طريق بين وادي حلفا ودنقلا ، مائتان وسبعة وسبعون ميلاً ، تم إدراكها منذ زمن بعيد ولكن مضت ثلاثون عاماً قبل أن يكون ممكناً تشييد واحد. حكومة السودان بكل المتطلبات الكثيرة العاجلة ومواردها الشحيحة ليس لديها أموال لتنمية قطر حيث السكان قليلون ومشتتون وتوقع زيادة التجارة والزراعة بعيد جداً. وبمجرد أن أجد وقتاً أسافر في بوكس من ماركة فورد أعتُبر غير صالح للخدمة قبل سنوات، وذلك لكي أجد طريقاً بين وادي حلفا ودنقلا ليكون ممكناً استخدامه للنقل بالسيارات. كثير من الأشهر الستة التالية قضيناها في المشي حول التلال الصخرية ندفع السيارة خلال الرمال العميقة وننزلق إلى كثبان رملية أو ممرات حجرية نتقدم ببطء شديد حتى إن الجمال تتعدانا وهي ترافقنا حاملة البترول والماء الاحتياطي بالرغم من أنها لا تسير بأكثر من سرعة ميلين ونصف في الساعة. السيارة لم تتحمل طويلاً

مصاعب سفرنا ولكن تمكنا من إيجاد درب وعملنا الطريق. وعندما أرسلت إليّ سيارة جديدة من الخرطوم استطعت إكمال رحلة بين وادي حلفا ودنقلا في أكثر من يوم بقليل، و كانت تستغرق سابقاً ما يقارب ثلاثة أسابيع.

فتح الطريق أنهى مصير الجمل في هذه المناطق. كثيرون سوف يأسفون لانتهاء عمل الجمال وبالتأكيد أن مالكي الجمال في مديرية حلفا قد أسفوا عند ما رأوا اللواري السريعة تبعد جمالهم البطيئة من الطريق الذي سافروا عليه لقرون. وقد احتجوا بقوة على الاختراع كما فعل السقاؤون من نهر التيمز قبل ثلاثة قرون عند ماهددت العربات التي تجرها الخيول حرمانهم من سبل عيشهم.

كم مليوناً من المسافرين حملهم الجمل خلال قرون عبر الصحراء ! كم مليوناً من الناس لديهم سبب لأن يكونوا شاكرين للحليب الذي نالوه واللحم الذي غالباً ما كان هو اللحم الوحيد الذي ذاقوه. لكم مليون من الأميال كان الجمل هو الوسيلة الوحيدة للنقل ! لكن سكان مديرية حلفا قد يباركون اليوم الذي مرت فيه أول سيارة على الطريق الجديد وأيام الجمل التي أصبحت معدودة. أولئك الذين اضطروا إلى مغادرة أوطانهم لكسب العيش في مكان آخر يستطيعون الآن زيارة أسرهم كل سنة خلال إجازاتهم السنوية بدلاً من مرة كل خمس أو ست سنوات. في واحدة من رحلاتي بالسيارة أعدت شيخاً كان سيموت من زائدة دودية حادة. وكان الناس في غاية التأثر لهذه الحادثة البسيطة بحيث التزموا بمحض إرادتهم ترك الطريق مفتوحاً وإصلاحه دون مقابل.

فعل الطريق أكثر من ذلك. فقد مكنني من قضاء بعض الوقت في القرى البعيدة ورؤية المأزق اليائس للسكان. أهل حلفا قوم معتزون مع احترام للذات الذي غالباً ما يصاحب الفقر. يحاولون المحافظة على المظاهر وإخفاء

فقرهم من جيرانهم وفي البداية أخفوا بنجاح صعوباتهم مني. وحيثما ذهبت قوبلت بلطف وكرم ومضى بعض الوقت قبل أن أدرك كم هم فقراء. إنه منظر طفل صغير يرتجف في صديرية جديدة جميلة - هدية من والده الذي كان يعمل في فندق شبرد بالقاهرة - وليس عليه أي شيء آخر لتغطية جسمه شبه الجائع، كان أول شيء فتح عينيَّ إلى الحالة الحقيقية للوضع. كل منزل لديه صفائح التمر مغلقة بإحكام عند ما تكون ملآنه بالتمر ولكن عند ما يكون الغطاء منزوعاً فإن التمر يكون قد استهلك. وقد كنت مسروراً أن أرى كم من الصفائح كان مغلقاً في القرى التي مررت بها. مرة ثارت شكوكي فطلبت الإذن لفتح صفيحة من صفائح التمر المغلقة. وبعد كثير من الاحتجاجات والممانعة سمح لي بفتح صفيحة فاتضح أنها خاوية. وأصررت على فتح صفائح أخرى وكانت كلها خاوية. الناس يظلون يحافظون على ترك صفائح التمر مغلقة حتى لا يعلم جيرانهم أن لديهم القليل من الأكل! لا بد أن هذا الفقر المدقع هو السبب في النزاعات التافهة الكثيرة حول ملكية قطع أراض لا قيمة لها أو نخلة لم تنتج ولن تنتج تمرة واحدة - قضايا كادت أن تدفع المدير أو المفتش إلى الجنون.

ربما كانت هذه العادة القبيحة لحفظ المظاهر هي التي منعت الناس من قطع النخل الذي توقف عن الإنتاج وزرع نخل جديد منتج مكانه حيث أن ذلك يستغرق بعض الوقت لتظهر أي نتائج. إنهم يفضلون أن يقولوا « أنا أمتلك كذا نخلة أو أنا شريك في عدد كذا نخلة «. إن عدد النخيل يهم أكثر من جودتها. وذلك مثل الرأس في أجزاء أخري من السودان. الناس يفتخرون بعدد الأبقار أو الإبل التي يمتلكونها مهما كان الكثير منها ليس له قيمة.

عند رحلتي الأولى خلال المديرية كان محصول التمر قد تم حصاده لذلك لم أدرك لبعض الوقت كم عدد النخيل الذي يلد كما لم أدرك أن مقرضي

الأموال قد أخذوا جميع المحصول تقريباً. في هذه المديرية غير المنتجة الناس لديهم القليل إلا تمرهم الذي يعيشون عليه. ومن المحزن أنه قبل نضج المحصول بزمن يتم رهنه لمقرضي الأموال مقابل قليل من الشاي والسكر أو بعض السلع الأخرى. إنني شاكر لإدخال نظام الجمعيات التعاونية حديثاً وتركيب مضخات للري مما عطل بسرعة أعمال هؤلاء الجشعين.

مديرية حلفا هي أشد مديريات السودان حرارة. لقد سجلت درجة الحرارة في الظل في وادي حلفا ١٢٦ درجة فهرنهايت. وأتخيل أن هذه الدرجات أعلى في المضايق الصخرية عديمة الهواء في بطن الحجر. في الشتاء الطقس مثالي وكثير من السياح يأتون إلينا. لدينا الكثير لنقدمه لهم: ليالٍ باردة مبهجة وأشعة ساطعة نهاراً وسكان لطيفون مجاملون لا يضايقون السياح من أجل البقشيش كما في مصر. عالم الآثار يستطيع أن يمعن النظر في مخلفات ثلاثة أو أربعة آلاف سنة من التاريخ أو يسبر أطلال ست حضارات مختلفة. ويستطيع طالب التكتيك العسكري أن يتابع طريق حملة ولسلي في جهودها غير المجدية لإنقاذ غردون وأن يزور ميادين القتال الحديثة وعليها آثار مبعثرة لثلاثة عشر عاماً من القتال.

البعض يحب أن يزور حمامات عكاشة الكبريتية الحارة على الشاطئ الغربي للنيل. عكاشة كانت واحدة من ثلاثة ينابيع حارة في السودان معروفة لقدماء المصريين والرومان. واحد في دبيرة حوالي عشرة أميال شمالي وادي حلفا وقد قام بردمه في حوالي ١٨٦٥ أحد المزارعين الغاضبين الذي اعترض على دوس زائري الحمامات على زراعته. وكان هناك ثالث في مكان ما بمديرية دنقلا ولا يعرف موقعه الآن.

حمامات عكاشة عليها قلعة عالية من الطوب الأحمر وهي مليئة بالرمال والطين وحيطانها بسمك ٩ بوصات والقطر من الداخل حوالي ٤ أقدام.

وهنالك ينابيع صغيرة تخرج فقاعات حولها ولكن ارتفاع النيل يغطيها وعند نزول النيل يتم تجريف حفر حتى يستطيع المرضى الجلوس عليها.

الزوار يأتون إلى الحمامات من أماكن كثيرة من مصر والسودان لعلاج الروماتزم وغيرها من الأمراض. وحتى بعد أن حصلت على منحة صغيرة من المال لتحسين هذه الحمامات لم أجد في نفسي الشجاعة لاختبار فعاليتها بالجلوس في المياه الطينية التي استعملت من قبل من يعانون من داء الملك (King's evil) (سل الغدد الليمفاوية) أو بعض الأمراض الجلدية الأخرى. ربما كانت الأساطير التي أحاطت بها ساعدت على العلاج.

يقول سومرز كلارك في كتابه (Christian Antiquities in the Nile Valley) – (الآثار المسيحية في وادي النيل) إنه يرجع أصلها إلي سيدنا سليمان (عليه السلام) الذي كان راغباً أن شعبه في هذه الأجزاء ينبغي أن يكون لديه حمامات ساخنة أرسل بفنونه السحرية شخصين في كل مكان لتحريك النيران المركزية. ومن كل اثنين من الوقّادين واحد أصم وآخر أبكم. ونتيجة لذلك لا يستطيعان الاتصال مع بعضهما البعض أو مع العالم الخارجي بطريقة جيدة. وهؤلاء الوقّادون لم يسمعوا بأن سيدنا سليمان قد مات ولذلك ما زالوا يحركون النار وهذا سبب الإمداد بالماء الحار.

هنالك جريمة خطيرة صغيرة في مديرية وادي حلفا. بالرغم من أن تهريب الحشيش إلى مصر قد سبب لي الكثير من المتاعب. هذا الحشيش يزرع في جيوب صغيرة في النيل ولا يمكن الوصول إليها إلا بالسباحة أو التجديف على قِرب منفوخة. معظمه يأتي من بطن الحجر ويبدو أنه الشيء الوحيد الذي له قيمة ينبت في ذلك الإقليم المجدب. وكنت أكره معاقبة المخالفين لجنحة شعرت نحوها (بصورة غير رسمية) بكثير من التعاطف.

كان هنالك، على أية حال، مجرم واحد موجب للاهتمام كان عليَّ التعامل معه بالرغم من أن جرائمه لم ترتكب في مديرية وادي حلفا. كانت هي إمرأة تسمى ست آمنه، متزوجة من شخص يسمى خوجلي حسن من قبيلة الجعليين. ذهب والد خوجلي إلى الحبشة خلال المهدية وهناك حصل على ثروة كبيرة بأكثر الوسائل المنحطة. وخوجلي نفسه كان منحط الأخلاق ولكن جشعه غالباً ما ورطه في المتاعب مع الحبش ولذلك فكر أن الأفضل أن يكون له مكان للجوء في السودان. لذلك أرسل زوجته مع حاشية كبيرة لإقامة مؤسسة مباشرة عبر الحدود. هنا ست آمنه برهنت على أنها مفيدة للحكومة ، غير مدركة في ذلك الوقت عن شخصيتها وأنشطتها الحقيقية بحيث اعترفت بها رسمية كعمدة أو رئيسة مركز. ضيافتها لمفتش زائر كانت دائماً على نطاق فيه كثير من الإسراف. وكانت تمتلك بعض الخيام والسجاد الفاخر والقماش المزركش الذي يعلق وغرف الجلوس التي أرسلها إليها زوجها من الحبشة. وهي تستطيع أن تتكلم وتفهم العربية ولكنها ترفض دائماً التحدث إلى المفتش إلا بالأمهرية إلى أن تعرفه جيداً. وبالرغم من أنها هي ممثلة الحكومة في السودان فإنها في نفس الوقت هي الممثل التجاري والعميل السري لزوجها – وهو مكار ووغد حقيقي. لفترة طويلة تفادي المحاولات الكثيرة من الحبش للقبض عليه أثناء ممارساته السيئة. وكان واثقاً من قدراته على تفادي عواقب جرائمه بحيث قال للملك الحبشة ، النيقس Negus ، بأنه سيدفع طائعاً مختاراً ألف أوقية من الذهب إذا أدين بارتكابه أي جرم. و لم يكن ذلك تفاخراً فارغاً لأنه عند ما أدين في النهاية لدفع غرامة بمائه أوقية من الذهب لبعض صفقة مشينة على الأخص. فقد غضب لذلك وصاح « ماذا ! « تغرمونني مائة أوقية حقيرة. اجعلوها ألف أوقية أو لا شيء ! « وألقى ألف أوقية من الذهب في المحكمة.

ليعوض نفسه عن خساراته أمر زوجته لتوسيع تجارتهم في الرقيق التي حصلوا منها على كثير من ثرواتهم. وقد قامت بذلك إلى أن جمع المفتش ج ف بي ماكلارن أدلة كافية تسمح باعتقالها وذهب في إحدى الليالي للقبض عليها. وبالرغم من أن المنزل كان في حالة فوضى عند ظهور ماكلارن المفاجئ إلا أن ست آمنه قبلت الوضع بهدوء وأصرت على لبس حذائها ذي الكعب العالي وشرابات الحرير. وحتى هذا فقد اعتقدت أنه لا يليق بمقامها كسيدة عظيمة ورفضت أن تصاحب ماكلارن إلى أن وضعت البودرة ولبست قبعتها. ست آمنه كانت شخصية مثيرة للإهتمام وإمرأة مقتدرة للغاية فإقدامها وجراءتها شيء استثنائي بالنسبة لإمرأة من جنسيتها. فقد أرعبت الناس على بعد أميال حولها وفي مرة رحَّلت جميع سكان قرية أثيوبية.

أرسلت ست آمنه إلى وادي حلفا في سنة ١٩٢٩ لتقضي حكماً طويلاً بالسجن أقامت هناك بصورة فلسفية للغاية في بيتها الجديد حيث عاشت تحت حراسة في بيت من ثلاث غرف و لم تسبب لي أي إزعاج سوى الشكاوى المستمرة عن الرياح الباردة وهي رياح شمالية باردة في الشتاء وهي التي تجعل طقس وادي حلفا نموذجياً في الشتاء. وفي الحقيقة أن ما يكدرها أن وادي حلفا تبعد عن مسرح نشاطاتها السابقة ألفا ميل. وهو مكان بعيد جداً لا يساعد على هربها إلى الحبشة.

« دع الوصول إليك يكون سهلاً » هكذا كانت التعليمات التي أصدرها مجلس كالكتا في سنة ١٧٦٩ وهذا هو مبدأنا التوجيهي في السودان كما في الهند. فكل واحد له حق الوصول إلى الموظف البريطاني مهما كان الشخص غير مهم أو كانت شكواه تافهة. عند ما كنا نطوف مراكزنا وغالباً بالأرجل لجزء كبير من اليوم ، فلم يكن من الصعب لأي شخص لديه مظلمة أن ينال مقابلة شخصية. أما في رئاسة المديرية أو المركز فإن المسألة غير سهلة. فهنالك

حاجب يقف خارج باب المكتب لتلقي الرسائل وحفظ النظام وليراقب حتى لا تدخل حشود من المتقاضين عند ما نكون في خضم قضية أو مشغولين بصورة ما. لكن حراس الأبواب ليسوا أكثر إنكاراً لذواتهم من بعض الموظفين الشرقيين الآخرين الذين يعتقدون أن اليوم قد أهدر ما لم يكونوا قادرين على زيادة رواتبهم العادية ببعض نوع من الزيادة. قيل لصاحب عريضة إننا «مشغولون جداً « للالتفات لمشكلته، لكنه اكتشف أن الحاكم أو المفتش لم يكن « مشغولاً « للغاية إذا حشر في يد حارس الباب هدية. يبدو أن مقبض باب المكتب يدور بسهولة أكثر في راحة يد ممسوحة بالدهن. لكن الزيارات المفاجئة للحشود خارج المكتب لا تشجع هذه الممارسة وتضمن أن بعض الأفراد المستحقين لا يحجزون في الخارج بسبب عدم قدرتهم على رشوة حارس الباب.

للتقليل من سيل الطلبات التافهة أصبح لزاما تقديم العرائض على ورق حكومي به دمغة تكلف ٢،٥ قرش ولكن غالباً ما يعفى صاحب العريضة من رسوم الدمغة إذا كان فقيراً جداً.

العرائض تكتب بالعربية والمترجمون حريصون على تحسين إنجليزيتهم يقضون وقتاً طويلاً في اصطياد أكبر قدر ممكن من الكلمات غير العادية والمتحذلقة من القاموس.

بالرغم من أنني تضجرت في بعض الأحيان بصورة لا تصفها الكلمات بالقضايا الصغيرة التي يصر الناس على سماعها من قبل الحاكم ولا أحد غيره فقد سامحتهم على جميع الكذب السافر الذي من المحتم أن يصاحب النزاع على ملكية نخلة أو بضعة ياردات مربعة من الأرض عند ما تذكرت الأريحية المذهلة للحلفاويين. مرة عند ما أشرت على بعض القرويين عن النظرات الجائعة للأطفال الصغار في مدرسة القرية تطوع الناس على الفور لمنح نسبة

من محصول التمر الشحيح لمدير المدرسة حتي يكون للأطفال شيء يأكلونه عند ما يذهبون إلى المدرسة. وهذا مثال تم اتّباعه في جميع أنحاء المديرية. ومن مبادرتهم الشخصية جمع سكان وادي حلفا ٦٠ جنيهاً لإقامة حفل شكر لتعافي جلالة الملك جورج الخامس وأقاموا بذلك وليمة رائعة للفقراء. وكثيراً ما تم جمع أكثر من ٥٠ جنيهاً في هذه المدينة الصغيرة في يوم جمع التبرعات للفيلق البريطاني ولتخليد ذكرى افتتاح طريق تبرع بعض سكان مركز العمارة الأكثر غنى بأكثر من ٦٠ جنيهاً لدفع ديون جيرانهم الفقراء.

هـذه وكثير من مبادرات اللطف والوئام الكثيرة الأخرى مما يثلج الصدر عند النظر إليها فيما بعد، ومما يساعد على إعادة الثقة في الطيبة الأساسية في الإنسان. كنا مجتمعاً سعيداً للغاية ومتحداً في وادي حلفا بدون خلافات عنصرية أو دينية لزعزعة حياتنا الهادئة. بعد عودة زوجتي فجأة إلى البلاد بسبب مرض ابننا قام الأقباط بدعوتي إلى صلاة شفاعة خاصة لشفائه وعند ما أقمنا سوقاً خيرية لجمع أموال للكنيسة المسيحية جاء كل الناس لمساعدتنا بغض النظر عن عقائدهم.

كان هناك نادراً ما يجتمع عشرون من رجال ونساء إنجليز في وادي حلفا في يوم أحد بحيث إنه فقط في مناسبات نادرة جداً يستطيع الأسقف أو واحد من موظفيه زيارتنا. وفي الوقت نفسه فإن من واجبات الحاكم إقامة الصلوات وأكثر خبرة ملهمة هي عند ما تمتلئ كنيستنا الصغيرة إلى آخرها في عيد الميلاد ويوم الهدنة ومهرجان الحصاد وفي صلاة غردون التذكارية. الكاثوليك الإغريق والسوريون المسيحيون والأقباط والأرمن والأتراك والطليان « والساكنون في العراق » وحتى لبعض الوقت الكاثوليك الرومان وكذلك الكثير من أهل الكتاب كانوا معنا في صلواتنا الخاصة بالثناء والشكر. وكثير من المسلمين جاءوا لهذه الصلوات الخاصة وبإذن من الأسقف قاين

جمعت نوعاً من الصلاة بالإنجليزية والعربية لتمكين كل واحد لمتابعة صلواتنا ومزاميرنا.

هـذه الصلوات في وادي حلفا تظل دائماً بين أسعد الذكريات في أربع وعشرين سنة قضيتها في السودان. كون كثير من الناس وأن كثيراً من الأجناس المختلفة والألوان واللغات والأديان ينضمون إلي قليل من المسيحيين ويتعبدون في كنيسة مسيحية معنا ، يبدو أنها تعطي أملاً لليوم الذي يتعـلم فيه جميع الناس في العالم ليعيشوا معاً في روح سلام ووئام متمسكين بإخلاص بعـقيدتهم ولكن في احترام لعـقـائد الآخـرين.

لماذا جاء هؤلاء المسلمون إلى صلواتنا المسيحية ! لم أستطع فهم ذلك ما لم يكونوا قد رغبوا في أن يوضحوا تقديرهم لما نحاول أن نعمله من أجلهم. قبل سنة من مغادرتي السودان قال لي شيخ كبير من رفاعة : « لفترة الخمسين سنة الأولى من حياتي لم أعلم في الصباح إن كان الغروب سيجدني حياً. إذا أخذت الحكومة كل ممتلكاتي اليوم فلا أستطيع إلا أن أقول – شكراً لإعطائي ثلاثين سنة من السلام – الثلاثين الأولى في تاريخ بلادي « .

مها كان السبب ، فكل ما أعلمه أن العالم سيكون مكاناً أفضل وأسعد من مثل هذه التجمعات.

الباب الخامس عشر

الــــــــرواد



الباب الخامس عشر
الرواد

منذ يونيو ١٩١١ عند ما طرت لأول مرة في طائرة موريس فارمان الصغيرة وكنت واقفاً وركبتاي في ظهر الطيار متمسكاً بالدعائم لمنع الريح من دفعي من فوق ظهر الطائرة فقد كان للطيران سحر غريب عليَّ بالرغم من أنني قد فعلت القليل في هذا الاتجاه إلا كمسافر و لم أفقد اعجابي بأولئك الذين، في الأيام الأولى للطيران، طاروا بأضعف الطائرات وأكثرها مما لا يمكن الاعتماد عليه. بعد طيراني الأول سألني طيار التدريب الذي رافقني إن كنت أحب تعلم الطيران. وعندما قلت له بصراحة إنه ليست لي الشجاعة لذلك قال لا حاجة بالمرة للشجاعة. اكتشفت فيما بعد أن مهمته هي أن يأخذ إلى الجو الماكينات التي لا يبدو أنها تعمل بصورة صحيحة وأن يعرف ما بها ـــ وذلك في وقت عندما لا يكاد يعرف شيئاً بالمرة عن الجيوب الهوائية والدوامات الهوائية وأنواع الضغوط والتوترات التي قد تحدثها في الطائرات التجريبية في تلك الأيام.

لذلك كنت محظوظاً بتعييني في وادي حلفا في وقت عندما كانت المواصلات بالجو يجري تطويرها في افريقيا. وبينما توسع الطيرات في السودان قمنا بتحضيرات بسيطة حسب الإمكان ودون مصروفات لاستقبال الطائرات. تم تنظيف أماكن نزول الطائرات في وادي حلفا وكريمة وعطبره والخرطوم وملكال وجوبا. وبما أن كل ما يمكن عمله في شمال السودان كان ازالة الحجارة الكبيرة ودفن الحفر وأما في الجنوب فهو قطع الحشائش الخشنة وازالة أعقاب الاشجار.

معظم الرحلات الأولي كانت في أشهر الشتاء لأن أماكن نزول الطائرات

في الجنوب غير صالحة خلال موسم الأمطار. والحرارة العالية في الشمال في الصيف تضيف الكثير إلى مخاطر الطيران ولمتاعب التوقفات الكثيرة التي كانت ضرورية للتزود بالوقود وللاصلاحات.

مكان نزول الطائرات في وادي حلفا كان مساحة مفتوحة في الصحراء. فقط كُم الريح هو الذي يميز مهبط الطائرات مما يحيط به من رمال. وكُم الريح هذا المرتخي والذي لا حراك فيه حيث سكنت الريح نحو المغيب فأصبح لا يكاد يرى من الجو. هناك مقبرة كبيرة مجاورة بصورة مشئومة لمهبط الطائرات وهي ظاهرة جداً للطيارين. وكان من الأفضل للطيارين الذين يودون الهبوط في وادي حلفا أن ينصحوهم بأخذ الاتجاه بهذا المعلم الأرضي المنحوس. لتشجع السكان المحليين لكي يكون لديهم وعي بالطيران عندما طارت زوجتي بطائره « موث « صغيرة فقد كان انطباعها الأكثر حيوية عدد المقابر في وادي حلفا : بريطانيه واسلامية وقبطية.

التقدم في الطيران كان بطيئاً جداً في السودان منذ أن قام فرنسي (مارك بوربوري) بأول طيران قبل اثنتي عشرة سنة. غادر القاهرة في طائرة مورين سولنير أحادية المروحة بماكينة غنوم قوة ٨٠ حصاناً في نهاية ديسمبر ١٩١٣ ووصل الخرطوم في ٢١ يناير ١٩١٤. وبعد أسبوع من قيامه أقلع الكابتن ماكليان (أصبح فيما بعد سير فرانسس ماكليان) من الاسكندرية في طائرة مائية أو كما كانت تسمي (Hydro Aeroplane). ولكن متاعب لا تحصي منعته من الوصول إلى الخرطوم حتي ٢٢مارس ١٩١٤ فقط الشجاعة التي لا تقهر والمواظبة مكنت ماكليان أن ينجح بالرغم من جميع التحضيرات التي عملت لضمان النجاح. الآن الطائرات تطير كل يوم بدون إعادة التزويد بالوقود بين القاهرة والخرطوم في بضعة ساعات. إنه أحياناً يتم نسيان بأي تكلفة هذه السهولة والراحة تم شراؤها لأن طيران ماكليان

قد سبقته شهور من التخطيط الدقيق والتنظيم. البنزين الذي غالباً ما يلزم نقله لمسافات طويلة بقوافل الجمال قد تم تخزينه في نقاط تزويد بالوقود تم اختيارها بعناية. كما زيدت كميات الوقود لتعويض النقص الذي يحدث بالتبخر في الرحلة البرية البطيئة. وقد أرسلت حمولة شاحنة من قطع الغيار بالسكك الحديدية إلى عطبره وذلك لأية اصلاحات قد تحتاج اليها. طار ماكليان بطائرة ذات مروحتين وأجنحة يمكن ضمها إلى الخلف صنعتها شركة السادة شورت بروز. وبمقارنتها بالطائرات النفاثة الإنسيابية الحديثة فلا شك أنها طائرة مضحكة الشكل ماكينتها ماركت غنوم ١٤٠ حصان موضوعة خلف قمرة الطيار المفتوحة وخلفها المروحة بين عواتق الذيل الأربعة التي تحمل الموجهات الرئيسية والرافع. وكان مع ماكليان ميكانيكي (قس سمث) ومساعد طيار (أليك أوقليفى) وهو خبير هيكل وقد قام بكثير من الطيران الانزلاقي قبل أن يستعمل الطيران بالمحركات.

ماكليان نفسه طيار متمرس وقد بدأ حياته العملية كسائق منطاد وبعد أن طار مع ويلبور رايت في ١٩٠٨ نال شهادة طيار في ١٩٠٩.

وبما أنه لم تكن هنالك حسب علمي سجلات مطبوعة عن بعض هذه الرحلات المبكرة فقد أعطيت في مذكرة مقتطفات موجزة من يوميات تفضل ماكليان بعرضها علي. ومن هذا سوف يتضح أنه وقت وصوله دنقلا اضطر للتوقف سبع مرات للتزود بالبنزين وأنه قد توقف ليس أقل من سبع مرات بسبب الأعطال واحدة منها أخرته لأكثر من شهر في أسوان بينما أرسلت أربع سلندرات جديدة من انجلترا.

أود أن اعطيك مثالاً واحداً مما تشمله تلك الكلمة البسيطة (أعطال). في أرقو حطم إعصار طرف الجناح من الطائرة وكسر العمود الرئيسي للجناح وكان على ماكليان أن يهبط هبوطاً اضطراريا (هبوط إضطراري في الماء

). كنت اتمنى أن يكون لدينا اصطلاح مناسب لهذا في الانجليزية. كم يعبر الفرنسيون بطريقة دقيقة بكلمة Atterrissage للهبوط على الأرض وكلمة Amerissage للهبوط في الماء. وأما عمود الجناح الرئيسي فقد اصلح بحديد نُحِتَ من أرضية سفينة واستخدم حديد مرن من صناديق البسكويت للحزم والربط. وتم تحويل صناديق السكر كضلوع بين أعمدة الجناح الرئيسي كما صنع غطاء للجناح الجديد من قماش شيت قطني معالج بالمعجون الأشوري اللاصق. ماذا سيفعل سلاح الجو الملكي والخطوط الجوية البريطانية مع ما لهم من موظفين خبراء والمستوي الممتاز للسلامة الجوية إزاء هذه الحلول الارتجالية الطارئة ؟

وحيث إنه لا توجد رافعات أو أجهزة رفع فإن الماكينة تدفع إلى شاطئ رملي حيث تتم الإصلاحات في سحابة من الدخان – فالحماية الوحيدة من جيوش النمتي وغيرها من الحشرات. والمفاتيح والأدوات المعدنية لابد من تبريدها من وقت لآخر في النيل وحيث زجاج البيرة الذي أحضره تاجر إغريقي تغمس أيضاً في النيل لنفس الغرض.

بغض النظر عن الأعطال الميكانيكية فهنالك دائماً احتمال الهبوط الاضطراري في نهر تنتشر فيه الصخور المغمورة بالماء. ماكليان وقع مرة في مكان كهذا وكان عليه جعل الطائرة تتدحرج لثلاثة أميال قبل أن يستطيع الوصول إلى المياه المفتوحة. وقد تم إقناع أحد الاهالي بلغة الإشارة (حيث أن ماكليان لا يعرف العربية) ليقف على طوف عائم ويشير بحربة طولها ثمانية أقدام إلى قناة بين الصخور. وبرؤية الطائرة فوق الماء تشجع الناس الذين اعتبروها نوعاً من القوارب ولكن عند ما أقلعت وطارت فقط لبضعة مئات من الأقدام فوق الماء لم يكونوا متأكدين تماماً ما هي. البعض انبطح على الأرض وأياديهم تحمي رؤوسهم ولسبب غريب رفض عدد من الناس

النظر إلى الطائرة. ربما إنهم خافوا من العين الشريرة أو اعتبروها مجرد مظهر آخر من جنون الرجل الأبيض. واعتبروها غير صحيحة اجتماعياً لإظهار أي رغبة فيها. ولكن كان هنالك البعض إما بخيال أوسع أو بتقديس خرافي أكبر اعتقدوا أن إنساناً ينزل من السماء قد يكون هو الإله. مرة عندما كان ماكليان وشيخ يقومان بمناقشة مفعمة بالحيوية و لم يفهم كلا الطرفين كلمة واحدة من المناقشة التفت مكليان ليجد بعض الناس يحبون على الأيدي والركب ليقبلوا ما وصفه لي بعبارة « بقايا بنطلوني « ،

وصول مارك بوربوري إلى الخرطوم قوبل بدهشة وحماس مماثلين. عند ما أرسلت إشارات عن قدومه من محطات السكك الحديدية في الشمال اندفعت جموع غفيرة إلى الصحراء خارج الخرطوم لاستقباله. وبمجرد نزوله جرت إمرأة عجوز إليه في حالة استثارة شديدة وسألته إن كان هو من بني آدم أو ملاك وكذلك إن كان هو مسيحياً. وبعد أن أكدوا لها أنه آدمي مسيحي علقت بصوت عالٍ أن هذا هو الشيء الوحيد الحسن الذي سمعته عن عمل مسيحي.

حدث هام للغاية مثل وصول شخص من السماء كان فرصة حسنة للغاية لمقدم عريضة عنيد ليفقدها. أحد متقاضين متفائل اقتنص فرصة الاستقبال الرسمي الذي أقيم للطيار اخترق التجمع العظيم الذي رافق الحاكم العام وموظفيه وتقدم إلى الطيار بوربوري قائلاً « أرضي أعطيت خطأ لشخص آخر. لقد التجأت إلى كل مسئول يمكن أن أفكر فيه للحصول على حقوقي ولكن دون جدوى. وقد قدمت التماساً إلى حاكم عام السودان وخديوي مصر وملك إنجلترا. ولا أحد منهم يستمع إلى شكواي. . عند ما تعود إلى السماء أرجوك أن تترافع نيابة عني لدى الإله.

نشوب الحرب في ١٩١٤ أوقف المزيد من تجارب الطيران بواسطة المدنيين.

ولكن في مايو ١٩١٦ اشتركت طائرتان في حملة دار فور ضد السلطان علي دينار الذي خضع للدعاية الألمانية التركية وتمرد ضد الحكومة. وقد استخدمت الطائرتان أساساً في الاستطلاع وإلقاء المنشورات الذي أثار استياء علي دينار الذي شن الكثير من الاساءات على « رجل الخيالة المتخفي الذي أرسل لإلقاء صور وأوراق ». كان على الطيارين مواجهة أخطار عظيمة وأحياناً ضلوا طريقهم في العواصف الرملية الكثيفة التي تهب في ذلك الوقت من السنة. وفقط بصعوبة كبيرة أمكن إبقاء الطائرات في الجو. البترول وقطع الغيار وجميع المواد لحظائر الطيارات كان لا بد من نقلها لمسافة تزيد عن مائتي ميل على الجمال من نهاية الخط الحديدي في الأبيض. تُرى إذا كان مارشال سلاح الجو الملكي سير جون سلسر يتذكر هذه الرحلات التي تمت قبل سنوات عديدة عند ما كان ملازماً في سلاح الجو الملكي. كان واحداً من ثلاثة طيارين شاركوا في هذه الحملة. قيادة طائرة لا يمكن الاعتماد عليها فوق مناطق ليس لديها خرائط مع أمل ضعيف في الهبوط بأمان خاصة عند ما تخفض العاصفة الترابية الرؤية إلى مسافة ياردة أو ياردتين فقط لا بد أن ذلك قد احتاج إلى شجاعة مذهلة.

بعد الحرب العالمية الأولى عقد سلاح الجو الملكي رحلات تدريب روتينية من كيب تاون إلى القاهرة في حاملات جنود غير متقنة الصنع من نوع فكتوريز وفيكرز فيميز وهي غير مناسبة للأحوال المناخية وأحياناً تتقدم متعثرة كالسفن في بحر مندفع مثلما وجدت بنفسي.

قبل مضي وقت طويل بدأ الطيران المدني من جديد. توقف كثير من الطيارين الشجعان في وادي حلفا في طريقهم إلى الشمال أو الجنوب : ليدي بيلي ، ليدي هيث ، العقيد بي فان رينفلد ، الملازم ف. ر. بنتلي ، سير كوبهام وآخرون كثيرون. لقد قادوا تحت مخاطر عظيمة لأنفسهم. وهو مضمار

يستطيع الآخرون الآن اتباعه في راحة عظيمة وبأقل مغامرة. أسفي الوحيد عند ما قابلتهم أن هؤلاء الرواد الشجعان قللوا من المخاطر التي واجهتهم والمصاعب التي تغلبوا عليها إلى أن بدت رحلاتهم شيئاً معتاداً كرحلة باخرة من لندن إلى مارقيت. كم سيكون مرحَّباً حتى بسجل الطائرة عن مراحل الرحلة العديدة وبعض التعليقات غير المختصرة عما رأوه وما فعلوه !

الرسائل عن الطائرات القادمة ترسل تلغرافياً من الخرطوم أو من أسوان على بعد مائتي ميل ولكن أحياناً لا تستقبل في الوقت المناسب لنا لإيقاد النيران المصحوبة بالدخان. في إحدى الأمسيات كان أحد الأمريكان المشهورين يتوقع أن يصل وادي حلفا في طائرة برمائية فاخرة. وبما أن الطيار لم تكن لديه خبرة للطيران فوق الصحراء لذلك رافقه طيار بريطاني في طائرة « موث » وقد كانت لا تستطيع أن تجاري الطائرة الأمريكية الأسرع. أخطأ الطيار الأمريكي مكان الهبوط في الظلام المتكاثف وقد راقبت ذلك بخوف حيث إن الطائرة قد اختفت في صحراء غير مأهولة وليس بها ماء حيث إنه إذا اضطرت الطائرة إلى الهبوط فإن الموت من العطش أو الجوع أكثر من محتمل. وبعد ذلك بقليل وصلت طائرة البريطاني من نوع « موث » ولكن عند الهبوط انفجر أحد الإطارات. وقام الطيار بسرعة بدعم أجنحة الطائرة على براميل بترول فارغة لتغيير الإطار الذي انفجر. ثم جاءت عصفة ريح قلبت الطائرة رأساً على عقب وبعثرت العفش على الأرض وأتلفت أحد أجنحة الطائرة بدون أي أمل في إصلاحه. تحطم طائرة الـ « موث » بدت كارثية بالنسبة للطيار. وكاد الظلام أن يعم و لم تصبح للطيار الآن قدرة لمساعدة المسافرين المرموقين الذين كان مسئولاً عن سلامتهم.

وبينما هو ينظر إلى حطام طائرته ، تعجل ضابط جمارك حي الضمير بسؤال الطيار إن كان لديه شيء ليعلنه. نعم كان لديه. ولكن أخذ ذلك الكثير من

الدقائق القاسية قبل أن ينهي الإعلان الجمركي. ربما كان لا ينتهي عند ما انتهى لولا صوت طائرة بعيدة بشّر بقدوم الطيار الأمريكي الذي أدرك أنه تخطى نقطة الهبوط ورجع ليبحث عن دليله.

معظم هؤلاء الرواد لم يتوقفوا لمدة طويلة في وادي حلفا ولذلك كانت الفرصة ضيقة لسماع الكثير عن رحلاتهم. بعد يوم متعب في الجو وفحص وترميم طائراتهم فإنهم لا يميلون إلى بحث أمور الطيران مع غريب جاهل بأمور الطيران.

أكثر الطيارين شجاعة بين مدينة الكاب والقاهرة كانت هي الليدي بيلي التي تعرفت عليها عند ما كانت ضيفتي لبضعة أيام عند ما أجريت بعض الإصلاحات البسيطة لطائرتها الصغيرة سيرس موث Cirrus Moth ، لقاؤنا في مهبط الطائرات بوادي حلفا كان غير موفق وأعطى إشارة صغيرة عن السحر والتواضع الذي يرتبط دائماً في ذاكرتي بذكراها ، عند وصولها إلى القاهرة أبلغوها بما أغضبها غضباً شديداً أن حكومة السودان لن تسمح لها لتطير بمفردها من الخرطوم إلي يوغندا. وقد غادرت وهي مستاءة إلي وادي حلفا. ويبدو أنها مستعجلة للهبوط وقد راقبت بانزعاج عند ما أنزلت طائرتها الصغيرة بإتجاه الريح. وقد أوضحت لي فيما بعد عند ما سألتها عن السبب أنها فعلت ذلك بسبب الخوف من فقد السرعة في جو تقل كثافته. في ذلك الوقت كانت ليدي هيث تخطط للطيران من مدينة الكاب إلى القاهرة وأعتقد أنها بدأت في طريقها. وأما ليدي بيلي فهي مصممة على أن تصبح المرأة الأولى التي تطير من طرف أفريقيا إلى الطرف الآخر وليس لديها نية بأن يسرق منها الإمتياز بواسطة السودان أو أي حكومة أخرى. للأسف أنا كنت الموظف الأول في السودان الذي مرت به وقد ألقيت بجلاء لألعب دور كبش الفداء. وبمجرد خروجها من الطائرة فتحت هجومها على الحكومة

المعرقلة وموظفيها وتركتني لا أشك حول أفكارها عني وعن الحكومة. وقد كنت شاكراً لألاحظ أن ثورتها لن تزيد بإجراءات الجمارك الطويلة حيث إن كل ما تحمله كان في حقيبتين صغيرتين. البترول الاحتياطي احتل المكان الذي كان يمكن أن تحمل فيه المزيد من العفش. وقد اشترت ورمت ملابس في كل مكان توقفت فيه.

قضينا الأيام القليلة التالية في تبادل تلغرافات حيث تواصلنا أنا وهي مع السلطات في الخرطوم. وبينما كنت أتعاطف مع طموح الليدي بيلي لكن كان عليَّ أن أوضح لها وجهة نظر الحكومة. كانت ستكون هناك فرصة ضعيفة لإنقاذ حياتها إذا سقطت في منطقة السَّد Sudd أو وسط القبائل صعبة المراس التي تسكن بالقرب من المستنقعات. الجدل والاحتجاجات والتوسلات برهنت على أنه لا جدوى منها كما أدركت، بعد تعرف قصير، مع شخص ثابت العزم.

عندئذ غادرت ليدي بيلي إلى الخرطوم لمعالجة الموضوع مع السلطات بنفسها وقد وجدت طريقة سعيدة للخروج من مشاكلها عند ما كان الملازم ف. ر. بنتلي بالخرطوم وهو تابع للقوة الجوية لجنوب أفريقيا وقد عرض مرافقة ليدي بيلي في طائرتها الخاصة حتى لا تحرم من رغبتها لتطير منفردة. الملازم بنتلي كان في شهر العسل وأخذ زوجته بالجو إلى إنجلترا. لقد كانت مصادفة سعيدة أنه كان في الخرطوم في ذلك الوقت لأنه قبل بضعة أشهر فقط عند ما كان ذاهباً إلى جنوب أفريقيا من إنجلترا ودعته ليدي بيلي وعمَّدت طائرته « دوريس « وهو اسم خطيبته.

بعد بضعة أيام سمعنا أن ليدي بيلي قد هبطت هبوطاً اضطراريا في بلدة تابورا وحطمت طائرتها الصغيرة موث Moth فاضطرت إلى الحصول على طائرة أخرى لمواصلة طيرانها. وقد شعرنا مع كل ذلك أن مخاوفنا على

سلامتها لم تكن غير مبررة تماماً.

مختلفين جداً عن هؤلاء الطيارين الأوائل ، هنالك رواد كثيرون جاءوا إلى السودان من وقت إلى آخر. قابلت أناساً راجلين أو على مراكب ضيقة يسافرون حول العالم لمراهنة أو لرفع توزيع جريدة من الدرجة الثالثة. بعضهم مشى بأرجله مسافة من الرحلة يتسول الطعام أو النقود من سكان مديرية حلفا الفقراء وغيرها، ويعطون الناس انطباعاً سيئاً عن الأوروبيين والأمريكان ، ولكن يوجد قليلون لم يستخدموا في أية مرحلة من رحلتهم سكك حديد أو بواخر الحكومة أو أية وسيلة من وسائل السفر الأخرى المريحة. لا أحد يهتم كثيراً بهذا العفش إذا لم يكن هؤلاء المغامرون يتبجحون بصوت عالٍ عن المخاطر التي واجهوها من المتوحشين عند ما سافروا خلال أفريقيا السوداء أو الأخطار التي واجهوها من الحيوانات الأكثر وحشية. صحيح إنه في بعض أجزاء السودان لم يتم تماماً إخضاعهم للسيطرة، ولكن في مثل هذه المناطق لا يسمح لمسافر بدخولها. وفي الأماكن الأخرى، حيث السلامة متوفرة، لأي شخص أن يذهب إلى حيثما أراد.

هؤلاء الناس تسببوا في كثير من المشاكل. فبالرغم من المخاطر التي في خيالهم الخصب فغالباً ما تضطر الحكومة إلى إرسال شخص لمتابعتهم لضمان أن التصرفات السخيفة من جانبهم لا تؤدي إلى مصاعب ومضاعفات.

الأكثر إثارة ربما عن تفاخر هؤلاء المغامرين عند ما ترى فيلماً يظهر مجموعة من المكتشفين بدأوا رحلتهم والمعلق مسرور ليعلن « في بلد مجهول حيث لم يكن هنالك رجل أبيض من قبل « مجموعة كبيرة من الأسلحة قد حمّلت على الجمال لرحلة خطرة في مركز حيث المفتش قد تعوَّد أن يمشي أو يركب في جولاته المعتادة ربما يحمل بندقية خرطوش في حالة مروره ببعض دجاج الوادي. بدا المكتشفون كأنهم على وشك البكاء عند ما تركوا حضارة

الخرطوم إلى أعماق الأدغال حيث ربما أكبر خطر يتعرضون له نطحة عنزة أو رفسة جمل. وعلى أية حال ربما تم تطمينهم عند ما ينزل رجال الشرطة في معسكرهم من وقت إلى آخر ليتأكدوا أن كل شيء على ما يرام.

أحياناً استمتعنا بترويج مضحك والمغامرون تم فضحهم. أتذكر أننا واقفون على الأطراف وهناك جموع خائفة من السياح في وادي حلفا عند ما أبدى أحد هؤلاء المكتشفين الجسورين رأياً عن مخاطر السَّد Sudd والمتوحشين الذين قابلهم عند ما مشى من نمولي إلى وادي حلفا. إن أقصر مسافة بين المكانين (ما لم يكن قد سافر عن طريق مائتين واثنين وثلاثين ميلاً في صحراء لا ماء فيها بين أبو حمد والحدود) كانت ألفين ومائة واربعة وأربعين ميلاً. وعلى ذلك فالرحلة ليست ممكنة لأحد أن يقوم بها أو يتمها بسهولة. وقد اهتز المستمعون طرباً لما سمعوه. لكن لسوء الحظ ، وبمجرد ما أنهى المغامر الشجاع سرده الدرامي لمغامراته سأله موظف جوازات أثناء تأدية عمله إن كان هو السيد أكس الذي كان مسافراً في الباخرة من غندكرو إلى الخرطوم قبل ستة عشر يوماً وعلى القطار المتجه شمالاً قبل ثلاثين ساعة. وبما أن الباخرة أخذت ستة عشر يوماً لتصل الخرطوم من غندكرو والقطار ثلاثين ساعة أخرى من الخرطوم إلى وادي حلفا ، فحتى أغبى الواقفين يمكنه أن استنتاج ما حدث.

الباب السادس عشر

وداعـــــــــاً



الباب السادس عشر
وداعاً

بينما اقترب الوقت لمغادرتي السودان، بدأت أفكر أكثر فأكثر في الأصدقاء الكثيرين الذين تعاملت معهم والخدمات المخلصة التي قدموها لي وكل هذا وما يعنيه لي طوال أربع وعشرين سنة. لقد أشرت بصورة موجزة إلى المصاعب التي أضطر موظفون من السلك الكتابي إلى تحملها. وكثيراً ما تعجبت هل كنت أستطيع أن أعمل أكثر مما عملت لهم لتخفيف ضيق هؤلاء الخدم المخلصين الذين تتراوح مرتباتهم من جنيهين إلي ثمانية جنيهات في الشهر مما جعل من المستحيل لهم شراء أي شيء سوى ضروريات الحياة. عملهم اليومي (قبل إدخال المكنات الطابعة) نسخ الخطابات أو حفظ الحسابات عمل ممل. معظم هؤلاء الكتبة ليست لديهم نشاطات ثقافية أو فكرية أو اجتماعيه يشغلون بها أنفسهم. أنا من الناحية الأخرى لديَّ إمداد جيد من الكتب ومهمة سارة في دراسة تاريخ وعادات أناس مجهولين وفرصة لاصطياد بعض الحيوانات أو الطيور لتكملة طعامي والعزاء في التفكير أنه ربما كان العمل يستحق.

كثير من التقدير قد أزجي (حتى من أكثر المنتقدين لحكمنا الاستعماري) للإداري البريطاني المستوحد في أفريقيا. ينبغي أن لا ننسى الكتبة الذين لا يحتفى بذكراهم الذين شاركونا أمراضنا ومتاعبنا ، الذين لم تكن لهم نفس الحوافز التي دفعتنا ورغم ذلك فإنه دون خدماتهم ما كان لأحدنا أن يستطيع مواصلة العمل.

قاموا دائماً بأفضل ما يمكنهم من أجلنا بالرغم من أن محدودية معلوماتهم في اللغة الإنجليزية أحياناً أدت إلى نتائج غريبة. إنني أفكر في كاتب تلغراف

بسنار في سنة ١٩٠٩ الذي تلقى تلغرافاً لا يبدو أنه يعطي معنى لذلك قام بإدخال تغيير طفيف حتى لا أقوم بتوبيخه على الرسالة المحرَّفة.

في كل يوم ترسل تلغرافات رويترز إلى جميع المحطات الخارجية حيث يوجد مكتب تلغراف. وقد كانت تلك التلغرافات هدية عظيمة للمسئولين المقطوعين من جميع وسائل الاتصال الأخرى مع العالم الخارجي.

في إحدى الأمسيات رجعت إلى منزلي البدائي بعد قضاء ما بعد الظهر في الصيد. على منضدتي وجدت زجاجة صودا وزجاجة ويسكي ونسخة من تلغرافات رويترز وفيها آخر الأخبار من جميع أنحاء العالم. وضمن الأخبار تلغراف عن مرض القيصر. وقد كان مصدر تسلية كبيرة لي أن أقرأ أن « القيصر طريح الفراش مع العنزة. لقد قضى جلالته ليلة مزعجة ».

بالنسبة لكاتب التلغراف فإن وضع حرف (A) بدلاً من (U) هو أمر قليل الأهمية. غير أن هذا الإبدال قد غير المعنى من كلمة النقرس إلى كلمة العنزة.

كم نحن مدينون أيضاً إلى خدامينا بالرغم من أنهم يكادون أحياناً أن يدفعونا إلي الخبل بعنادهم خاصة خلال صيام رمضان عند ما يكون علينا أن نبدى تسامحاً لأناس لفترة شهر لا ينالون طعاماً أو شراباً بين طلوع الشمس ومغيبها.

كلما زدتهم من العمل الصعب كلما أجادوا وكلما استمتعوا بذلك. فإذا مشت الأمور بسلاسة وكان على الموظفين أن يعتنوا بشخص واحد يكون رد فعل الخدم على الفور التباطؤ. في إحدى المحطات التي نقلت إليها كان عليَّ أن أقوم بالكثير من الضيافة. وذلك يعني أنه لكثير من الأيام بطولها وحتى إلى ساعة متأخرة من الليل فإن الخدامين يعملون بجد ونشاط ولكنهم يحبون ذلك ويفتخرون على خدامي المسئولين الآخرين أنه في الليلة السابقة كان هنالك عشرة أو عشرون أو ثلاثون من الضيوف على العشاء في « منزلنا ».

لقد لمعوا في العظمة المنعكسة من كرم أسيادهم وشبهوا أنفسهم بأسيادهم وأحياناً ربما بنتائج محرجة. أتذكر مناسبة عند ما قمت بتحقيق عن قميص مفقود وقد قوبلت بإجابة أن « قميصنا « قد أرسل إلى الغسيل ؟!

ربما كانت هذه المطابقة لصالح وممتلكات السيد والتابع هي التي أدت إلى كثير من السرقات الصغيرة التي غالباً ما نغمض عيوننا عنها. ولكن يجب أن أعترف أنني في مرة كنت غاضباً نوعاً ما عند ما استدعي طباخي للمثول أمام قاض في الخرطوم لجنحة ارتكبها. وكان لديه من الوقاحة أن يظهر في المحكمةً لابساً فنلة وطاقية أكسفورد المكريكت الخاصة بي. أستطيع أن أفترض فقط أنه رغب أن يبيِّن للقاضي أن مرتدي هذه الملابس شخص مهم جداً وأكبر من أن يرتكب جنحة.

خدامنا يحبون الملابس الأوروبية ولكن يبدو دائماً أنهم يلبسونها في أكثر الأوقات غير المناسبة. تعاد معاطف الشتاء إلى الموظفين عند ما نعود من الإجازة. وهم يستعرضون بها بإعتزاز في الشمس حتى ولو سجل مقياس الحرارة ١١٦ درجة فرنهايت في الظل ولكنهم يخلعونها في الليل عند ما تكون الحاجة إليها أشد وذلك لأنه لا يوجد أحد ليراها ويحسدهم عليها.

لكن بالرغم من أن خدامينا في بعض الأحيان يخذلوننا لكن لدينا كل سبب لأن نكون شاكرين لهم لولائهم وخدمتهم عن طيب خاطر. إذا اتخذت قبيلة عدائية كراهية شديدة ضد أحد منهم بحيث أخذت صورة قذف بالحراب من مدى قصير فإن الخدامين أيضاً متورطون مع فرصة ضعيفة استطاعتهم الانتقام. فهم في أفضل حالاتهم في طوارئ تؤدي بالخدم الإنجليز للإضراب عن العمل وإعطاء إشعار على الفور. ساعة قبل العشاء ربما يتم تحذير الخدم أنه سيكون هناك أربعة عشر ضيفاً على العشاء بدلاً من اثنين. « حاضر أفندم « يكون هو التعليق الوحيد من الخدم. ويتم تقديم عشاء كاف في الوقت المحدد.

خلال السنوات العشر الأخيرة من خدمتي في السودان كان ضمن الموظفين التابعين لي شلكاوي يسمى بلال الذي كان عريفاً في (KAR) فرقة « بنادق الملك الأفريقية « ولا يوجد تابع أكثر منه إخلاصاً أو إعتمادية يمكن تخيله. خلال حملة شرق أفريقيا ضد الألمان في الحرب العالمية الأولى جرح العقيد الذي كان بلال يعمل لديه خادماً (BATMAN). رفض بلال أن يترك قائده أسيراً لدى الألمان فأخذوه أسير حرب معه. وكثيراً ما حكى لي المشاق التي عاناها. في إحدى الأمسيات وبعد يوم طويل في اصطياد الفيل كنا نجلس بجانب نار المعسكر متعبين ولكن منتصرين ، وأخبرني بلال كيف أنه ساعد في بناء السكك الحديدية لما يعرف الآن بتنجانيقا فالعمل صعب والحرارة شديدة وأكثر ما هو مجهد أن الألمان كانوا ينتظرون إلى حوالي منتصف النهار (عند ما تصبح القضبان شديدة الحرارة صعبة المناولة) قبل دفع السجناء للعمل في المهمة على الأخص. معاملة بلال السابقة من قبل الضباط البريطانيين وضباط الصف في فرقة بنادق الملك الأفريقية (KAR) لم تُعدُّه لمثل هذه الوحشية على أيدي الألمان. بلال الآن كبير في السن وشبه أعمى يعيش في ملكال على معاش الجيش ومنحة شهرية يعطيها له بسرور أحد أصدقائه. أتمنى أن ينقل إليه أحد هذه التحية الصغيرة التي تفيض بالشعور والتقدير والتأكيد له أنه لم يُنس.

في عدم توقع الأحداث يكمن سحر الخدمة في السودان. فقد يبدأ اليوم بعمل عادي تماماً فقط لينتهي بخاتمة خيالية.

كان عليَّ في مرة من المرات أن أمثل الحكومة في جنازة رجل دين ذي نفوذ عظيم. وعند ما وصلت إلى منزل المتوفى في الساعة التاسعة صباحاً وجدت أن ترتيبات الدفن لم تكتمل. فأدخلوني إلى غرفة خاصة يجلس فيها اثنا عشر من المعزين الرئيسيين في حالة حزن منتظرين أحداً يقوم بتعليق مناسب. عادة

في مثل هذه المناسبات يمضي الوقت في تأبين المتوفى أو مدح الأعمال الطيبة التي أنجزها أثناء حياته. وفي هذه المناسبة كانت فترات طويلة من الصمت تقطعها فقط عبارات روتينية « الله يرحمه « أو « الله يصبِّر أبناءه «. ربما كان اليوم حاراً للغاية للحديث. أو أن المعزين لم يستطيعوا أن يجدوا الكثير لقوله لصالح رجل سلوكه (بالرغم من تدينه) غريب الأطوار خلال حياته. لا شك أنه كان فرداً بارزاً ولكن كل ما أستطيع تذكره عنه هو زيارته لمنزل مسئول بريطاني رفيع جداً كانت زوجته نحيفة للغاية. وعند ما كان الرجل المتدين مغادراً رؤي يهز رأسه بحزن وسمع يقول « والله مسكينة ! « ثم أضاف « بالتأكيد إن سيادته بكل ثروته يستطيع أن يفعل أفضل من ذلك لنفسه! «

لكن رغم أنه كان هنالك نو ع ما من الهدوء داخل غرفة الوفاة إلا أنه مختلف جداً خارجها حيث ازدادت ضوضاء البكاء. وواحد منا على أية حال فكر وهو يغبط نوعا ما الحيوية التي تدفع المعزين. تمدد الزمن إلى حوالي الساعة الحادية عشر حين أبلغونا أن المراسم يمكن أن تبدأ. وفي هذا الوقت أصبحت الشمس عالية في السماء وقليلون منا شعروا بإغراء احتمال ثلاثة أميال متعبة من المشـي في شـوارع ترابية إلى المعدية التي ستنقل الجثمان إلى الضفة الأخـرى من النيل. كان هنالك جمهور غفير من الناس (عدة آلاف) خارج المنزل مع مئات من النساء العجائز الذاهلات المشعثات الشعر يصرخن ويهلن الرمل على رؤوسهن ويشققن الجيوب. وقدمت إحدى الكتائب السودانية فرقة موسيقية وحرساً عسكرياً وبدأنا المسيرة مع الفرقة وهي تعزف ببطء ترنيمة حزينة. ومشى الحرس بأسلحة منكسة وبخطوة الأوزة المبالغ في بطئها مما جعلني أندهش إن كنا سوف نصل إلى مقصدنا. ببطء تبللنا بالعرق في الشمس الحارقة والغبار مع صرخات المعزين التي تزداد علواً وحدة. بعد حوالي عشرين دقيقة التي بدت أطول بكثير. وأمر قائد الفرقة الموسيقية بعزف

القطعة رقم ١٧ وهذا يعني تغيير النغمة (وأتمنى تغيير الوقت) ولكن ماذا ستكون لا أحد منا لديه أدنى فكرة. قليل من الأنغام البريطانية أو الأهلية لها أية أسماء عربية ما لم تكن إغاني حب معروفة أو أغنية حرب قبلية. وكل منها تميز برقم. الأنغام نفسها (أو علي أي حال الموسيقى الأوروبية) تنقل القليل إلي العازفين. ولكنني اندهشت عند ما عزفت الفرقة رقم ١٧. وقد ضاعفنا جهودا لمتابعة النغم ولربع الساعة التالية أسرعنا مع المعزين وانقطعت أنفاسنا وأرهقنا مما جعل من الصعوبة بمكان سماع عويلنا. ومرة أخرى عزف لحن جنائزي مما ساعد النساء النائحات على اللحاق بالموكب وبقيتنا لاستعادة أنفاسنا. استغرق ذلك حوالي عشرين دقيقة حتى أصبحنا على بعد حوالي ميل من المعدية عند ما صدر الأمر لعزف رقم ٢٣. وعزف رقم ٢٣ بصوت عالٍ. مات رجل دين محترم بتشييع غير مناسب.

من الطبيعي لكبار السن أن يأسفوا على الماضي البعيد عند ما كانوا شباباً ممتلئين قوة ولديهم كل حياتهم أمامهم. وأنهم لا محالة سوف يستغربون في بعض الأوقات إن كانت في هذا العصر المحموم قد اشتريت الكفاءة والرفاهية المادية بثمن فاحش جدا وفي عجلة عظيمة جداً « الأشياء كانت مختلفة جداً يا بُنيَّ في الأيام الطيبة الماضية ! « أهل السودان قبل أربعين أو خمسين سنة لا يطلبون كثيراً في حياتهم خلاف الزواج وإنجاب الأطفال وأن يكون لديهم طعام كاف لحفظ الحياة وأن يتحرروا من الخوف من تجار الرقيق أو عصابة مسلحة من جباة الضرائب. الجريمة كانت نادرة والمجرمون يقدمون بسرعة إلي العدالة في قرية حيث كل شخص يعرف عن أعمال جاره. والملابس رخيصة وغالباً ما تصنع في القرية بيد ناسج الدّمُّور. المتطلبات قليلة ومن السهل اشباعها. إذا اراد أي واحد منزلاً فإنه يقطع بعض الحشائش أو سيقان الذرة ويأتي بالحطب من أقرب غابة ثم يطلب من بضعة أصدقاء أن

يساعدوه على بنائه وذلك مقابل فنجان قهوة او شاي أو قرعة مريسة. وإذا لم يعجبه الموقع الذي اختاره أو تشاجر مع جيرانه فإن عدداً من الرجال سوف يرفعون السقف ويحملونه على رؤوسهم و يضعونه على دعامات خشبية أو جدار دائري من الطين في مكان آخر. ولطبخ وجبة مسائية فإنه يمكن ذلك على خشب أو روث البقر. والأغنام تحلب عند باب الكوخ (القطية). ويصنع الزبد بخض اللبن في السعن المصنوع من جلد الماعز حتى ينفصل الزبد عن اللبن وغالبا ما يعلق السعن في فرع شجرة أو سيبة ذات ثلاث شعب قليل من الشاي أو القهوة أو التمر الجاف وقليل من قطع السكر هي كل الترف الذي يستطيعونه. هذه وبعض الملح والبطيخ يمكن الحصول عليها عن طريق المقايضة في الأسواق الأسبوعية حيث يتقابل الأصدقاء القدامى وتحصل تعارفات جديدة. السوق مكان بسيط والبضائع مفروشة على الأرض والبائع جالس أرضا خلف بضاعته وأحياناً يوجد برش لحماية البائع أو البائعة من حر الشمس. إذا كان الأرقاء السابقون (الذين تكون ثروتهم الوحيدة بضعة معزات) يعيشون فقط على المريسة فمن يستطيع أن يلومهم ؟ إنها طعامهم وكذلك شرابهم على أية حال هذه الأوضاع بالرغم من قسوتها تبدو فيها إسراف للبعض الذين يستطيعون تذكر الوقت عندما كان كثير من أصدقائهم وأقاربهم قد جاعوا حتى الموت وآخرون أصبحوا من أكلة لحوم البشر، قسيس في أم درمان يسجل كيف أن طفلة صغيرة مفزوعة في المهدية قد هربت واحتمت بالقاضي بعد أن رأت والدتها تشوي وتأكل أخاها.

المسليات قليلة ووصول بعض السمكرية المتجولين (الغجر الذين يتحدثون لغة خاصة بهم) أو موسيقي يعزف ربابة أو قيثارة من وترين كان مناسبة في حياتهم وغالباً ما يكون ذلك اتصالهم الوحيد لشهور مع العالم الخارجي. أحيانا لتأكيد رجولتهم ينخرط الشباب في المزاح الخشن «أخو البنات»

وذلك باشتباك اثنين منهم في جلد بعضهما على الأكتاف والظهر بالسياط المصنوعة من جلد فرس النهر التي تترك آثارا دائمة في الظهر. ولكن لديهم استثارة صغيرة عندما يخطف ضبع أو فهد شاة أو ينتج عن سكر وشجار شج قليل من الرؤوس. ومع ذلك بالرغم من الفقر الذي تعودوا عليه منذ زمن وبالرغم من المقاساة والمرض الذي يمكن منعه (الذي خلصناهم من الكثير منه) فإن للحياة تعويضاتها. وهي على أي حال بتمهل وغير متعجلة. إن إيقاعها الهادئ لم تغيره حالات القلق ولا السرعة ولا تعقيدات الحياة المدنية الحديثة. الناس هم السادة وليسوا عبيد الوقت.

صديق سوداني شاب قال لي قبل مدة ليست بعيدة « نريدك أن تعود إلى السودان لترى التغييرات الكبيرة التي حدثت منذ أن غادرت. السيارات والطائرات في كل مكان والإنارة الكهربائية والمياه في أماكن كثيرة » فكر للحظة ثم أضاف في كآبة نوعا ما « لا أدري بالرغم إن كنت ترغب في ذلك » نحن بالتأكيد أكثر ثراء عما كنا ولكنني لست متأكداً تماماً مما يخبرني به والدي إن كنا سعداء كما كانوا. لم تكن هنالك أشياء مثل الإضرابات في أيامكم يا سيد جاكسون ولا أشياء مثل السياسة التي تفرق الأسر وتؤدي إلى كثير من الخصام وحتى القتال في الشوارع.

إن الإنطباعات الأولى عن قطر جديد هي الأكثر دواماً. إنني أُذَكِّر بالحرارة الشديدة في الصحراء والضياء عند الشروق والمغيب والقسوة البربرية من بعض الناس مقارنة بالطيبة والتعاطف مع الآخرين وعدوانية الأهالي في الجنوب والشعور بالإمتنان لدى النوبيين في الشمال عن أي شئ صغير نستطيع عمله لهم. ولكن الأكثر حيوية من أي شئ آخر سيكون دائماً تذكر الفقر المدقع لهؤلاء الناس في تلك الأيام والود والصداقة وكرم معظم هؤلاء الذين جئنا لمساعدتهم.

أسماء كثير من الرجال الذين قادوا مصائر سكان أفريقيا قد تم إحياء ذكراهم كتابة أو بنصب تذكارية. ولكن الجزء الذي لعبته النساء (الراهبات وزوجات المسئولين) كثيراً ما تم نسيانه. أود قبل أن أنتهي أن أوجه التقدير إلى أولئك اللائي فعلن الكثير لتمهيد الطريق الذي كان غالباً خشناً وشائكا وأعنّنا وآزرننا في مصاعبنا. في كثير من الطرق، فإن نصيب النساء البيض في السودان كان أصعب احتمالاً من نصيبنا. فهن كن أكثر عرضة لعدوانية الطقس وأكثر قابلية للمرض منا الذين علينا أن نخضع لفحص طبي صارم قبل أن نقبل للخدمة في السودان. في المحطات المنعزلة قد تجد الزوجة أنها المرأة البيضاء الوحيدة لمسافة مائة ميل ولا بد أن الحياة مملة. إنها تشارك زوجها المتاعب والمخاطر راكبة على جمل أو ماشية مسافات طويلة تحت الشمس المدارية ولكنها تستطيع أخذ جزء بسيط في العمل المشرّف الذي يستغرق كثيراً من وقت زوجها. أولئك اللائي كن أمهات عليهن تحمل عبء الإنفصال غير الطبيعي عن أطفالهن الصغار، مرتين خلال سنتين كانت زوجتي أسبوعين أو ثلاثة في البلاد عندما استدعوها إلى الوطن ببرقية بسبب مرض الأطفال المفاجئ. وبعد اشعار قصير كان عليها أن ترتب أمورها وتنتظر أن تجد حجزاً في قطار أو باخرة وعلى أقل تقدير تستغرق عشرة أيام لتصل إلى انجلترا – عشرة أيام من القلق والخوف من أي أخبار قد تنتظرها عند وصولها.

انتهت حفلات الوداع وألقيت الخطب الختامية وتبودلت آخر الهدايا. لقد افتتحت ملجأ جاكسون وقد بناه الناس بكرم فياض في ذكراي وقد رأينا عدداً كبيراً من النساء الأرقاء العجائز وقد استقر بهن الحال فيه وهن سعيدات. وهنالك شيخ بلحية مصبوغة بالحناء قد ألقى ذراعيه حول عنقي وقبلني على خدي وانفجر باكياً عند ما انتهى الحفل.

عند ما غادرت منزلي وجهت إليّ تحية من تسع طلقات مدفعية للباخرة التي

سوف تأخذني في المرحلة الأولى من رحلتي إلى بلادي. فكرت في ذلك اليوم عند ما نظرت لأول مرة إلى النيل والذي أنظر إليه الآن للمرة الأخيرة. وباستثناء فترة قصيرة من الخدمة في مديرية البحر الأحمر فقد كان النيل دائما معيَ ، سالكاً طريقه خلال الصحراء والمستنقعات ولكنه منسوج من نسيج حياتي. أنهار السودان الأخرى التي رأيتها هي بحر الغزال ، وبحر الجبل ، وبحر العرب ، والرهد ، والجور ، السوباط ، وبارو ، البيبور ، وعطبره والدندر - كل منها مع سحر الماء الجاري ومظللة بالأشجار أو مسكونة بالحيوانات المتوحشة ولكن هذه الأنهار هي أقزام بالنسبة إلي النيل العملاق - نهر المصير الذي حدد مصير ملايين الناس في مصر والسودان.

خيَّم الغسق عند ما وصلت مرسى البواخر واحتشد الشاطئ بجموع الناس المعتادة منتظرين لوداع حاكمهم كل منهم حريص على مصافحته باليد ولساعات قبل وصولي استمرت الزغاريد والغناء. ولكن عند ما تأخر قيام الباخرة غير المتوقع على الناس أن يذهبوا إلي بيوتهم لتناول وجبة العشاء. بعد مزيد من المصافحة وتعابير المودة في آخر لحظة تفرق الجمع تدريجياً وذهبت أنا للعشاء. بعد ساعتين تحركت الباخرة من الرصيف المهجور ووقفت أنا على السطح الأعلى لألقي آخر نظرة على الأرض حيث كنت فيها سعيداً للغاية. وعند ما سمعت نغمات Auld Lang Syne آتية خلال الظلام وقد عزفت على بوق من أحد الشرطة التابعين لي. كيف تعلم ذلك ومن أين حصل على البوق لهذا الغرض ، ليست لديَّ فكرة. لا بد أنه ظل لأسابيع يتدرب على اللحن سراً حتى يكون ذلك مفاجأة بالنسبة لي ولا يعطيني تلميحاً عما ستكون عليه تحية الوداع الأخير. لا شيء يمكن أن يكون أكثر درامية ولا شيء أكثر تمثيلاً للود ومراعاة شعور الآخرين من أولئك الذين عملت معهم لأربعة وعشرين سنة. نادراً ما تأثرت مثلما حدث لي عند ما رأيت شكلاً في

الظلام على الشاطئ الصامت يودعني وداعاً مؤثراً.

لقد كتبنا عن الماضي. ماذا عن المستقبل ؟

أعتقد أن روابط الحب والتقدير المتبادلة التي خلقناها في الماضي سوف تكون قوية بما يكفي لتقاوم التوترات التي لا بد أن تخلقها الأفكار الجديدة والثقافة المتنامية في المستقبل. الأمم الشابة مثل الشباب من الناس (في ثقة الشباب مع كل الشجاعة وروح المغامرة) ترفض نصيحة أولئك الذين لديهم خبرة بالحياة أكثر بكثير مما يمكن أن يجمعوه في مدى حياتهم القصيرة الخاصة. فقد يكون ذلك في السودان. التجارب قد تقام وتفشل. أعمال غير رابحة قد تقام وتخسر. ولكن إذا استخدم الزعماء السودانيين (الذين ستؤول إليهم مسئوليات عظيمة في المستقبل القريب جداً) السلطات المكتسبة حديثاً لرفاهية أتباعهم وليس كوسيلة لإثراء أنفسهم على حساب الأخرين فإن تضحيات اولئك الذين ذهبوا من قبل لن تذهب سدى.

نأمل كثيراً جداً أنه قد يتوقفون أحياناً ليحددوا كيف أنهم أكثر راحة وأكثر أمناً بغير حدود من آبائهم وأجدادهم وأن يتأملوا (ليس بدون عرفان) لأولئك الذين ساعدوهم لإعطائهم هذه الراحة والأمان الأعظم وفرصة لحياة أكثر امتلاء ؟ ليكن ذلك كما يكون. كل الأمنيات الطيبة مهداة إلي السودانيين الأصغر من أولئك الذين مع تعاون آبائهم المخلص عملوا لإعطائهم فرصة الحرية وحكم بلادهم. هل لنا أن نحييهم ونودعهم بالكلمات التي هتفوا بها لأمرائهم قبل نصف قرن ؟

أبشر بالخير !

خاتمة

كان بلداً مقفراً ومدمراً عند ما دخلت فيه القوات البريطانية والسودانية والمصرية في صيف ١٨٩٦. وعند ما اتخذ كتشنر طريقه خلال القرى المهجورة ومر بسواقي متروكة ربما شعر مع غردون أن السودان كان دائماً وسيكون دائماً « ممتلكات لا قيمة لها « كسب سيفه ممتلكات مفلسة. قليل من الناس لديهم ما يكفي لأكله. كثيرون منهم جياع لا توجد محاكم عدالة ولا خدمات صحية ولا مدارس ولا طرق مناسبة أو وسائل مواصلات كافية. لا شيء خلاف ما يكاد أن يكون صحراء مقفرة.

سنفرع (Seneferuw) قبل خمسة آلاف سنة من الصعب أن يترك على أثره تخريباً شاملاً أكثر من الدراويش.

في ١٨٩٩ كان الدخل ١٢٦٥٠٠ جنيه وفي ١٩٠٠ كان ١٥٦١٨٨ جنيه. الإدارة كانت ستكون مستحيلة لولا قروض من مصر التي كانت حكومتها سعيدة للغاية لتقديم القروض مقابل حماية حدودها الجنوبية من الغزو ولإعادة فتح التجارة بين البلدين.

التقدم لعديد من السنوات كان بطيئاً بصورة مقلقة. وحتى سنة ١٩١٣ لم يكن ممكناً لحكومة السودان أن تستغنى عن المساعدات المالية من مصر. ولربع قرن لم تظهر نتائج لأعمال الحكومة الشاقة ولكن ، باستثناء نكسة قصيرة واحدة ، أصبح التقدم منذ ذلك الوقت سريعاً. بعد الحرب العالمية الثانية بدأ السودان في رد المال المقترض إلي مصر وبمجموعه ٥،٤١٤،٥٢٥ جنيهً مع الفوائد المستحقة.

قبل خمسين سنة كان مجموع حجم تجارة السودان يبلغ فقط بضعة مئات

آلاف من الجنيهات.

في عام ١٩٥١ بلغ أكثر من ١١٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه مع رصيد إيجابي بلغ ٣٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه.

قبل خمسين سنة كانت الأصول الاقتصادية الوحيدة للسودان قليل من الصمغ العربي وسن الفيل وريش النعام وبعض الذرة والماشية مثلما كان ذلك في عهد هيرودوتس.

في ١٩٥١ محصول القطن وحده بيع بأكثر ٥٤،٠٠٠،٠٠٠ جنيه.

قبل خسين سنة كان مجموع الإيرادات أقل من ٢٥٠،٠٠٠ جنيه.

في ١٩٥١ زادت عن ٣٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه والإيرادات من ضرائب الحكومة المحلية كانت أكثر من ٢،٥٠٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه – عشرة أضعاف إيرادات جميع السودان في العهود الماضية.

حسناً. . هل لبروفيسور فرانكل (بروفيسور الاقتصاد والتاريخ الاقتصادي في جامعة ويلتوترز راند) أن يقول « لن يكون هناك شك أن التطور الاقتصادي في السودان في القرن العشرين كان إنجازاً مرموقاً وواحداً في كثير من الأوجه يعتبر نموذجاً للبلاد الأفريقية الأخرى».

من الفوائض المالية التي استطاعت حكومة السودان تجميعها في السنوات الحديثة أصبح ممكناً تطوير الخدمات الطبية والتعليمية وغيرها من الخدمات حتى أصبت في متناول كل شخص.

قبل خمسين سنة لم يكن لأهل السودان ، ما لم يكونوا من سكان المدن ، مساعدات طبية ما لم يعطه مفتش المركز صندوقاً للاسعافات الأولية أو صندوق الحلاق الصحي الذي كانت مهنته الأساسية تسجيل المواليد

والوفيات والذي كان أيضاً ببيع حبوب الكينيا في القرى. اليوم بالإضافة إلي عيادات الولادة ، وعربات إسعاف متحركة وخدمات أخرى ، يوجد أربعون مستشفى على الأقل و٣٥٢ شفخانة - وسوف تزداد أعدادها في السنوات العشر التالية إلي ثلاثة وخمسين وخمسمائة واثنين على التوالي.

المدارس يجري بناؤها في كل الأماكن للبنات والأولاد. مليونان ونصف من الجنيهات قد رصدت لمزيد من المدارس خلال السنوات الخمس التالية. بعض الجيل الأصغر من السودانيين ينتقدون سياسة الحكومة في أيامها الأولى لعدم تقدمها بصورة أسرع في بناء المدارس وتطوير التعليم وأرقام الايرادات التي ذكرتها تعطي السبب. إذا كانوا ما زالوا غير مقتنعين دعهم يسألوا أباءهم أي شيء كان سيفضلونه قبل خمسين سنة - رأس ملانة أم معدة خاوية. لم يكن هناك خيار آخر. إما أحدهما وإما الآخر. الرخاء المادي الذي يستمتع به السودانيون اليوم هو بسبب السياسة الاقتصادية الحكيمة للحكومة قبل خمسين سنة وقد كان ذلك غير ممكن بدونها. حقيقة أن من أوائل الأشياء التي فعلها كتشنر بعد معركة أم درمان مناشدته للشعب البريطاني للتبرع بمبلغ ١٠٠،٠٠٠ جنيه لتأسيس كلية في الخرطوم تذكاراً لغردون فقد أدرك تماماً أهمية التعليم.

قبل وقت ليس بالبعيد أصدر اتحاد عمال السودان تحت التأثير الشيوعي بياناً طويلاً يهاجم إمبريالية بريطانيا العظمى المستعمرة. ملاحظتان في بيانهم المضحك. لا بد أنهما جعلا العناصر الأعقل في السودان (ويوجد منها كثيرون) ليبأسوا من مستقبل بلادهم. قال البيان «وضعت حكومة السودان قوانين لتقف في طريقنا . . للخمسين سنة الماضية شعب السودان والعمال على وجه الخصوص كانوا ضحية للفقر والمرض والجهل.»

مثل هذا الهراء الشيوعي والمبني على رفض أعمى لمواجهة حقائق التاريخ والأسوأ على تشويه هذه الحقائق هو أمر مستهجن. بعض قادة اتحاد عمال السودان ربما كانت تتاح لهم فرصة التعليم المجاني الذي تلقوه بسبب « الإمبريالية المستعمرة « التي أتاحته لهم.

هل نسوا كلية غردون – التي وصلت إلي وضع جامعة في ١٩٥١ والتي منها كثير من كثير من حكام المستقبل في السودان سوف يتخرجون منها – أو مدرسة كتشنر للطب التي دربت العشرات من الأطباء الأكفاء. أبناء شيوخ عرب ممن عرفتهم وأحببتهم كثيراً – قليلون منهم يستطيعون القراءة والكتابة – يدرسون الفيزياء والكيمياء الحيوية ويجرون عمليات رئيسية ويحصلون على الدرجات الفخرية في جامعات إنجليزية واسكتلندية ويعملون قضاة محاكم عليا أو مفتشي مراكز.

ربما أن اتحاد عمال السودان لا يود أن يفكر في الأيام ، رغم أن الجيل الأكبر يستطيع أن يخبر هؤلاء المحرضين عنها ، عند ما كانت الوجبة العادية للناس تتألف من البليلة وهي حبوب الذرة المنقوعة في الماء ومعها قليل من الحليب ، البعض يجلبه من عجاف أبقارهم أو أغنامهم أو شياههم أو جمالهم. أما اللحم فكان رفاهية عظيمة ولا يؤكل إلا في بعض المناسبات الاحتفالية كالأعراس أو عيد الأضحى. وهم لا يتذكرون ذلك. ولكن لولا تشجيع البريطانيين ما كان سيكون هناك كثير من الجمعيات التعاونية والنقابات التي تنتشر الآن في كل مكان في السودان ولا مثل اتحاد عمال السودان.

الآن فصل آخر في تاريخ السودان الطويل يأتي إلي نهايته. البريطانيون يسلمون إلي السودانيين المسئولية لإدارة بلادهم. وصايتنا أوشكت على النهاية. ماذا لدينا لإظهاره لهذه الوصاية ؟

نورّث السودانيين مستشفيات ومدارس وجامعة وميناء رائعاً في بورتسودان وألفي ميل من الخطوط الحديدية وأربعة جسور كبيرة وآلاف الأميال من الطرق أو الدروب المزال عنها الأشجار وآلاف الأميال من خطوط التلغراف ومكاتب البريد والتلفونات في جميع أنحاء البلاد ومطارات ولاسلكي وإنارة كهربائية وفنادق واستراحات وإمدادات مائية بالمواسير ومئات من المضخات الميكانيكية وتسعة آلاف من السواقي في شمال السودان وحده وهي تسقي الأراضي المجاورة للنيل وخزانان ضخمان وفائدتهما لا تقدر بثمن للمزارعين تم بناؤهما وأخرى ستبنى قريباً. الثروة الحيوانية الخاصة بالناس والتي يعتمد عليها الكثيرون في معيشتهم قد تم تحسينها كما زيدت إمدادات المياه لها مئات المرات. وفي منطقة الزاندي المقطوعة من العالم الخارجي بحاجز منطقة السد Sudd تم افتتاح مشاريع لجعل السكان مجتمعاً مكتفياً ذاتياً.

كما منحنا أيضاً العدالة والأمن والحرية للجميع ليعبدوا ما يشاؤون وأنشأنا مجلساً تشريعياً على غرار البرلمان البريطاني وأتحنا الفرصة لكل شخص ليعيش حياة كاملة ومرضية. سلام بدلاً من الحرب. إذا استطاع البريطانيون أن ينظروا إلي الوراء على سجل بارز من الإنجاز فيجب ألا ينسى أن جميع هذا التقدم المادي ما كان يمكن أن يتحقق بدون التعاون المخلص من أولئك الذين حكمناهم وخدمناهم. شاب سوداني صديق قال لي مرة « أنتم الإنجليز عملتم الكثير لشعبي وهناك شيء واحد سوف أتذكره دائماً. أنه لا يوجد تمييز عنصري في السودان. »

لهذا ربما علينا أن نشكر واقعة أنه لا يوجد صراع اقتصادي بين البريطانيين والسودانيين. فنحن دائماً نعتبر أنفسنا كأوصياء على السودانيين. فلم يسمح لأي أجنبي لامتلاك فدان واحد في السودان. وأن البريطانيين قد أسبغوا

فوائد مادية عظيمة لا يمكن أن تكون محل إنكار. وما إذا كنا أشربناهم بتلك الخصائص الخلقية والروحية التي تستطيع وحدها جعل الأمة عظيمة وتمكنهم من التغلب على الصعاب التي تقف أمامهم فقط مضي السنين البطئ يمكن أن يكشفه. لكن هناك الكثير ليعطينا أسباباً للأمل. بمجرد فتح السودان ، قامت حكومة السودان من مواردها المحدودة للغاية برصد منحة مقدرة لبناء مسجد الخرطوم وذلك قبل أن نبدأ في جمع مال لبناء كنيسة لنا نحن. السودانيون لم ينسوا ذلك وبدورهم رصدوا مبلغاً لمنفعة أولئك الملتزمين بالعقيدة المسيحية. في عام ١٩٥١ قررت الجمعية التشريعية بمعارضة تسعة أعضاء فقط من أربعة وسبعين عضواً بدفع مبالغ كبيرة من الضرائب لاستمرار التعليم المسيحي في جنوب السودان. في سنة ١٩٤٧ صوت مجلس بلدية أم درمان المكون معظمه تقريباً من المسلمين بالإجماع لتخصيص إحدى أفضل المواقع في قلب المدينة لكنيسة مسيحية.

الكثير والمعقد من المشاكل التي يجب على السودان مواجهتها والتي في معظمها ينبغي أن يعالجها المسلمون في الشمال الذين لديهم فرص أكبر من إخوانهم في الجنوب في تلقي تعليم كافٍ يجعلهم واعين سياسياً.

هناك مسألة علاقة السودان مع مصر والعالم الخارجي التنافس بين الشباب السوداني المتعلم وزعماء القبائل الأقل تعليماً.

تعارض المصالح بين سكان المدن وسكان الريف

التنافس بين الطريقتين التابعتين لأكثر رجلين نافذين في السودان ، السيد السير علي الميرغني والسيد السير عبد الرحمن المهدي.

التنسيق بين الشمال الإسلامي والجنوب المسيحي والوثني.

تطور الجمعيات التعاونية منذ الحرب العالمية الثانية وظهور النقابات مع

مطالبها الملحّة لأجور أعلى وجهودها لتنفيذها بالعمل السياسي.

تهديد الشيوعية من مصر – أرضية خصبة للشيوعية حيث الأغنياء أغنياء بغير اعتدال والفقراء فقراء لدرجة البؤس.

هذه بعض المصاعب التي ينبغي أن يتم التغلب عليها من قبل أمة حديثة وجيل من الساسة الذين لهم فقط بضعة سنوات من خبرة المؤسسات الديمقراطية الغربية التي يمكن بها جعلها تعمل.

تقدمت إنجلترا ببطء من حقبة زراعية إلي إقطاعية وإلي صناعية وهي الآن في العهد الذري والدفع النفاث – في عدم انسجام مؤلم مع دولة الرفاهية. كانت التغييرات تدريجية وربما حتى اليوم فإن التقدم المادي والعلمي لم تتجاوزها التعديلات الأخلاقية والروحية التي جعلت هذه التغييرات عاملة في الماضي. في أقل من عشر الزمن الذي اقتضى انجلترا لتطوير دستور يتناسب مع طريقة حياتنا فأهل السودان يدعون لتطوير نوع ديمقراطي من الحكومة وهو غريب عن كل أعراف الشرق الأوسط مع ولائه لزعيم ديني أو علماني ، سلطان أو أمير. العرب – غير متعلمين في جيل سابق وكثيرون منهم اليوم لا يستطيعون القراءة ولا الكتابة – تم تعريفهم فجأة بالطائرات واللاسلكي والرادار وجميع أجهزة العلم الحديث الغربية – السودانيون الجنوبيون – حتى قريباً تحت سيطرة العرَّافين – لا بد أنهم ما زالوا يحتاجون إلي سرعة خاطر أعظم للقيام بهذه القفزة إلي الأمام في التطور الثقافي. وقد يصابون بالدوار قبل صدمة الحضارة الغربية.

أوكل إلي السودانيين لبعض السنوات الماضية زيادة المسئولية تدريجياً لإدارة شئونهم الخاصة. مجالس المدن ومجالس مراكز المدن قامت مكان مفتشي المراكز البريطانيين. كثير من السودانيين قد تم تعيينهم لبعض أعلى المكاتب في

الدولة وعملوا فيها بإمتياز وحكم سليم. وقد أجريت المناقشات في المجلس التشريعي بوقار ولباقة.

في نفس الوقت يجب التذكر أنه قليل. . قليل جداً من السودانيين قد تلقوا التعليم العالي الذي يمكنهم من التعامل مع تعقيدات مجتمع حديث معقد. فتجربتهم الإدارية كانت بالضرورة محدودة من حيث الوقت والفرص.

سوف لن يكون أمراً سهلاً على السودانيين أن يؤلفوا في كل منسجم كثيراً من الناس يختلفون اختلافاً كبيراً في اللغة والثقافة والعرق والدين فالبنقو ليس هناك ما يجمعهم مع النوبيين ولا الهدندوة مع الزاندي ما عدا الإنسانية العامة. هل تستطيع الحكومة السودانية الجديدة في توحيد هذه الأعراق المختلفة في كمونولث شعوب أفريقيا وأن تنجح حيث حتى الآن شعوب أوروبا قد فشلت في مجالها الخاص ؟ إن تاريخ الخمسين سنة الماضية هو في الحال تحد وأمل لأولئك الذين سرعان ما سيكون لديهم رفاهية. . كثير من الناس المختلفين توضع تحت مسئوليتهم.

ربما لبضعة سنوات قادمة سوف يحتاج السودانيون مساعدة أولئك الذين كانت لهم خبرة طويلة لنوع المشاكل التي يواجهونها الآن.

بيتر هوارد في كتابه « الأفكار لها سيقان « يحكي عن قصة حقيقية لإمرأة إنجليزية قالت لإمرأة بورمية : « لقد أعطيناكم السكك الحديدية والراديو والصحف والبواخر والتلغراف والقانون والعدالة والحماية « « نعم « ردت المرأة البورمية « بالتأكيد أنكم فعلتم. إنني شاكرة لكل هذه الأشياء. ولكن هل أعطيتمونا قلوبكم ؟ «

أعتقد أننا في السودان فعلنا ذلك. لقد كان اهتمامنا الشخصي أن نرى أن شخصاً فقيراً لم يعاني لأنه فقير وأنه لا أحد كسب ميزة لأنه غني. وفوق

كل شيء فقد كان لنا اهتمام عـميق في رفاهية كل فرد وفي صحة عائلته وفي رخاء ماشيته وفي نجاح محاصيله المطرية أو زراعته النهرية. ونفخر بمرأى ساقية جيدة الصنع كأننا أصحابها وطفل سمين خال من الذباب (لا يوجد كثيرون) وحوض خضراوات خال من الحشائش بصورة معقولة. راكباً جملاً أو بغلاً أو حصاناً أو حماراً من قرية إلي قرية أو راجلاً يوماً إثر يوم من مكان إلي آخر مما جعلنا في مودة مع أهل الريف – مودة سرعان ما نضجت في صداقة. متذكرين هذه الزمالة السابقة. إذا كان السودانيون مستعدين أن يقبلوا لفترة البريطانيين ليس كحكامهم بل كموجهين ومستشارين أصدقاء كم ستكون الصعاب التي تواجههم أقل صعوبة.

في المستقبل القريب على السودانيين أن يحددوا لأنفسهم كيف تكون علاقاتهم مع الأمم الأخرى. ربما يفضلون استقلالاً تاماً أو نوعاً من علاقة الصداقة والاقتصاد مع مصر أو ربما – حلم بعضنا – جميعنا الثلاثة بريطانيون وسودانيون (عرباً وجنوبين) ومصريون ناسين أي سوء فهم ربما فرَّق بيننا في الماضي متذكرين فقط الصداقة التي كثيراً ما وحدتنا سوف نستطيع أن نجد قاعدة مشتركة لتعاون ملائم. لدينا الكثير المشترك بحيث أننا قد نسأل ماذا كان سيكون مصير مصر والسودان إذا خسرت بريطانيا معركة العلمين واستولت قوات المحور على قناة السويس. مرتين خلال جيل تم إنقاذ مصر من غزو وذلك برجال الكومونولث البريطاني.

الآن علينا جميعاً أن نواجه عدداً آخر أكثر مكراً ولكن ليس أقل حقارة من أولئك الذين هزمناهم في السابق. كم سوف تعني بالنسبة لاستقرار الشرق الأوسط وبنسبة التقدم السلمي للبشر إذا اتحدت مصر والسودان والكومونولث البريطاني دفاعاً عن الحرية التي نحبها !

قبل سنوات عديدة قال أقري : « أفريقيا تستطيع أن تعزف نوعاً من اللحن على أصابع البيانو السوداء. ولكن لتآلف الألحان يجب أن تستخدم السوداء والبيضاء. »

حيث أن حكم البريطانيين قد وصل إلي نهايته المنجزة سوف أختار ككلمة مناسبة ، بعض كلمات أوديتي كيون (غير محب للبريطانيين) كُتبت قبل ربع قرن : « لكن كل شيء آخر يختفي أما الحقائق فتظل مكتوبة لا تُمحي في الضمير الجمعي للإنسانية. ولا النصر ولا الهزيمة في الماضي أو المستقبل يمكن أن تمحو علاماتها»

الحقائق هنا هي أنه بينما حكم الإنجليز السودان فقد أطلقوا سراح العبيد وقمعوا العبودية وزادوا الازدهار ونشروا التعليم وحموا الضعفاء والمغصوبين. حموا وعلموا القوة لأولئك الذين كانوا سوف يصبحون ضحايا للزعماء والقسس. وحاربوا المرض وأخّروا الوفاة. وطيلة معاناة جنسنا البشري فإنّ هذه الأشياء سوف تدخل في تكوين روحه وتكوّن جزءاً من تراثه. لا يوجد في النهاية معنى آخر لسعى الإنسان ولا مكافأة أخرى. »

رقم الايداع : ٢٠١٥/٥٣٨م

كتاب الخطوة